اشهر مشاهير ادباء الشرق

مزين بالرسوم

شوقى ، العقاد ، طه حسين ، كرد على ،
فريد وجدى ، خليل مطران ، عبد الله
فكرى ، الأفغانى، محمد عبده ، فتحى
زغلول ، عبد الله النديم ، المنقلوطى

وضعه محمد محمد عبد الفتاح

الجزء الاول فى نوابغ الاحياء

الطبعة الثانية الناشر

عطية محمد على الكتبى

يطلب من المكتبه المحموديه التجارية

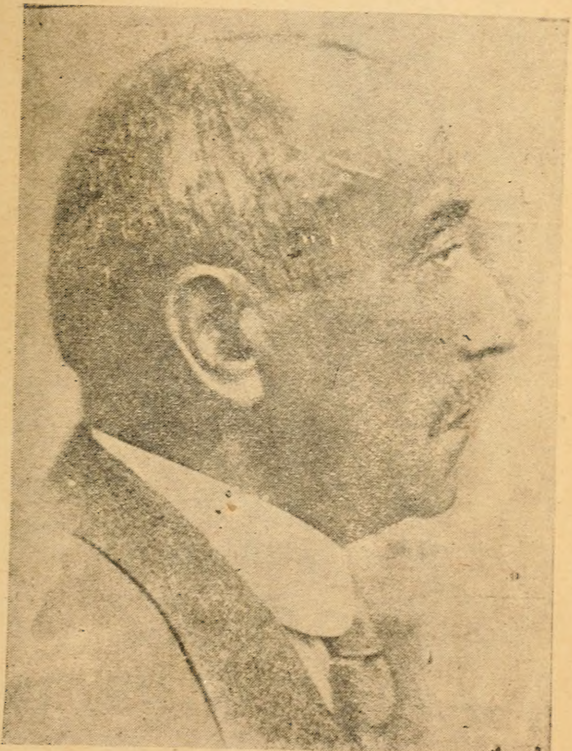
لصاحبها ومديرها : محمود على صبيح

الكائن مركزها بميدان الجامع الازهر الشريف بمصر

فهرس الجزء الاول

صحيفة

الشاعر الناثر



أمير الشعراء احمد بك شوقى

جزء الاول صحيفة ٣

١

أمير الشعراء احمد بك شوقي

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إنك أنت العون والوزر تباركت إياك نعبد
وإياك نستعين

من هو شوقى

بقلمه

سمعت أبى رحمه الله يرد أصلنا إلى الاكراد فالعرب. ويقول أن والده قدم هذه الديار يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إلى والى مصر محمد على باشا وكان جدى وأنا حامل اسمه ولقبه يحسن كتابة العربية والتركية خطاً وانشاءً فأدخله الوالى فى معيته ثم تداولت الايام وتعاقب الولاة الفخام وهو يتقلد المراتب العالية. ويتقلب فى المناصب السامية. الى أن أقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصرية فكانت وفاته في هذا عن ثروة راضية بددها أبى في سكرة الشباب ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم وعشت فى ظله وأنا واحده بما كان من سعة رزقه ولا أرانى فى ضيق حتى أندب تلك السعة فكأنه رأى لي كما رأى لنفسه من قبل أن لا أقتات من فضلات الموتى

أما جدى لوالدتى فاسمه احمد بك حليم ويعرف بالنجدلى نسبة إلى نجدة إحدى قرى الأناضول. وفد على هذه

البلاد فتيا كذلك فاستخدمه والى مصر ابراهيم باشا من أول يوم ثم زوجه بمتوقته جدتى وأصلها من موره جلبت منها أسيره حرب لاشرا . وكانت رفيعة المنزلة عندمولاها وكان زوجها محبوبا عنـده كذلك فما زالا كلاهما مغمورين بنعمة هذا البيت الكريم حتى توفى جدى وهو وكيل لخاصة الخديوى اسماعيل باشا فأمر بنقل مرتبة برمتـه إلى أرملته وأن يحسب ذلك معاشاً لا إحساناً وكان الخديوى المشار اليه يقول عنهما « لم أر أعفّ منه ولا أقنع من زوجتـه ولو لم يسمه أبى حليما لحلمه لسميته عفيفا لعفته »

أنا إذاً عربى تركى يونانى . جركسى بجدتى لأبى . أصول أربعة . فى فرع مجتمعه . تكفله لها مصر كما كفلت أبويه من قبل . ومازال لمصر الـكنف المأمول والنائل الجزل . على انها بلادى . وهى منشأى ومهادى . ومقبرة أجدادى ولذ لى بها أبوان . ولى فى ثراها أب وجدان . وببعض هـذا تحبب إلى الرجال والأوطان

اما ولادتى فـكانت بمصر القاهرة . حدثنى سيد ندماء هذا العصر المرحوم الشيخ على الليثى قال لقيت أباك وأنت

حمل لم يوضع بعض فقص على حلماً رآه في نومه فقلت له وأنا أمازحه ليولدن لك ولد يخرق كما تقول العامة خرقا في الاسلام

ثم اتفق إني عدت الشيخ في مرض الموت وكانت في يده نسخة من جريدة الاهرام فابتدر خطابي يقول هـذا تأويل رؤيا أبيك ياشوقي فوالله ماقالها قبل في الاسـلام أحـد . قلت وما تلك يامولاي قال قصيدتك في وصف (البال) التي تقول في مطلعها

حف كأسها الحبب فهي فضـة ذهب

وها هي في يدي أقرأها . فاستعذت بالله وقلت الحمد لله الذي جعل هـذه هي « الخرق » ولم يضربي الاسلام فتيلا

أخذتني جدتي لأبي من المهد وكانت منعمـة موسرة فكفلتني لوالدي وكانت تحنو علي فوق حنوهما وترى لي مخايل في البر مرجوة . حدثتني أنها دخلت بي على الخديوي اسماعيل وأنا في الثالثة من عمري وكان بصري لاينزل عن السماء من اختلال أعصابه فطلب الخديوي بدرة من الذهب ثم نثرها على البساط عند قدميه فوقعت على الذهب اشتغل

بجمعه واللعب به فقال لجدتى اصنعى معه مثل هذا فانه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض قالت هذا دواء لا يخرج الا من صيدلتك يا مولاى قال جيبى به الىّ متى شئت انى آخر من ينثر الذهب فى مصر . ولا يزال هذا الارتجاج العصبى فى الابصار يعاودنى وكان المرحوم الشيخ على الليثى كلما التقت عينه بعينى ينشد هـذا المصراع للمتنبى « محاجر مسك ركبت فوق زئبق »

شوقى

وكيف ينظم[1]

ينظم بين اصحابه . فيكون معهم وليس معهم . وينظم فى المركبة . وفى السكة الحديديه . وفى المجتمع الرسمى . وحين يشاء وحيث يشاء . ولا يعرف جليسه انه ينظم إلا إذا سمع منه بادئ بدء غمغمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد ثم رأى ناظريه وقد برقا وتوارت فيهما حركة المحجرين ثم بصر به وقد رفع يده إلى جبينه وأمرها عليه إمراراً خفيفاً هنيهة بعد هنيهة .

فاذا قوطع فى خلال النظم انتقل إلى أى بحث يباحث فيه حاضر الذهن صافيه جميل البادرة كمادته فى الحديث.

ثم اذا استأنف ذلك المنظوم ولو بعد أيام طوال عاد إليه كأنه لم ينقطع عنه مستظهراً ماتم عنه حافظاً لبقية المعنى الذى يضمره

«١» بقلم شاعر القطرين خليل بك مطران

يكتب القصيدة بعد تمامها وربما تمت ونسيها شهراً ثم ذكرها فكتبها فى جلسة واحدة . ولا يجهد فكره ولا يكده فى معنى أو فى مبنى

فاما المعنى فيجيئه على مرامه أو على أبعد من مرامه ولا ينضب عنده لأنه يستخلصه من عقل فوار الذكاء ومعارف جامعة

وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول ترى فيه من نسج البحترى ومن صياغة أبى تمام ومن وثبات المتنبي ومن مفاجآت الشريف لرضى ومن مسلسلات مهيار

المختار من شعره المنثور

الشباب

الشباب أيام آدار [١]، ودولة العذار [٢]، وأعنة الأوطار [٣] وهى مهار [٤]، وليلة العرس فى هذه الدار. سِنة كالطيف سراها [٥]، وقبلة الخلس [٦] حلم كراها، ونشوة يلتفت المستفيق لا يراها، وجنة لو خير المقبل [٧] بالعقل اشتراها. العشق فى غير جناحه، طائر لا ينهض به جناح؛ والكأس من غير راحه؛ غيبة الساقى بليدة الراح [٨]. والمال فى غير

---

(١) آدار فى الشهور العبرية يقابل (مارس) فى الشهور الافرنجية وهو مستهل الربيع (٢) العذار جانب اللحيه (٣) الاوطار الاغراض (٤) المهار جمع مهر وهو ولد الفرس والمراد أنها فى عنفوانها (٥) السنة الغفلة أو فتور يتقدم النوم والسرى السير فى الليل (٦) الخلس من خلس الشىء أخذه فى مخاتلة (٧) الجنة الجنون والمقبل المجنون يشفى من جنونه (٨) غباوة الساقى وبلادة الراح كناية عن ضآلة فرحها وضعف نشوتها

وشغله فى يومه . وملك يده ، فى غده . السلطان والدولة ، . والامكان والصولة ، والملك وكل ماحوله . نعم إذا لم تحرز فى الشباب فما هى فى الحرز الحريز [١] ، ودول إذا لم تمتز به فليست فى الدار [٢] العزيز . ولذات إذا لم يشهدها غادتها حسرة الفوت ، وراوحتها فكرة الموت . أروع الشهرة ما طار فى سمائه ، وأمتع الصيت ماسار تحت لوائه ، وأحسن الثناء ما أتى فى أثنائه ، ورف على قشيب ردائه [٣] . فى مطالعه يروع النبوغ ، كما تروع الشمس فى البزوغ ، أو الهلال الغلام [٤] فى البلوغ

فيا ناهب شبابه ، قاعداً للتجر [٥] ببابه ، يسرف فى الرحيق وحبابه [٦] ، ويتلف الصبا بين صبابته وأحبابه ، . . أفق ! تلك دنان [٧] ، لاتقوى على الادمان [٨] ولا يملؤها مرتين الزمان ، كرم لايوجد فى الجنان ، ولا ينبت فى

---

(١) الحرز الحريز الحصن المنيع (٢) الدار الكنف والملجأ (٣) الرداء القشيب الجديد النظيف (٤) أى الصغير (٥) التجر بائع الخمر (٦) الرحيق الخمر والحباب الحب (٧) جمع دن وهو إناء الخمر (٨) الادمان مداومة الشراب

« مالقة » ولا « شمبان »[١] . عناقيدة مختصره[٢] الثمار ، مختصرة الأعمار ، بريئة الخمر من الخمار[٣] . حلبها[٤] الافراح ، وجلبها المراح ؛ وهى فارضية[٥] الراح ، لم تطأها الأقدام ولم تمسسها الراح[٦] . فلا تعب الراقود[٧] ؛ واشربه نغبة نغبة[٨] ، ولا تخترط[٩] العنقود ، وكله حبة حبة

---

(١) جهتان بأوربا اشتهرتا بكرومهما (٢) اختصر الكلأ قطع وهو أخضر (٣) الخمار صداع الخمر وأذاها (٤) الحلب اللبن المحلوب (٥) روحانية نسبة الى ابن الفارض (٦) الاكف (٧) غب الماء شربه بلا تنفس والراقود دن الخمر (٨) جرعة جرعة (٩) اخترط العنقود وضعه فى فمه ثم أخرج عوده عاريا

المـال

يامال :

الدنيا أنت ، والناس حيث كنت ؛ سحرت القرون ، وسحرت من قارون ، وسعرت النار يانيرون [١] ، تعود الحقد أن يحالفك ، وأبى الحسد أن يخالفك ، وكتب على الشر أن يخالطك ويوالفك . الفتنة إن تركتها رقدت ، والحرب وهى الحرب [٢] ، تبعثها ذات لهب . عنك الرياح ومنك الحطب . تزرى بالكرام ، وتغرى بالحرام وتضرى [٣] بالاجرام . فقدانك العر والضر ، ونكد الدنيا على الحر . حالك وحال الناس عجب ، تملكهم من المهد ، ويقولون أصبنا وملكنا وترثهم عند اللحد ، ويقولون ورثنا وتركنا ! من عاش قوموه بما ملك : ومن هلك ، تساءلوا : كم ترك ؟ المحروم من

---

(١) سعر النار أوقدها ونيرون قيصر من قياصرة الرومان أشعل النار فى روما ، واشرف عليها من جبل ليبتهج بمنظر الحريق ، وقد ضرب المثل من هذا اليوم فى القسوة والطغيان (٢) الحرب الهلاك
(٣) أضرى فلانا بالشر أغراه به

أو ثقك ، والضائع من أطلقك . وهما فقيران من جمعك ومن فرقك كثيرك هم ! وقليلك غم . ومع التوسط الخوف والطمع والحرص والجشع . حذر النفاد ، ورغبة فى الازدياد . الملك سوقه اذا نزل إليك ، والسوقه ملك إذ علا عليك . أرخصت الجمال ، ونقضت الكمال ، وخطبت لهجن الرجال هجان ربات الحجال [1] . صويحبابك هنّ المفضلات ؛ وغيرهنّ المتروكات المعضلات [2] . العريان من ليس دونك منه سترة ، والمستضعف من ليس له منك قدرة فسبحان من قهر بك الخلق ، وقهرك برجال الخلق

---

(١) هجن جمع هجين وهو اللئيم والهجان من كل شىء خياره
(٢) عضل المرأة حبسها عن الزواج

الصبر

بعض الصبر تجلد ، وثم الحزم والرضاء ؛ وبعض تبلد[١]
وهنا العجز والاستخذاء[٢] . ليس الصبر غلاظة القلب ،
وبلادة اللب ، أو الجهل علي الاقدار ؛ وانكار الايراد عليها
والاصدار ، ولا هو اكتظاظ الأندية[٣] وألفاظ تجرى
بالتعزية ، ورجل يحدثك بالصبر ؛ وإذا أصيب تمنى القبر .
إنما الصبر استرجاعك[٤] فى النفس الحزينة ؛ حتى تفىء[٥]
إلى السكينة ، وتجىء[٦] عن نفسها إلى الطمأنينة . إيمان
يزع[٧] ، عند الجزع ، وعقل يزن ؛ إذا القلب حزن ،
ومقابلة الاحكام بالحكمة ، والعلم بأن النعمة نذير النقمة ،
وبأن الدهر حالتان ، والدنيا حلتان ، وأن من لم ينتفع بالضجر
رضى ؛ وأن لكل شىء غاية وينقضى

---

(١) التبلد الحيرة والتلهف (٢) الاستخذاء الخضوع (٣) امتلاء المجامع بأخلاط المعزين (٤) قولك « إنا لله وإنا اليه راجعون » (٥) ترجع (٦) تلتجىء (٧) يمنع من الحزن

الغد

غيوب محجوبة ؛ وحجب مضروبة وأقدار مكتوبة أعمار موهوبة ، أو منهوبة . وأرزاق مجلوبة ؛ أو مسلوبة . يزيد الملك القهار ؛ موعده حواشي الاسحار [١] ؛ أو غرة [٢] النهار . حملت الفجاءات نجائبه [٣] ، واشتملت على المستجدات حقائبه [٤] ، وبلغت مستقرها مغرباته [٥] وجوائبه [٦] . أقبل ففض المختوم ، وظهر المكتوم ؛ وانفجر المحتوم ، وإذ مناع وبشائر ؛ وإذا دولات [٧] ودوائر [٨] . واعلم يابن الأيام ان الغد أعده الله لك خير ماأعده ، ومده ؛ لك أيمن [٩] مامده . هو الشخص الثالث ؛ في رواية الأيام

---

(١) السحر قبيل الصبح (٢) غرة النهار أوله (٣) النجائب جمع نجيبة يقال ناقة نجيبة أى كريمة الأصل (٤) الحقائب جمع حقيبة وهى خريطة يعلقها المسافر فى الرحل للزاد ونحوه (٥) و(٦) المغربات الاخبار الطارئة والجوانب كذلك (٧) دولات الايام انقلابها من حال إلى حال (٨) الدوائر الدواهى (٩) أيمن من اليمن وهو البركة

والحوادث [١] ، والخلف من صاحبيه والوارث ، وهو معقد [٢] الآمال ، وموعد لاستئناف الأعمال ، ومرمى همة [٣] المال ، تنام الأنفس وفى إيمانها منه شك ، وفى أيمانها منه صك [٤] ؛ فاعمل له ما استطعت ، وانتظره أتى أم لم يأت وقل سبحان الذى أتى به ، والذى هو قادر على طى كتابه . يوم يأتيه أمره فلا يبرز من حجابه

---

(١) شبه الحياة برواية أبطالها ثلاثة : الأمس واليوم والغد
(٢) معقد الآمال موضع انعقادها (٣) يريد بهمة المال فوائده
(٤) الصك كتاب الاقرار بالمال ونحوه يريد أنه واثق بقدومه

كلماته المأثورة

أمس خبر . واليوم عبر . وغداً قدر . يأبى الله ويذر . لا يغنى عن نفس حذر . ولا ينفعها ضجر يا أيها الزمر (١) نفد العمر وأرداكم (٢) البطر . هل من أثر أو صالح يدخر . فما كان للدنيا فسير . وسلام فى الحضر . وأمان من سفر . أن للدنيا لخطراً . وان منها لمن علم لوطراً . الجاهل مقبور فى بدنه . رافل فى كفنه غريب فى وطنه .

جار الأثر . ان تجى الحجر . يتطلب فيها العبر . ويأخذ الخبر . عمن غبر .

الماس فوق التراب ماس . والخزف خزف ولو حمل على الراس . أما والآلهة فى معابدهم . وآباء الملك فى مراقدهم . لرب صادر عن هذا المنزل . أطهر من خارج هيكل

العلم والبيان خلقا ليكونا حرب الاوهام ونوراً يخرج إليه الأمم من الظلمات وأن حاملهما مطالب بالعمل والدعوة

(١) الجماعات (٢) أهلككم

الى العمل حتى النفس الاخير من الحياة فمن ثبط هممكم من علمائكم وعظمائكم فالووا الوجوه عنه وأنفروا بالاسماع منه ومن دعاكم الى حياة فذلك داعى الخير فاستمعوا له وانصتوا

من زل منكم فليستتر . ومن رأى زلة فليستر : من علم على أخيه فلينصح له همساً . وليرحمه فى نفسه وليدع له فى صلاته .

ما أولع الناس بالناس يشتغل أحدهم بشؤون أخيه . وفى أيسر شأنه ما يلهيه

اثنان فى النار دنيا وأخري الحاسدوالحاقد

اذا زاد تواضع الكبراء كان تلطفاً فى الكبر

الوقف من حرس النفوس ويراد به فى الغالب المال ثم البنون

امتن البناء ما اساسه الوقف وأخصب الارض ما طينته الوقف .

بين الحلم والخور جسر أدق من الصراط

الأيام مدارس الأحـلام . ولا يستوى فى العلم كهل ولا غلام .

ان للعقل كما للقدم زلة . وان للحليم كما للجاهل ضلة . وان للنفس مع الهوى مائلة والعاقل من اذا مال مع النفس اعتدل .

عليكم بالعلم خذوه نافعاً رافعاً واهجروا منه ما يميت إلى ما يحيى واطلبوه « لدينا تعلمون لهـا كأنـكم تعيشون أبدا . أو الآخرة تعلمون لها كأنـكم تموتون غـداً) وعليكم كذلك بالتربية فانها باب مدينة العلم لا تدخل إلا منه خذوا صحيحها ولا تأخذوا فاسدها واطلبوها لأنفسكم فان كبرت عنها فلأبنائكم فان لم تكمل لهم كملت لأبنائهن من بعدهم وكونوا « الحفظة » الذين تكرم عليهم بلادهم فى الشدة أضعاف ما تكرم عليهم فى الرخاء . يبكونها بالدموع آونة وفى القلوب آونة لا يفعلون لها عن حرمة : ولا يقصرون لها فى الخدمة . حبها لهم العشق لا التفات فيه الى ملامة . ولا قيمة معه للسلامة .

محب العلم يطلبه لذاته وهـذا أول التوفيق فى طريق التحصيل وسبب النجاح الأوثق لأن النفس حيث رضاها

وحيث يجعلها هواها ومن رضيت نفسه بالعلم فسما من أول يوم وامتلأ فؤاده من حبه أقبل عليه وضن به وانقطع له وألفى التعب راحة فى تحصيله واستوى عنده السلامة والعطب فى سبيله ثم لا يلبث العلم أن يعرفه قدر نفسه وأنه ما خلق فى هذا التقويم سدى ولا ساذ نوعه على هذا الوجود عبثاً فتأخذه من ذلك عزة بالحق وتنزل نفسه فى عينه منزلتها الحقيقية فيطلب العلم لها ويستكثر منه لأجلها ويجرى فيه الى الغايات فى سبيلها لما استقر عنده من أن العلم يحيي النفوس ويهذبها ويطلعها على الحياة وأسرارها ويوصلها الى كنه اغوارها ويسهل لها محياها . ويهون عليها الفواجع فى دنياها وهذه هى المنزله الثانية فى العلم يقف عندها سواد العلماء ولا يجاوز الا آحاد يسخرهم الآلهة بهذا الوجود فيعملون فيه العمل العظيم ثم يموتون عن تراث فى الفضل جسيم من بنيان يخلدون . أو حكمة يؤيدون . او مجد يشيدون . أوفن يجددون . وهذه هى رتبة الامتياز بالاختراع ولا يقال عن أمة أنها بحياة ولها وجدان حتى يبلغ بأفراد من بينها هذه الرتبة ولئن كان العلماء فى الارض عدد ما عرف من النجوم

فى السماء فهذا الفريق منهم كالكواكب التى لم تعرف بعد يكتشف منها واحد على رأس مئة وأنهم لأجل منها وأنفع فى الوجود وأهدى للناس ومابلغ بهؤلاء العلماء الى هذه الرتبة العلياء والمنزلة العظمى إلا تراقيهم في عرفان قيمة النفس ومعالاتهم بها واعتقادهم أنها لاتفنى وانها أجل ماهية وأعظم شأنا من أن تحصر بأيام الحياة القلائل ولئن تحتم أن تخرج يوما مامن هذا الهيكل الزائل فلها من جميل الذكر ومحامد الاحاديث هيكل خالدفاخر يتحلى فى الخواطر ولا تراه النواظر ولا يستأثر به مكان دون مكان ويتوارثه الدهر زمانا عن زمان:

ليس للعلم وطن ولا للحكمة دار بل العاقل من له على كل أرض مدرسة وعلى كل طريق أستاذ

لكل زمان كتاب . ولكل جيل آداب . ولكل كاتب قارئ . ولكل شاعر منشد والناس أحوج الى أدب من غير أديب ، منهم الى أديب بغير أديب

العاقل من رضى الدنيا حايله ولم يتخذها خليله . لانها كالمرأة تسكن الى نعل ولا تصبر على خل

المدرسة تقيم العقل فى طريق العلم ولا تتكفل بوصوله

كالمعبد يمد السريرة فى الاعتقاد ولا يتكفل لها بكشف الغطاء ، فرب عابد فى نفسه وصل . ومتعلم من نفسه حصل

العدل أساس الملك . ولا عدل إلا حيث القضاء يدور دولابه. وبولاه أربابه . وتوثق أسبابه . فهو مرآة الحكومات التى تتراءى فيها بما هى من استقامة أو عوج . وظلم أو عدل. وصلاح أو فساد . وارتقاء أو انحطاط . وأساس الممالك إذا سلم سلمت . وإذا تهدم انهدمت . وعنوان شعور الأمم وتعلقها ودرجتها فى القوانين التى تضعها كل أمة وتتواصى بالخضوع لها ليست إلا مجموعة تاريخها وآدابها وأخلاقها وعاداتها ولان القائمين عليه بهذه القوانين ليسوا إلا أفراد من أبنائها يبصرون بعينها ويسمعون بآذانها ويشعرون مثل شعورها ويجدون مثل وجدانها فاذا زكوا زكا سائر الامة وإذا خبثوا خبثت الأمة جمعاء

النيات موازين الاعمال لاغنى للقضاء عن تقديرها والتأمل فيها والوقوف حيث هى من صلاح أو فساد فى الحكم على صلاح الاعمال أو فسادها

الشاهد عنوان الامة فاجعلوا عنوانها الصدق والفضيلة

لا المين والرذيلة . شاهدين يقول أحدهما رأيت نهاراً فيقول
الآخر رأيت ليلا ويقول الاول سمعت ضحكا فيقول الآخر
سمعت بكاء لمن حقهما أن يفصل بينهما قبل أن يفصل بين
المتقاضيين فمن كذب منهما يسلب السمع والابصار وينادى
عليه فى الناس بالفضيحة والعار

لو أن من الآلهة قضاة في الأرض ومن الملائكة
متقاضيين وفسد الشاهد لفسدوا جميعاً .

لا فضيلة ولا عبادة حيث يختلف اثنان في شهادة وانى
لأعجب لكم معشر الحكام كيف تقبلون من شاهد أن
يثبت ومن آخر أن ينفى وأنتم تعلمون أن أحدهما كاذب أو
محرف للشهادة لا محالة وقبول الكذب إغراء به .

الفضيلة هى روح الشرائع التى يحكم بها الملك رعاياه فلا
ينبغى لها أن تنصر عليها الرذيلة فى حال من الأحوال

الأوهام أدواء لأمم منذ القدم لم تخل منها أمة خالية
ولن تخلو منها أمة آتية

خلق الانسان من ضعف فكان الوهم أول دين دان

به أول حكومة دان لها وأول شيطان سكن اليه . كان على وجه الدهر يستقبل المجسمات ويتخذ منها آلهة يسجد لها ولا يزال آخر الدهر يتوجه اليه بالتأليه والتقديس والتنزيه وإذا عبدالله كما تعبدونه أنتم والنصارى واليهود كان لله الشطر من تلك العبادة وللأوهام الشطر فالمسيحى يبلي الحديد فى كنيسة القديس بطرس بروما استلاما وتقبيلا . كما يضع المسلم خده فى عتب الاضرحة بالقاهرة تمسحاً وتأميلا . وتعظيما وتبجيلا . وكان فى شبيبة الدهر يؤله بالجبابرة من البشر أمثاله ويحكمهم فى عرضه ودمه وماله

الوهم أول شيطان سكن اليه الانسان . تولد منه يقينه ونشأ عنه علمه وجرت عليه أموره وانبنى عليه حكمه وتألف منه مألوف عاداته . يحس به ويشعر . ويسمع به ويبصر . ويعجز به ويقدر . وبه يعيش وعليه يموت

الأوهام لا تخلو منها الأمم الكبيرة والشعوب الحية إلا أنها تقف حينئذ حيث العامة ولا تتجاوزها الى الخاصة إلا ما ندر كما أنها تتملك الأمم الصغيرة والشعوب المنحطة

فيكون للخاصة منها مثل حظ المامة وهنا عظيم البلوى ومنتهى نكد الدنيا

أليس من الوهم القاتل للانفس المميت القلوب أن يصبح في أذهان خاصة المصريين من أمراء وعظماء وأدباء وعلماء أنهم أمة ليس فيهم فلاح ولا يرجى فى أمرهم صلاح وأن اتفاقهم سابع الجهات ورابع المستحيلات وأن الوطن ميت وأنهم ميتون وما أشبه ذلك من الدعاوى الباطلة التى لا تنطبق على نواميس الوجود ولا ترد الى أحوال البشر وحوادث التاريخ

الأوهام داء الامم ومنية الشعوب إذا تمكنت من قوم كانت كالفأس فى الاساس وكالنار في الشمار وكالحبل فى الخناق وكالعلة في القلب لا يخفق معها إلا الى حين . ومن تبالغ نكد الدنيا على الشرق الحاضر تبالغ هذا الداء فيه . حكوماته دواليب تدور بالاوهام وبلدانه مملوءة مابين السما كين من الاوهام وأممه تروح وتندو وحيث تجعلها الاوهام . نظر الواحد منهم فى الامور عرضا وبعين غيره وحكمه فيها عن الهوى وانقياده فى إيرادها وإصدارها بأزمة الاوهام

ليس مع السلوة عيش ولا مع القنوط عمل ولا مع اليأس حياة . وليس أجلب للشر والضر من الدعوة الى الربوض وتوهين العزائم وإماتة القلوب وإخراج النفوس من الرجاء الى اليأس الذى هو الموت فى أشنع صورة وأقبح أحواله .

آفة النصح أن يكون جدالا . وأذاه أن يكون جهاراً

شرف الكبراء كالورد فى إبان . [1] غضاضته إذا نزعت منه ورقة انحل واندثر . وانتقض جميعه على الأثر

إذا ذهبت الامم بقيت إلا من علم أو تعلم

إذا كثر الشعراء قل الشعر . لا يزال الشعر عاطلا حتى تزينه الحكمة . ولا تزال الحكمة شاردة حتى يؤديها بيت من الشعر

الامم تموت ولئن بدت عليها دلائل الموت فى أزمنة الاضمحلال فما تلك الا بؤسى تزول وحال ستحول الامة . تصح ثم تعتل . تتجدد من حيث تبلى وتقوم من حيث تسقط وتصح بالعلل . هذه اليابان هل كان فى حسبان

---

(١) فى أول طراوته

أحد أن تضم صوتها يوما ما الى أصوات دول الغرب مسألة من أكبر مسائل العصر وتطمع مع الممالك الطامعة وتسير الجيوش فى البر وتخرج الاساطيل فى البحر وقد كانت وأنت فى زمن الدراسة لا يذكر اسمها إلا مقرونا باسم الصين عنوان الهمجية ومثال التوحش والمشبه به اذا ذكر التأخر والانحطاط .

الغضب يعمى صاحبه . ويضل راكبه . يريه صدور الامر ولا يريه عواقبه

عرفت صنوف العلم فلم أر كالفلسفة يأخذها المرء من نفسه ثم من حيث التفت فرأى وكلما قيل له فسمع من حديث المتكلم أن صدقا وان كذبا وصموت الصامت أن بكامة وان بكما ونعيم المنعم وبؤس البئيس ومشية المتكبر وهذيان المهوس وعربدة السكران ومن النمل فى مشاغلها والنحل فى معاملها والذر فى مستشاره والبرق فى مستطاره . والزهر إقباله وإدباره والفلك ليله ونهاره . والبحر مضطربه وقراره . ومن النفس إذا اعتلت وإذا صحت وإذا طمعت

وإذا رغبت وإذا تسلت وإذا جشأت وإذا اطمأنت وإذا شكرت وإذا جحدت . ومن الطباع إذا امتحنت والسرائر إذا بليت والهواء إذا اختبرت . مدارس لا يفرغ اللبيب منها . ودروس لا يصبر الحكيم عنها

ثلاثة لثلاثة بالمرصاد . الموت للحياة . والشقاء للذكاء والحسد للفضل .

انى لا أشفق من الخمر على الخاصة فان لهم عقولا تردهم أحيانا الى الاعتدال فى أمرهم وأشغالا من العيش وأسبابا من السعة تعينهم على الخمر وتقيهم كثيراً من عواقبها ولكن أشفق منها على العامة فهى فيهم سلطان جائر يفتك ولا يرحم وشيطان ثائر يسكن الرؤس فيملأها شراً ويتملك النفوس فيملأها خبائث وإذا هلكت العامة فى أمة فقد هلكت الخاصة

التاجر بالخمر قاسى القلب لا يرحم صرعاه . غدار لا يشيع جنازة قتلاه . غشاش لا يقف فى الغش عند حده شره لا يقصر فى الكسب عند غاية فاذا لم يكن منكم رقيب عليه

ولم يضرب القضاء على يديه عظم شره وعم ضره وتشبه به الكثيرون من أهل الكسل والشره

عليكم بالاقدام فانه مفتاح الغنى والطريق المختصر إلى العلياء والسلاح الامضى فى معترك الاحياء به سدت وعليه اعتمدت فيما أسست وشيدت وانه ليخرج أصحابه من غمار العامة الى عليا مراتب الملوك ومن هون الخمول الى العز والسؤدد والذكر الجميل

الذى يميز علماء هذه الأمة علي غيرهم ويجرى بهم الى الغايات ويكفل لهم السبق ويجعلهم أساتذة وقتهم ومصابيح عصرهم أنهم يطلبون العلم لذاته ثم لأنفسهم ثم للاحاديث من بعدهم وهذه الثلاثة ما قامت بنفس طالب علم رزق الحجى والذكاء وفسحة الأجل إلا نبغ فى حياته ثم جاوز ذلك الى رتبة الخلود بالذكر بعد مماته

حظ النفس من الحرص حظ المقاتل من السلاح ، إذا زادعن حاجته اختبل ، وناء بما حمل وإذا قصر تقهقر وانخذل

لا تهافت على اللئيم فتتهم فى مروءتك — ولا على الغنى فتتهم فى عفتك — ولا على الجاهل فتتهم فى فطنتك

لا تعطوا الغواية أزمتكم فتسلب منكم ذكائكم وهمتكم . دخل الرعاة بلادكم فى شبيبة الدهر فأفسدوا فيها وجعلوا أعزة أهلها أذلة . وكان آباؤكم على أخلاقهم القديمة يأخذون الفضيلة ويذرون الرذيلة صحاح العقول صحاح النفوس صحاح الأبدان ، فاستجمعوا فى وقت السكون ، ثم وثبوا في وقت الوثوب فاستردوا ملكهم بقوة . ويراد منكم أن تكونوا فى الامن فى درع مضاعفة من الفضيلة لا تأمنون الدهر أن يأتى على عجل . ياحملة السلاح لا تقتلكم فى السلم الراح . ياحملة العلم . لا تغلبكم الخمر على الحلم

التاريخ المصرى القديم لا يزال فى عهد الطفولية الاولى إذا نحن قسناه بمعاصرات العلوم والفنون وما صارت اليه من تمام الوضوح وكمال الثبوت وإن الحقيقة معه لا يستقر بها خبر . فهى عين تارة وأثر . تحيي بحجر وتموت بحجر . فالمستند اليه فيما هو قائل إنما يستند الى ظلام زائل . أو جدار مائل وهذا ما أنبه اليه المؤرخ الذى أعوذ بالله بين يديه أن أكون من الجاهلين

اللغات رأس أموال الأمم وما سواها من علم وأدب وصناعة وزراعة وتجارة وإمارة فثمرات تكون بقدر رأس المال وعلى حسب استعماله . فما لنا لا نوجد رأس مالنا لكى نزداد ثروة وتمكننا واقدامنا على جسيم الاعمال . ما لنا لا نكتب فى شبه لغة واحدة إن كنا لا نقدر أن ننطق بلغة واحدة . مالنا لا نتبادل الأفكار . مالنا لا نتناقل الاحساس مالنا لا نفعل كما يفعل أولئك الأمم والشعوب

يامعاشر الصناع . من كان الوقت رأس ماله والصحة سبب رزقه والكسب قوت عياله فليهجر الخمر فانها مضيعة الوقت ضارة بالصحة آفة للنشاط

ثلاثة تعرض ولا يأمنها أحد أن تفاجئ المرض والمصيبة والغواية وما شكر أحدكم الآلهة على الخلاص منها بأفضل من رحمة الواقعين فيها

انظر الى هذه الجبال كيف قطعت . وإلى الأثاث كيف وضعت . وإلى العمد كيف رفعت . والى الزخارف كيف جمعت .

هل ترى فى جميع ذلك الا معرفة فى العلم ودراية فى الفن . ومهارة فى الصناعة وغير إحكام فى الصنع واتقان فى العلم ورغبة فى الثناء وهمة عالية فى الأمر وذكاء فائق فى الأمور وطاعة واجبة للملك على الرعايا وعدالة مفروضة للرعايا على الملك وهذه يابنى أسس الآداب ورؤوس الاخلاق وقوى الحياة فى الأمم وسر نجاح الشعوب

ان بيوت التجارة لا تعمر ولا يرفع لها عماد حتى تكون أوسع من صدر الحليم وأرحب من فناء الكريم تخف بالثقلاء ويدارى فيها السفهاء ويعالج البخلاء ويصبر للاغبياء ويتهافت على الغلظاء ويحمل فيها الكبرياء

الكاتب الاجتماعي الكبير



الاستاذ عباس محمود العقاد

جزء الاول صحيفة ٣٤

٣

الاستاذ عباس محمود العقاد

الاستاذ عباس محمود العقاد من نوابغ الطبقة الجديدة من الـكتاب فى مصر فهو من المطلعين على آداب الغـرب وآداب العرب معاً وعلى كونه واسع الاطلاع ملمـاً بكثير من نتائج القرائح فى العصور السالفةوالمتأخرةفان لهشخصية خاصة به لا يتنزل عنها فى ما يكتب وله كـذلك أسلوب خاص جامع بين المتانة والسلاسة

المختار من نثره

سر تطور الامم

مبحث ضاف جليل فى نقد نظريات كتاب سر تطور الامم

كتاب من الكتب القيمة وضعه عالم فرنسي جليـل.

وعربه وزير مصرى عامل. والكتاب على صغر حجمه وايجاز أبوابه من الأسفار التى قل أن يلج مثلها إلى عقول المصريين من جانب اللغة العربية. وأيسر ما يقال فيه أنهسيعوّدالقراء أسلوب البحث الجـديد فلا يركنون إلى تلك المباحث التى مدارها على التلفيق. وهى براء من المعنى براءتها من صدق النظر والتحقيق. فما أكثر الـكتاب الذين كانوا ينظرون عنـدنا الى أعضل مسائل الاجتماع وأغلق أبواب المستقبل بعين تتخيل الأفـكار كما يتخيـل الناظر الواهم صور الجمـال والثعـابين والحيتان فى قطع السحاب المـذعذعة فى السماء. وحسب الواحد منهم أن تتم فى ذهنه صورة ملفقة على هذا النمط فيبرزها للناس قضية مسلمة. ويبنى عليها النتائج البعيدة والنظريات الخطيرة

أفرد المؤلف أكثر فصول الكتاب لتجلية الفكرة التي يحوم حولها في أكثر كتاباته . وهي أن لكل أمة روحاً تسير أعمالها . وهذه الروح هي التي تكيّف أطوار الأمة وتشكل ملامحها الظاهرة . واليها يرتد سبب كل حركة من حركاتها . وقد غالى في وصف مالهذه الروح من الأثر في كافة أحوالها . إلى حد يوهم أنه ينكر ما للعوارض الطارئة من الأثر الثابت في حياه الأمة . والحقيقة أن لهذه العوارض شأناً في تاريخ الأمم لا يحسن إغفاله ولا سيما من وجهة النظر السياسي . كما أن الربان الحاذق لا يجلس مجلسه من السفينة الا ليرقب ما يهب عليها من الأعاصير . ويثب اليها من الأمواج . ولا يغنيه علمه بأدوات سفينته وفجاج البحر الذي يسلكه عن الدربة علي قيادة السفينة في تلك الأهوال . والا فان ثورة واحدة من تلك الثورات قد تهوى بالسفينة إلى القرار . وما العوارض الطارئة إلا الخيوط التي ينسج منها روح الأمة . ويتكون من مجموعها سلسلة اختباراتها وذكرياتها الماضية . وهي لا تجعل في الأمة شخصا غير شخصها . ولكنها تغير بنية ذلك الشخص . فليس لروح

الأمة دخل فى تاريخها إلا بقدر ما للارادة فى تاريخ الفرد . وكثيراً ما تكون الارادة منفعلة بما يطرأ عليها ولا تكون هى الفعالة إلا إذا جاءت الحوادث بما يوافقها . وقد بالغ المؤلف فى تقدير طول الزمن الذى يرسخ فيه المبدأ فيصير عقيدة موروثة وجزءاً من أجزاء تلك الروح . وهى مبالغة غير محمودة لأنها توقف المصلحين موقف الحذر الشديد عند كل حركة جديدة . وتصغر من قيمة الفرص الوقتية فى حسابهم لا سيما إذا كان لا سبيل الى تشخيص روح الأمة ومزاجها تشخيصاً يقطع الشك باليقين . ذلك ما هو واضح من غموض الفكرة نفسها فى الكتاب فان المؤلف لم يستطع ألا أن يلم بها إلماماً غير محيط بها ولا ضابط لدقائقها . حتى ان القارىء ليخرج من الكتاب وهو لا يدرى حد الفارق بين روح الأمة الانكليزية والامة الفرنسوية . هذا على أنه يكاد يكون موضوع الكتاب الذى جاهد المؤلف غاية الجهد لتبيينه وتفصيله . ولا ريب أن مثل هذه الفوارق التى لم يلمسها المؤلف الا بيد الحس لا يصح أن تكون أساساً للاحكام العريضة التى سجلها على أكبر مبادىء العصر بل

على الدين الجديد فى عرفه . فاذا كان الغرض من تقدير تلك الفكرة المبهمة الاشارة إلى اختلاف الأمم فى الأمزجة فذلك ما لا نزاع فيه أما إن كان يرمى به الا أبعد من ذلك فالحق يقال أن قدمى هذه الفكرة لا تحملانها الا أبعد من تلك الغاية . اذ ليس فى الكتاب ما يبين بيانا جازما أن الحادث الذى يقع فى هذه الأمة لن يقع مثله فى أمة أخرى وليس فيه حجة دامغة تنفى القضايا التى قررها علم مقابلة التواريخ وأيد بها قولهم أن للامم أطواراً تمر بها كل أمة حية وانه أن اختلفت الأزمان بعداً وقرباً فذلك لاختلاف المناسبات والطوارىء ولشىء قليل من تباين الأمزجة . ولكن هذا التباين لا يمنع أمة من أن تعتنق كل رأى فى حينها المقدور لها . وان كانت ربما دعته بغير ما يدعى به فى الأمم الأخرى . تبعاً لاختلاف اللغات . وتفاوت الاحوال والعادات

فليس فى مجلس انكلترا مثلا حزب اشتراكى كحزب فرنسا الاشتراكى ولكن فيهما حزبا للعمال . وكلا الحزبين غايته واحدة ومطالبه متشابهة . وهى أنصاف طبقات العمال

من أصحاب الاموال . والدكتور لوبون يقول مع ذلك أن الاشتراكية شاعت فى فرنسا لان مزاج أهلها يميل بهم الى الاعتماد على الحكومة ولم تسع فى انكلترا لان الانكليز أهل استقلال لا يعولون الا على أنفسهم — دع ذلك وانظر صوب ألمانية فانك ملاق فيها شعبا اشتراكيا صريحا وحزبا يمثل الاشتراكية في مجلسها هو أقوى الأحزاب وأوسعها نفوذاً والالمانيون كما نعلم شعب سكسونى قريب مزاجه من مزاج الامة الانكليزية فما باله فى هذه الحالة أشبه بفرنسا اللاتينية منه بانكلترا السكسونية؟ ؟ وكأن الدكتور يحسن بركة تعليله فى هذه النقطة فجعل الاشتراكية آفة أوربية عامة . وعبر المحيط الاطلسى ليدله فى الدنيا الجديدة برهانا يدعم به رأيه فانظر كيف يقول فى ذلك « واذا أردنا أن نعرف بكلمة واحدة ما بين أوربا والولايات المتحدة من التفاوت قلنا أن الأولى مثال ما يمكن أن تنتجه الامة التى قامت فيها الحكومة مقام الفرد . والثانية مثال ما يمكن أن تنتجه همة الافراد الذين خلصوا من كل ضغط رسمى . وليس لهذه الفروق الكلية منشأ الا الاخلاق ومن المحقق

أن الاشتراكية الاوروبية لا تجد لهامكانا تنزل به فى البلاد الاميركية. لان الاشتراكية آخر دور من أدوار استبداد الحكومة فلا تعيش الا فى الأمم التى شاخت بعد أن خضعت قرونا طويلة الى نظام أفقدها الأهلية لحكم نفسها.... »

ولكننا نقول للدكتور أن الاشتراكية قد سبقته الى الولايات المتحدة أيضا. وأنها ليست فى بلد من البلدان أجهر صوتاً مما هى هناك. فليس فى الدنيا حكومة تضطهد الشركات كما تضطهدها جمهورية الولايات المتحدة . وقد طاردت هذه الحكومة منذ سنوات أكبر شركات الاحتكار فحلتها وألزمتها غرامة فادحة فكان الجمهور الاميركى يهلل لها ويثنى عليها واذا قرأت أيام الانتخابات برنامج كل حزب من أحزاب السياسة هناك رأيت كيف تتبارى فى ارضاء طوائف العمال ومهاجمة كبار الماليين وكيف تحبر الصحف الفصول الطوال فى تقبيح مطامع الاغنياء والعطف على الفقراء فان كان الدكتور يعنى بالاشتراكية غير هذا

فليهدأ بالا فليس فى أمـيركا ولا فى أوزبة. لا بل ولا فى الدنيا بأجمعها اشترا كية

* * *

وفيهما خلا وصف روح الأمة وشرح مالهذه الروح من التأثير فى تكوينها. فالكتاب بجملته جملة منكرة على المساواة ولأشـترا كية. يخيل اليـك أن الدكتور لوبون يكتب عن المساواة بقلم شارل الاول أو لويس السادس عشر. وانه يكتب عن الاشترا كية بايعاز من روتشيلد أو روكفلر فتراه ينعى على مبدأ المساواة ولـكنك لا تعلم منه كيف يكون عدم المساواة. وتراه يتشاءم من الاشترا كية كما يتشاءم الناس عن نعيب البوم. لايعلمون لذلك التشاؤم سبباً. ولعل فى الاشترا كية شيئا من ثقل الدم لايقبله مزاج بعض الناس ومنهم الدكتور لوبون؟؟

فمن أقواله عن المساواة: «غاب عن بعض الفلاسـفة تاريخ الانسان وتقلب ماهية قوته العاقلة وتغير قوانين تناسله الطبيعية فقاموا ينشرون فى النـاس فكرة المساواة بين الافراد وبين الشعوب»

« خلبت هذه الفكرة أذهان الجماعات فارتكزت فى عقولهم ارتكازاً قوياً وآتت أكلها بعذر من يسير فزعزعت أسس الجمعيات الأولى وولدت أعظم الثورات ورمت أمم الغرب فى اضطرابات شديدة لا يعلم مصيرها الا الله » ثم يقول « الا ان العلم تقدم وأثبت بالبرهان بطلان مذاهب المساواة وأن الهوة التى أوجدها الزمان فى عقول الأفراد والشعوب لا تزول الا بتراكم المؤثرات جيلا بعد جيل » ثم يقول بعد ما تقدم : ما من عالم نفسى ولا من سائح ذى نظر ولا من سياسى مجرب الا وهو يعتقد الآن خطأ ذلك المذهب الخيالى أعنى مذهب المساواة الذى قلب الدنيا رأسا على عقب وأقام فى القارة الأوربية ثورة ارتج السكون منها وأذكى فى القارة الاميركية نار حرب الاجناس وصير جميع المستعمرات الفرنساوية فى حالة محزنة من الانحطاط ومع ذلك فقلما يوجد بين أولئك المفكرين من يقوم فى وجهه بمعارضة ما . . . »

كل ذلك جرى من سريان مذهب المساواة ! ! على أن دعاة المساواة لم يشطوا فى مذهبهم . وقد علموا أن

الناس ليسوا على غرار واحد فى العقل والفضل . فالعجب للدكتور ما باله يبادر فيمسك بألسنتهم ويأخذهم بشهادتهم كأن هنالك تناقضا بين قولهم ودعوتهم ! ! فان دعوتهم الى تساوى الناس فى الحقوق أمام القانون لا تعطل تنازع البقاء بينهم ولا تذهب بمزايا التفاوت بين قادرهم وعاجزهم . بل هى تفسح المجال لهـذا التنازع وترفع العوائق التى يضعها فى طريق المنافسة استئثار بعض الناس ببعض المنافع بلا موجب للاستئثار . وبغير هذا المبدأ لا يكون ثمت معنى للنظام والقانون الا إذا كان الغرض من أبطال المساواة الدعوة الى اطلاق الناس أقوياءهم على ضعفائهم . وتحقيق مذهب الفوضى يحق لأعداء المساواة أن ينكروا على دعاتها كل الانكار . ويحق لهم أن يحتجوا عليهم « بأن العلم تقدم وأثبت بالبرهان بطلان مذاهب المساواة » هذا إذا كان دعاة المساواة فى شك من ذلك . أو إذا كان قد قام منهم قائم يمنى العامل الجاهل بأن يتبوأ منصة الفيلسوف فى الجامعة أو يسول له أن يطالب بوظيفة الطبيب أو المهندس . ولكننا نعلم أن داعيا كهذا لم يقم ولن يقوم لان مديرى البيمارستانات لا

يفرطون فى مثله اذا ظهر . وكل مايعنى به الداعى الى المساواة ذلك العامل انه يكون متساويا مع سائر الناس فى الأمن على حياته . وهل فى ذلك من ضير ؟؟ وإذا كان مبدأ المساواة لا يمنع انسانا حق التمتع بثمرة تفوقه فى المعارف أو المواهب العقلية على سواه . فأى ضير فيه ؟؟

ان كان الدكتور يضم هذا العصر بأنه عصر الجماعات وأنه يبيح للفرد الجاهل من الحقوق السياسية ما يبيحه للفرد المتعلم . وأن صوت الدكتور الفيلسوف كصوت الزارع الغبي فى انابة النواب وانتخاب الحكام فهذا أمر لا محيص عنه ولا سبيل الى ابداله بما هو أصوب منه . على ان التساوى فى أصوات الانتخاب ليس الا تساويا صورياً . والحقيقة ان لكل انسان من الاصوات بقدر ماله من العقل والقدرة على اقناع سواه باختيار من هو أفضل من غيره للنيابة ، وذلك ما يجعل اكبر الناس عقلا اكبرهم قسطا فى سياسة بلاده ، فان كان بعض الموسرين يستعين بالمال على شراء الاصوات ويستخدم تلك الاصوات المتعددة فى غرض

واحد . فذلك ما يشكو منه الاشتراكيون الذين ينقم عليهم الدكتور لوبون

وهب أننا اليوم أبطلنا مذهب المساواة ، فمن يا ترى يحكم بين الناس ويقدر لكل منهم ماهو أهل له من الحقوق السياسية والأدبية ؟؟ أترانا نلجأ فى ذلك الي الحكومة ؟؟ ذلك ما يأباه الدكتور لأنه يريد أن يقصر عمل الحكومة على الضرورى الذى لا يسع الافراد القيام به . فأولى به وهذه ارادته إن لا يدعها تتداخل بين الناس حتى فى ترتيب أقدارهم وتمييز درجاتهم كأنما هم كلهم موظفون في دواوينها — فلم يبق إذن الا أن نترك الناس يدعى كل منهم ما يقدر علي تحصيله بذراعه — وبمثل هذا النظام نأمن شر مبدأ المساواة ولا نكون قد تركنا أضغاث أحلامنا بالمساواة العامة تغشى بصائرنا لاننا « اذا تركنا أضغاث أحلامنا بالمساواة العامة تغشى بصائرنا كنا أول ضحاياها فما المساواة الا بين المنحطين وهى مطمح آمال صعاليك العقول يحلمون بها وهم بأحلامهم من التعساء » الخ

* * *

ذلك حديث صاحب الـكتاب عن المساواه ، أما الاشتراكية فهو كما قد يظهر من الشذرات التى نقلناها عنه شديد الطيرة منها . وهو يمثلها تمثيلا مشوها . ويعمد إلى شر مذاهبها فيعرضه على القارىء فى حالة مشنوعة ثم يعمم حكمه على مذاهب الاشتراكية بحذافيرها . فتارة يحكم بأنها ستؤدى بالامم الى أرذل درك الانحطاط حيث يقول « نعم لاحاجة لأن يكون الانسان ضليعا من علم النفس ولا من علم الاقتصاد لينبىء بأن العمل بمقتضى مبادىء الاشتراكية يفضى بالأمم الى أرذل درك الانحطاط وأخرى صور الاستبداد»

وتارة يصورها لك كما هى فى أذهان الجهلاء الواهمين. فيسبق الى ظنك ان هذه الاشتراكية صنف من الأفيون استوردها أئمة الاشتراكية من بكين . فهى كما يقول الدكتور « تمثـل فى ذهن النظر الفرنساوى صورة جنة تساوى الناس فيها فتمتعوا بالسعادة الـكاملة فى ظل الحـكومة . وتمثل للعامل الألمانى حانة طبق دخانها وطفق رجال الحكومة يقدمون لـكل قادم أطباقا من لحم الخنزير أو الكرنب المملح ودنانا من الجعة الخ »

وأما والله لو كانت هذه هى كل الاشتراكية لما عز على الدكتور علاجها فما هو إلا حمل من النشادر يحتسبه على نفقة أحد المرابين أهل الخير - والمرابون كلهم يشفقون على الناس من سكر الاشتراكية - ثم يسعطه أولئك المساكين فيفيقون من ذلك الخدر العميق - ولكن هذه الأحلام ليست الاشق الاشتراكية الذى قد يلوح لبعض السذج من العامة ويبقى منها بعد ذلك مبادئها العملية وقواعدها وهى للأسف لا تدحض بالسفسطة ولا تنقض بالتعوذ والحوقلة لأنها مذهب مست اليه الحاجة وشعر به الناس قبل أن يعلنه الفلاسفة وأهل النظر . ولا سيما إذا كان بطلان مذهب الاشتراكية سر الدنيا « لا يعرفه إلا علماء النفس الواقفون على أحوال الحياة » وكانت « الأدلة التى تقنع به لا تأتى من طريق العقل »

الاشتراكية التى يراها الدكتور آفة الامم ومباءة الفناء والاضمحلال هى رجاء الانسانية ومعقد آمالها فى التعمير والبقاء

ليست اشتراكية اليوم أسطورة من الأساطير . ولا

هي وعد خيالى يبشر الناس بالتعادل فى الاقدار والتشاكل فى المنازل والارزاق ، كلا فليست المساواة بين الناس من همها ولكنها انما تدعو إلى المساواة بين الأجر والعمل وتطلب أن يعطى كل عامل ما يستحقه بعمله ، وأن ينتفع المجموع بأكبر ما يمكن الانتفاع به من قوى الافراد

إن كانت الدنيا قد حم أجلها وكارب يومها لان جائعاً يريد أن يشبع ، ومنهوكا يتمنى أن يستريح ؛ ومظلوما يود لو ينتصف ، فلشد ما هزلت هذه الدنيا ونحف مزاجها بعد ان احتملت فى ماضى العصور طغيان الجبابرة وبطر النبلاء ؛ ووطأة الدعاة والدجالين

ومن العجيب ان الدكتور لا يستقبح من أنظمتنا الحاضرة شيئا إلا كان دواؤه في الاشتراكية . فاذا أراد استنباط الدواء من غير هـذا المذهب وقع فى التضاوب والحيرة

فاقرأ رأيه وهو يصف الدواء لنهوض الأمم المائلة الى السقوط ويحيلها الى النظام الجندى يقول « فأهم الشروط التى تلزم لنهوض الأمم المائلة الى السقوط تعميم نظام الجندية

قاسياً جداً وأن تكون الأمة على الدوام مهددة بحروب طاحنة »

يريد الدكتور ليتخذ من نظام الجندية جبارة يشد بها عظام تلك الأمم التي رض الزمن عزائمها وكسر أعضاد همتها وهو يعتقد أن الجندية سوف ترجع للرجل المتحضر رجولته واستقلاله وتشفيه من مرض الاشتراكية التي هي « فناء الفرد في الدولة » والتي « تفضي بالأمة الى أخس درجات الاسترقاق وتقتل في نفوس من خضعوا لحكمها كل همة وكل استقلال » . يقول المؤلف قوله هذا على أن الناس يعلمون والمؤلف لا يجهل أن الرجل أضيع ما يكون استقلال في الجندية ، وأن الجندي في الجيش ليس إلا آلة تتحرك باشارة من القائد وليس لها أن تعرف الى أين هي مسخرة ولا في أي غرض يسخرونها . فان كان في الجندية شيء من الخشونة فليس كل خشونة رجولة واستقلالا

قال الدكتور في الفصل الرابع من الباب الأول :

(أشار توكفيل الى تدرج الفروق الذي نبحث فيه بين طبقات الأمم في زمن لم تبلغ الصناعة فيه من الارتقاء مبلغها

فى الوقت الحاضر فقال (كلما توسع الناس فى تطبيق قانون توزيع العمل ضعفت قوة العامل وحد عقله وزادت تابعيته لغيره . فالصناعة تتقدم والصانع يتأخر والفرق ينمو كل يوم بين العامل ورئيسه)

وهى ملاحظة صادقة من توكفيل . فان النظام الاقتصادى الحاضر قد أصار العامل قوة آلية وسلبه كل وسيلة الى استخدام ذكائه وحذقه . فبعد أن كان العامل يصنع الآداة وحده فيفرغ ذكائه في تجويدها ويتفنن في تكميلها وتحسينها . إذا هو الآن يتناول الجزء الصغير من تلك الآداة فيصنعه بلا روية ، ويجيء المهندس أو رئيس الصناع فيؤلف من تلك الأجزاء تلك الأداة علي الوجه الذى رسمه . فاذا خرج الصانع من المعمل لم ينتفع بصنعته وعجز عن العمل على انفراد ففقد مزية الاستقلال

هذا النظام الاقتصادى المؤدى بالمواهب ، المعطل للعقول ، هو النظام الذى تثور عليه الاشتراكية . فما قامت الاشتراكية الا لترقى مدارك العامل وترفع عنه حيف صاحب المعمل ، وتجعله انسانا ذا رغبة فى عمله وغيرة عليه ، وليس

كما هو الآن آلة تدير آلة . فان كان الدكتور يفتش عن الاستقلال فلا يبحث عنه فى ثكنات الجنود ولكن ينشده فى مبادئ الاشتراكية

* * *

وليست الاشتراكية سبباً فى هذا الاضمحلال الذى يعتور الجيل الحالى من جوانبه الرئيسية . ولا هى من أعراض ذلك الداء التى لا تتخلف عنه . ولكنها حال تلازمه فى بعض الاحيان وتظهر معه كما تظهر رغبة النجاة فى الغريق عند الغرق

فما هى من مصطنعات هذا الجيل ولكنها قديمة وجدت فى كل مكان يحرم فيه العامل ويغنم العاطل ، إلا ان هذا العصر قد ترقى فى فهمها وتوسع في تطبيقها تبعا للرقى الشامل لكل مرافق الحياة

كانت الامم الغازية تفتتح البلاد فيستأثر قواد الجيش الفاتح وجنوده باطيب الارزاق ويميزون أنفسهم عن سائر الامة بمزايا يحرسونها بالقوة ويذودون عنها بالسلاح . ثم تؤول هذه المزايا بالوراثة الى أعقابهم فتصير حقوقا ثابتة .

ويجنح هؤلاء الاعقاب الى الدعة والكسل جيلا بعد جيل فيجنون ثمرة مالا يزرعون ، ويجشمون غيرهم مشقة السعى وهم نائمون . وتفسدهم البطالة فيتمادون فى اللهو والخلاعة ويتهالكون على المجون واللذة . ولا يزالون ذلك دأبهم حتى يضجر الناس منهم ويحنقوا عليهم ، فتنقض عليهم فى هذه الآونة جارة ترقب غفلتهم . فلا تصادف فيهم إلا سراة لاهين ورعية ساخطين

كذلك ثار أرقاء الرومان على سادتهم ، وكذلك ثار الفرنسيون على نبلائهم فقال المؤرخون عن الاولى عبيد تمردوا ، وقالوا عن الثانية سوقة عربدوا — وما هى إلا الاشتراكية تبدو وتخفى فى تاريخ الناس من حين الى حين

لسنا نحن فى عصر يتحكم فيه سادة على عبيد ، أو يستبد فيه شرفاء على سوقة . ولكن المسألة ظهرت فى طور جديد ظهرت بين أصحاب الاموال وطوائف العمال

أخرج العلم تلك الآلات الضخمة ، فأصبح كل صاحب معمل يتمتع بتعب الألوف من الصناع الذين يستخدمهم فى معمله . فكان التعب والحرمان من نصيب فريق والراحة

والربح من نصيب الفريق الأقل . فتجددت الشكوى القديمة . وعادت الاشتراكية فى هذا الثوب العصرى . وقد عادت مرافقة لعهد الاضمحلال أيضاً . ولكنها ستكون فى هذه المرة أطول منه عمراً . لاننا اليوم فى مأمن من غارات القرون الاولى . ولأن العلم والنظام قد أصبحا ملكا للانسانية عامة وليسا من خواص أمة يذهبان بذهابها

***

وإذا صح رأى نورد في كتابه التأخر والاضمحلال فهذا الضعف الذى استولى على الجيل الحاضر أثر من آثار النظام الاقتصادى فلقد أفرط الناس فى إجهاد أبدانهم إفراطا حط من قواهم وأتلف أعصابهم . وهم كلما أحسوا بالضعف انكبوا على المنبهات من خمر وحشيش وتبغ وقهوة إلى أشباه ذلك فزادتهم ضعفاً على ضعف . فلو أن ساعات العمل أنقصت قليلا وزيدت الأجور زيادة تمكن العامل من تعويض خسارته اليومية بالطعام وأسباب الراحة ، لكانت الاشتراكية قد أنقذت الجيل القادم من غوائل هذا الاضمحلال . وبهذا الرأى ـ أى رأى نورد ـ يسهل

تعليل قول الدكتور فى ختام الفصل الاول من الباب الثانى إذ يقول « فالأمم تموت متى ضعفت صفات خلقها التى هى نسيج روحها . وضعف هذه الصفات يكون على قدر حظ الامة من الحضارة والذكاء » إذ لا تخفى علاقة بعض أنواع الضعف العصبي بالذكاء

قال عبدالله بن معاوية « ما رأيت تبذيراً قط الا وإلى جنبه حق مضيع » وغريب أن يهتدى كاتب من كتاب القرن الثانى الهجرى الى هذه الحكمة الجامعة . ولو شاء زعيم من زعماء الاشتراكية اليوم أن يتخذ لمذهبه شعاراً لما زاد على تلك الحكمة حرفاً . فالاشتراكية تقوم اليوم لتسترد ذلك الحق المضيع ولا مطمع لها فى العدوان علي انسان

***

يتذمر الدكتور لوبون تارة ؟ من انحطاط الخلق العام وفقدان أفراد الامة ملكة ضبط نفوسهم وانصرافهم عن المرافق العامة الى حب الذات ، ويأسف حيناً لتلك الحقائق القاسية التى « جلبت على أهل العقول الصغيرة فوضى الافكار التى يمتاز بها المرء فى هذا الزمان . وغيرت تلك الشكوك

أطوار الشبيبة المشتغلة بالآداب والفنون . فغرست فيها جموداً مشوباً بالكآبة وذلك أفقدها الارادة . ونزع منها القدرة على الاهتمام بأى أمر . وجعلها تعبد المنافع الذاتية الوقتية دون سواها »

وقد تكلم ماكس نوردو فى كتابة المتقدم عن هذا الخلق الذى دعاه الدكتور لوبون عبادة المنافع الذاتية . ومن رأيه انه ناشىء عن أمراض الاضمحلال التى ألمعنا اليها وأنه شعبة من جنون الأنانية وتقول ان حب الذات ينشأ عن ضعف حاسة الواجب وهو مرض من الأمراض العقلية . ولكن يزيده إعضالا تأكد الناس من عدم التوازن بين حقوق العاملين وواجباتهم ، فيرون كيف يثرى الوسيط ويعدم التاجر ، وكيف يكرم القواد الوضيع ويهان العامل الأمين ، وكيف أن الكسب المباح يحسب بالدانق والسحتوت وأن ربح الاحتيال يعد بالدنانير والبدر ، ولقد تدلينا فى هذه الايام الى هذه الوهدة . وتلك مغبتها التى نعانيها

لا أمل فى الخلاص من هذه السوآت الا إذا ساد اعتقاد الناس بتضامن الانسانية . وأيقن كل فرد أن على

حقوقه حارساً من أمته ، وأنه موضع عناية الانسانية جمعاء . وبذلك تثوب الخواطر ويرعى الناس حرمة الواجب . وإلا فلو ظن الانسان انه ليس ثمت ضمير عام يؤنب الناس أجمعين على ما يحل به من الغبن والأذى . وأنه لا حق له فى الرحمة أينما يمم وجهه . فقد مات ضميره وغلبه الحرص فتعلق بالجشع ونبذ المبادئ والفضائل الا ما وافق منها هواه وفشت فوضى الاخلاق فارتفعت الحدود واندثرت معالم الشرائع الا فى الدفاتر والاوراق

يقول الدكتور لوبون : « اليوم تميل الامم القديمة الى السقوط فهى تهتز من الوهن ونظاماتها تتداعى واحداً أثر واحد وعلة ذلك فقدانها كل يوم شيئاً من ايمانها الذى قامت عليه حتى الآن فاذا فقدته كله قامت حتما مقامه حضارة جديدة مؤسسة على معتقد جديد »

نعم فلابد للامم من معتقد جديد . أفتدرى ما هو هذا المعتقد ؟ ؟ هو وحدة الاخاء أو هو التضامن الانسانى أو هو الاشتراكية

ازرع فى قلب الانسان ثقته بعطف الانسانية تكبره

فى عين نفسه وترفع من قلبه ذلة المخلوق الذى نبذته السماء ولم تعبأ به الطبيعة كما تعبأ بأحقر المخلوقات

وينبغى أن يعتقد الانسان أنه يعمل للانسانية لا ابتغاء المثوبة أو خوفا من العقوبة ولكن مسوقا بحرض من غرائزه التى لا طاقة له بالخروج عنها . فاذا عمت هذه العقيدة رضى كل إنسان بحظه ولم يطلب الجزاء على عاطفته النوعية الا فى ارضاء تلك العاطفة ومطاوعتها فيما توحى به

للضمير العام لعهدنا هذا حرم فى كل أمة لا يحتمى فيه الا أبناء تلك الامة ، وقد أشار الدكتور الى ذلك فى قوله انك (لا تجد بين ساسة الانجليز واحداً لا يرى جواز استعمال أمور في جانب أمة أجنبية لو أتاها فى بلاده لا نزلت به السخط من كل ناحية) والحقيقة أن ذلك دأب ساسة الامم كلها وليس الانكليز وحدهم ولكن ذلك الحرم تمتد حدوده يوماً بعد يوم حتى يشمل فى زمن من الأزمان كل أمة جديرة بالدخول فى لحمة تلك الاخوة العامة . وكذلك كانت عهود الاخلاق فى مبدإ أمرها غير مرعية إلا بين أبناء القبيلة . قال دارون فى كتاب أصل الانسان (ولكنها—

أى أصول الأخلاق — لم تكن معتبرة إلا فيما بين أبناء كل قبيلة على حدتها وما كانوا يعدون مخالفتها فى حق أبناء القبائل الغريبة جريمة مستنكرة) فما زالت هذه الأصول تنداح من نطاق إلى نطاق أوسع منه حتى شملت ابناء الجنس الواحد ثم شملت أبناء كل دين على تباين أجناسهم ثم أصبح الناس يسلمون بها نظريا فى حق نوع الانسان بأسره ولكنهم يخالفونها عملا . وهم سائرون فى طريق الوحدة . والطبيعة تقوم بعملها لهذه الغاية فتقرض الشعوب الذابلة ولا تذر منها إلا ماهو أهل للرعاية والبقاء . تمهيداً لوحدة الانسانية وشمول أحكام الضمير العام

هذه هى العقيدة الجديدة فاذا ما سكن الناس إليها واشتاعوا عليها كانت مناطالآمالهم وتأسية لآلامهم. وكان لهم فيها نعيم وعزاء وفى الحيدة عنها عذاب وشقاء

* * *

لايفوتنا بعد أن نقدنا ماخلنا فيه شيئاً من الغلو أن نقول ان فى كتاب سر تطور الامم من الآراء الصائبة والافكار القويمة ماهو حقيق بانعام النظر وطول التدبر .

وأن المؤلف لو أخلاه من الاحكام والنتائج وقصره على الملاحظات والآراء لما كان فيه مأخذ ينتقد : فان العلم والفن والأدب لم تجمع حتى الساعة الأدلة والمقدمات التى تكفى لاصدار تلك الاحكام المبرمة والنتائج المحتمة

ومن تلك الملاحظات والآراء مايهمنا نحن المصريين لأنه ينطبق على حالتنا تمام الانطباق

فيظهر أننا لانفهم بعد معنى الوطن حق الفهم . قال الدكتور (كان وجود الروح أولا فى العائلة ثم انتشر منها في القرية ثم فى المدينة ثم فى الاقليم ولم يعم جميع السكان إلا فى أزمان قريبة منا . هنالك وجدت فكرة الوطن بالمعنى المفهوم لنا فى هـذا العصر لانها لا تصير واضحة إلا اذ تم تكوين الروح ولهذا لم تترق فكرة الوطن عند الاغريق إلى أبعد من فكرة المدينة ودامت مدائنهم فى حرب مستمرة لأن كل واحدة منها كانت أجنبية فى الواقع عن البقية . كذلك لم تعرف الهند منذ ألفى عام غير وحدة القرية فعاشت من ذلك الحين تحت حكم الاجنبي تقوم فيها ممالكه بسهولة كما تدول بسهولة

وذلك شبيه بمعنى الوطنية فى مصر فانها لاتعرف غير وحدة القرية وما أظن أن أمة غير الامة المصرية تقام فيها المناحات لسفر قريب أو صديق من مديرية الى مديرية تجاورها . ويقسم فيها الرجل بغربته وهو فى عاصمة وطنه ولاأحسب أن لهـذه الحالة دواء أنجع من نشر الـكتابة والقراءة وذيوع الأدب المصرى بين قراء المصريين فى كل قرية ومدينة

المصريون لا يكاد بينهم شئ من وحدة المشاعر ويكاد يكون أبناء النيل اثنى عشر مليون فرد وليس هنالك أمة . ولا ريب أن ذلك ناجم عن اختلاط العناصر وتوالى الأمم الفاتحة كما أنه يعزى إلى سوء فهم الوطنية الذى قدمنا ذكره ومن الحكمة استحياء أشد العصبيات أخذا بقلوب هذه الشرازم المبددة . ولا فرق بين أن تكون عصبية مصلحة أو عصبية تاريخية أو عصبية وطنية مادامت تفضى إلى لم شعثهم وتوجيه نفوسهم إلى وجهة واحدة

ومن عيوب الامة المصرية فقدان التخصص وشدة التقارب بين الصنائع والصناع وهو نقض بين (فان مستوى

العقل ـ كما يقول الدكتور يكاد يكون واحداً عند جميع أفراد امم الدنيا ذكوراً وأناثا. . . . . . وأما عند الامم الراقية فالقاعدة هى اختلاف الافراد وكذا النوع اختلافاً كبيراً »

ولا نرى إلا أن للخصوبة دخلا فى هذا النقص ، فان الزراعة لا تبعث الحاجة الى المنافسة كما تبعثها الصناعة . والمنافسة هى باب التفاوت والتنوع فى الحرف والمصنوعات وستضطر الامة الى الصناعة لان الزراعة لا تقوم فى هذه الايام بمطالب الناس . ولقد أحجم أغنياء الأمة عن فتح باب المنافسة بانشاء المصانع وتبادل النفع مع الامة لأنهم غرباء عن البلد . وظل أكثرهم الى زمن غير بعيد ينظر إلى القطر المصرى نظرة المهاجر الى دار هجرته ، ويعامل المصريين معاملة الاجانب عنه . وكان أهل الثروة من أبناء النيل فى الجيل الماضى أقل شأنا من أن يستقلوا بعمل وأجهل من أن يقدموا على غير الزراعة . ولـكنا أصبحنا نرى سراة مصر وقد استوطنوها وأرسخوا أقدامهم فيها وارتبطت مصلحتهم بمصلحتها فلا يبعد أن يكون شأنهم فى المستقبل غير شأنهم

فى الماضى ولا سيما إذا عمت الوطنية سكان مصر على السواء وعد من أبنائها كل من ينفعها وينتفع فيها من الوطنين والنزلاء فان مصر بحاجة الى تآلف الاغراض ألفة تشبه ما يعوزها من وحدة المشاعر

* * *

ولا تنس الاخلاق فقد لحقتنا كل أضرار المدنية الغربية ولما نصل الى شئ من مزاياها . ولا جرم فقد سهل على حواسنا أن تدرك ملذاتها فانغمست فيها . وقصرت عقولنا عن ادراك معانيها فحيل بيننا وبينها ولو أنك حملت زنجياً حقيراً الى باريز لتمتع بكل رذائلها فى اسبوع واحد ولكنه لم يتمتع بمعارفها وآدابها لان الفوق فى الحواس قريب بين أرفع الناس وأحطهم ولكنه بعيد جداً فى العقول والاذهان

فنحن اليوم نعب من اباحية المدنية الأوربية ومنكراتها ولا نذوق قطرة من عظمتها وطيباتها وما كنا لننتظر أن نجنى ثمرة المدنية بغير شوكها . فان المدنية شباب الانسانية وفى سن الشباب تتولد الشهوات كما تتفتح القوى وتنموا

المدارك ، وليست طهارة الفطرة الا كطهارة الطفولة التى لاتأثم لأنها فارغة من الشهوات كما انها فارغة من القوى والمدارك ، ولـكن الرزيئة أن نضيع سلامة الفطرة ولا نبلغ وفى المدنية ، وذلك ماصنعناه

ولقد أصاب الدكتور لوبون كل الاصابة إذ يقول : « الخلق لا العقل هو الذى تقوم عليـه الجمعيات البشرية وتؤسس الديانات وتبنى الممالك وهو الذى يجعل الأمم تحس وتعمل وما كان كسب الأمم كثيراً من شحذ الأذهان والتعمق فى التفكير »

أى والله . فان الانسان بغرائزه ، وان الحياة بزوبرها لاشىء اذ لحناها من ناحية العقل ولـكنها من ناحية الغرائز كل شىء ، بل لا شىء سواها وليست الفضيلة ماسلم به الانسان بتعليل عقله ، ولـكن الفضيلة مانشأ عليه وتضمنته طبعه وزجلته اليه فطرته

فلتكن عنايتنا بالعلم بعض عنايتنا بالاخلاق ، وهـذا عمل تتكفل به المدارس والمحاكم والكتب ومما يهون الأمر أن الاصابة محصورة فى طائفة قليلة من ناشئة المدن . فاذا

وقيت الأمة من عدواها كان الامل فى الجيل القادم وثيقاً .

ولا ننكر أن الأمر يلزمه شيء غريب يسير من التضحية والمفادات . ولا بد له من قادة من عظماء الاخلاق والنفوس يقفون فى وجه أهل الفساد وانهم على التفافهم لتسرح فيهم كلمة الحق كما تسرح شرارة النار فى الفاف الأجمة اليابسة

يقول الدكتورلوبون «ان الفارق بين الأوربيين وبين الشرقيين هو اختصاص أولئك بفريق راق من العظماء دون هؤلاء»

كلا . بل لكل نصيبه من العظماء . فللغرب عظماء العقول وللشرق عظماء النفوس . ومن للشرق اليوم بعظيم من أولئك العظماء الذين كان يجود بهم أحياناً . فيقوم من أوده . ويعز من أيده . ويأخذ فى طريق الحياة بيده ؟؟

....

الاستاذ الدكتور طه حسين



المدرس بالجامعة المصرية

جزء الاول صحيفة ٦٦

٣

الاستاذ الدكتور طه حسين

المختار من نثره

النقد

حقيقته . أثره فى الأمم . شروطه ومضار الغلو فيه

ميز الخبيث من الطيب والغث من السمين واستخلاص الحق من الباطل والصواب من الخطأ وفك العقول من أسار التقليد وعقال الجمود وإعانة الطبيعة على احياء النافع وتخليد المفيد كل هذا هو النقد الذى نرغب فيه وندعو إليه ونود لو اشتدت عناية الناس به وكثر اقبالهم عليه لانه أقوم سبيل الى نمو العقل المصرى وبلوغه أقصى منزلة تسمو اليها الامم الناهضة من الرقى الصحيح

ذلك بأن أرقى ما يفزع اليه المصلحون فى التربية العقلية للافراد والجماعات أن يمدوا ظل العقل ويبسطوا سلطانه على جميع الاعمال والآمال وكافة النزعات والحركات النفسية والجسمية التى تصدر عنا فى كثير من الاحيان من غير أن يكون للعقل شعور بها أو سلطان عليها

فالعقل الانسانى الآن سراج قاصر الضوء لا تكاد تهتدى به النفس الا الى قليل من حقائق هذا العالم على

كثرتها وتشعب أطرافها وتعدد مناحيها

وإذا تلمسنا مصدر هـذا القصور لم يعدُ بنا البحث شيئاً واحداً هو ذلك السحاب المركوم الذى اشتركت المادة والقوة والوراثة فى إقامته حجاباً كثيفاً يحول بين هـذا السراج وبين كثير من الحقائق المختلفة في الدين والسياسة والاجتماع

وقد كان هذا السحاب علة حقيقية لجمود العقل ووقوفه عن الحركة أو قلة نصيبه منها حتى لزمه كثير من الضعف والفتور

والغرض الحقيقى الذى يسمو إليه المصلحون من علماء التربية هو علاج العقل والطب له حتى يبرأ من هذا الضعف ويسلم من هذا الفتور ويصبح قادراً على أن يتناول جميع الحقائق أو أكثرها بالبحث والتمحيص ويستخرج منها وجه الصواب

وهذا ما يسميه العلماء بقوة الحكم وشدة الملاحظة وما نسميه نحن الآن بالنقد الصحيح

فظهر من هذا شيآن أحدهما أن النقد ليس مقصوراً

على أنواع القول وفنون الكلام من نظيم ونثير بل هو عام يستطيع أن يتناول كل شيء من صنائع وأعمال وعلوم ونحو ذلك

الثانى أن سبيل النقد مظلمة مشتبهة الأعلام لا تسلك إلا بعد كثير من اقتحام العقبات وتجشم الأهوال وبعبارة واضحة لا يمكن أن تبلغ أمة من النقد نصيباً موفوراً صالحا الا اذا استطاعت أن تقهر المادة والقوة والوراثة أى اذا تغيرت حالتها الفكرية تغيراً ظاهراً واضح الأثر

فنحن إذن لا نستطيع أن نبلغ من النقد ما نريد إلا اذا أمن أحدنا من أن يشاع عنه الكفر والالحاد إذا بحث بحثاً عقلياً صحيحا عن قضية من قضايا الفلسفة والدين وإذا لم يخف أن يرمي بالخيانة والمروق اذا نازع السواد الأعظم قضية من القضايا السياسية فلم ير رأيهم فيها ولم يمالئهم عليها وإذا لم يخش أن تبطش به القوة وينال منه البأس اذا نقد شيئا من أعمالها وبين انه مضر أو غير مفيد. ومما لا شك فيه اننا لا نستطيع أن تبلغ هذه المنزلة الا بعد أن ترقى فينا أساليب التربية رقياً كثيراً حتى تؤدى بنا الى هذا الطور .

الصالح من أطوار الحياة. فسبيلنا الي النقد اصلاح التربية وتهذيبها وإطراح الفاسد من أساليبها حتى ينشأ الشبان أحرار العقول قابلين للبحث عن كل شيء. معترفين بأن الحق لا يمكن أن يكون مقصوراً علي فرد من الناس دون فرد ولا محصوراً فى فريق منهم دون فريق

واذا كان كل اصلاح لا يمكن أن تشعر الامة بالحاجة إليه الا اذا شعر بهذه الحاجة فذ من أفذاذها ونابغة من نوابغها وأخذ يدعو اليه مرة بالشدة ومرة باللين

واذا كانت مخالفة العادة واطراح القديم مبغوضا من كل جمهور كان من اليسير علينا أن نتبين السبب الحقيقي والعلة الصحيحة التى نشأ عنها بغض المصريين للنقد ومقتهم للناقدين

انهم يحبون الحق ويشفقون به ولكنهم يعتقدون بحكم العادة والوراثة ان الحق ماهم فيه وان غيره هو الباطل فاذا قام بينهم من يقبح عادة من عاداتهم أو يسوئ رذيلة من رذائلهم نقموا منه وزروا عليه ونهضوا لتسفيه رأيه وتهجين خطته بمقدار ما أوتوا من قوة الدفاع عن الحق أو بمقدار ما اوتوا من قوة الدفاع عما يعتقدون انه الحق وتلك

طبيعة الانسان فى كل زمان ومكان فليس للناقد اذا كان مخلصاً الا سبيل واحدة وهى صدق العزيمة واحتمال الأذاة فى نفسه ورأيه وعقيدته حتى يصل الى ما يريد

انهم يكرهون أن يقبل أحد منهم الدرهم والدينار من غير أن ينقد ويتبين مكانه من الجودة والرداءة ولكنهم لا يكرهون ان تتقبل نفوسهم حقائق العلم وأنواع المعقولات من غير بحث ولا تمحيص ومن غير تفريق بين غثها وسمينها وليتهم اذ كرهوا أن يجهدوا أنفسهم بالنقد تركوا غيرهم وما يريد من تمحيص الحقائق لهم وتحقيقها قبل أن تصل الى عقولهم ولكنهم لا يستطيعون لأنهم خاضعون لذلك السلطان القوى القاهر سلطان الاحتفاظ بالعادة والحرص على القديم

انهم يجهلون مقدار المشابهة الشديدة بين النقد فى المعنويات وعمل الطبيعة فى الحسيات فلا يعلمون أن عمل الطبيعة فى تحليل المادة وتركيبها وتحويلها من صورة الى صورة أخرى ليس الا نوعاً من النقد الحقيقى بل هو أصح أنواع الانتقاد لأن أقرب نتائجه ابقاء النافع المفيد وإفناء

الفاسد المضر فالرجل لا يموت الا اذا حقت عليه كلمة الطبيعة بعد النقد الصحيح وعرفت انه لم يبق صالحا للحياة وأن وجوده أصبح من أنواع العبث الذى يجب ان تبرأ منه الطبيعة ويتنزه عنه الله عز وجل وليس النقد فى الأشياء العقلية والمعنوية الا نوعاً من النقد الفطرى فنحن اذا عمدنا الى قضية فى الفلسفة فبينا بعدها ما نعتقد أنه الحق وأوضحنا تصيبها من مخالفة حكم العقل والحيرة عن طريق الصواب لم يكن عملنا هذا الا اعانة للطبيعة على ما هى بازائه من محو الضار وابقاء النافع

ولو أنهم علموا بذلك وأمعنوا النظر فيه ما استطاعوا الا أن يكونوا للنقد أنصار ولرجاله مؤيدين . نعم ان النقد فى المعنويات ليس الا اعانة للطبيعة على عملها فكلنا نعترف ان الباطل فى نفسه مفسد للعقول مقوض للعمران وان أقدس واجب على الانسان هو ازهاق الباطل واظهار الحق ولئن كان هذا ظاهراً فى قواعد العلم وقضايا الفلسفة فهو في فنون القول وأنواع الكلام ايضاً لا يحتاج الا الى شىء قليل من البحث والتفكير فاننا اذا عمدنا الى قصيدة من الشعر

فعرضناها على النقد الصحيح وبينا وجوه الخطأ فى ألفاظها ومعانيها وفى نظمها وتنسيق الخيال فيها ثم طلبنا إلى القراء أن يتجنبوا ما أشرنا اليه من هـذا الخطأ ويتلمسوا مابيناه من الصواب لم نزد على أن بينا الحق والباطل ودعونا إلى نصر أحدهما وخذلان الآخر ولا شك فى أن أقل نتيجة تنتج عن ترك هذا النوع من النقد أو التقصير فيه هى فساد الشعر واضطراب أمره وقصوره عن أن يؤدى ما خلق له من اصلاح العقول والوجدان واحياء الحق والفضيلة وإزهاق الباطل والرزيلة

وهذا مانحن فيه الآن فقد نشأ من بغضنا للنقد ورغبتنا عنه ومن زهدنا فيه ومقتنا إياه انتكاث قتل الأدب العربى وانتقاض أمره فأصبح الشعراء والكتاب يسيرون فى الشعر والنثر على غير هوى لا يميزون خطأ من صواب ولا يفرقون بين فاسد وصحيح فقصائدهم ورسائلهم ليست إلا خليطاً سيئاً من الالفاظ الصحيحة والفاسدة ومن المعانى التى نصيب الباطل منها أكثر من نصيب الحق . . .

وهم على كل ذلك معجبون بأنفسهم مدلون بمكانتهم

والجمهور فيهم مغرور وبهم مخدوع لا يرى الكلمة إلا لهم ولا الحق إلا منهم ولا الصواب إلا فيهم أما الناقدون فهم عند الجمهور وعند هؤلاء الكتاب والشعراء أدعياء واغلون قد أكل الحسد قلوبهم وافعمت الموجدة صدورهم وعبث حب الصيت بنفوسهم فاتخذوا من نقد النوابغ وافذاذ الرجال سبيلا إلى الشهرة وطريقا إلى سمو المنزل وعلو المكان

كلا كلا أيها الشعراء المفلقون والكتاب المجيدون والجمهور المخدوع ليس النقد كما تظنون سبيلا من سبل الشهرة أو طريقاً من طرق الصيت وإنما هو مقياس الخطأ والصواب ومميز الحق من الباطل وهو المنظم لحركات عقولكم المصلح لنفقات أقلامكم الحافظ لجيدكم حق الاجادة والمرغم رديئكم على اتباع الجيد وابتغاء الرقى وإن أحدكم اذ نال الشهرة وبلغ الصيت باعانة النقد له وعدم قدحه فيه ونعيه عليه كان ذلك خيراً له من أن ينال تلك الشهرة ويبلغ هذا الصيت مكتفياً بثناء الجمهور وتقريظ الجمهور أولئك الذين لا ينفع ثناؤهم ولا يضر هجاؤهم لأنهم لم يأتوا من العلم نصيباً قليلا ولا كثيراً . اذن فالنقد لكم صديق وليس عليكم حربا كما تظنون

فكونوا له كما هو لكم فان بلوغكم رفعة المنزلة وسمو المكانة رهين بذلك وموقوف عليه

أثر النقد في الامم

بعد مابيناه من حقيقة النقد ومكانه من اصلاح العقل وتنظيم حركته لسنا فى حاجة شديدة إلى أن نكثر القول فى بيان أثره فى الامم لان مما لاشك فيه أن رقى العقل وانتظام حركته هما أرق مطلب يطلبه المصلح فى أى أمة من الأمم أى ليس للامم مطلب اسمى ولا أجل من هذا المطلب واذا كان النقد كما بينا ليس مقصوراً على أنواع القول وفنون الكلام بل هو عام يشمل أنواع الأعمال والصناعات والعلوم كان رقى الامة فيه من أوضح الأدلة على رقيها فى هذه الاشياء فان الصانع لايبلغ من النقد فى صناعته منزلة صالحة إلا اذا مهر فيها وأحاط بدقائقها وأسرارها وكذلك الامر فى النقد الأدبى والعلمى وغيرهما من أنواع النقدومن هنا يتبين أن أسباب الحقيقة لسقوط أمر النقد فى مصر ضعفها المطلق فى أنواع العلوم والصناعات وفى اليوم الذى ترقى مصر فيه رقياً ظاهراً فتدرك من الاجادة فى كل شى طرفا

غير قليل لا يكون لها بد من إجلال النقد واكباره ومن تصديق الظن به وتحسين الرأى فيه

ذلك شأن الامم لاترقى فى شئ حتى تجعل النقد مقياس جيده ورديئه ومرآة خطئه وصوابه ومن اليسير علينا أن تتبين ذلك واضحاً جليا فى تاريخ العرب فى جاهليتهم واسلامهم وفى بداواتهم وحضاراتهم فانهم لما لم يكن لهم فى العصر الجاهلى نصيب موفور من الرقى فى غير فنون القول كان نصيبهم من النقد موقوفا عليه ومحصوراً فيه فبلغ النقد الأدبى عندهم فى هذا العصر أرقى ما يمكن أن يبلغه فى أمة بدوية تمتاز بالفصاحة وحسن الاعراب وبزلاقة الألسنة وذرابتها وصدق البصائر واصابتها ولك من أنباء عكاظ وأخبارها ومن أحاديثها وآثارها أصدق دليل على ذلك بل أن هناك دليلا ليس أنصع ولا أسطع منه على مكانة أولئك الناس من النقد الادبى فان الله عز وجل لم يجعل القرآن الكريم معجزة نبيه وبرهانه الا لأن أولئك الناس الذين بعث فيهم النبى كانوا من رسوخ القدم فى النقد اللفظى والمعنوى فى المكانة التى لا يساميهم إليها مسام ولا ينازعهم فيه شريك ..

ولو أن أولئك الناس لم يكونو ذوى امتياز النقد وتفوق كثير ما كان الـكتاب علي فصاحته ومكانته من البلاغة فيما عندهم ولا مستجاداً لديهم وتلك قاعدة فطرية فان الشيء ذالقيمة الغالية والمكانة العالية لاينبه شأنه ولا ينبل أمره الا عند من له بامثاله علم ومعرفة

وبعد ظهور الاسلام وارتقاء العقل العربى ارتقت منزلتهم فى النقد واشتدت عنايتهم به ورغبتهم فيه وأخبارهم وآثارهم المستفيضة فى ذلك تغنينا عن اقامة الحجة وتكلف البرهان

وجملة القول أن النقد لا يكون راقيا عالى المـنزلة فى أمة إلا اذا كانت هى فى نفسها راقية ساميـة المنزلة في الموضوع الذى يتناوله النقد ويقصد اليه ولنا بعد هذا كله أن تقول ان ماتبلغه الأمم من رقى فى الحضارة وتفوق فى العلم وفوز بالسيادة وتمتع بأنواع الحرية العقلية والسياسية والشخصية ليست إلا نتيجة لازمة لرقى النقد فيها فالنقدهو أحسن مقياس يمكن أن يقاس به صعود الامم وهبوطها ورفعتهاوانحطاطها

شروط النقد

أما شروط النقد فقد كثر فيها قول القائلين وتعددت مذاهبهم واختلفت أهواؤهم ولا سيما في هذا البلد الذى ليس للنقد فيه الامكان المبغض القالى ومنزل الممقوت الذميم

فترى الكاتب أو الشاعر اذ ألح به الناقد فبين نصيب نثره أو شعره من الخطأ والصواب ومن الصحة والفساد أبرق وأرعد وأرغى وأزبد ورمى الناقد بتهم أقلها مما لا أته للهوى واستجابته للحسد واسترساله فى الشتم والسب وغلوه فى الادعاء والغرور ولست الآن بازاء القول المفصل فى شروط النقد ولكنى أقول على سبيل الاجمال أن النقد نوع من أنواع المناظرة فكل مايشترط فى الجدل يشترط فيه اذ كلاهما لم يصطنع الا لاظهار الحق وخذلان الباطل ولاشك فى أن الشتم والسب والتقريع والتأنيب ليس شىء منها بطريق الى الحق وانما الحق نتيجة البحث الهادىء المعتدل الذى يبرأ

من الاستجابة لعواطف الحب والبغض ونحوهما فلا يمكن أن يكون الناقد منصفا اذا استجاب لعاطفة من هذه العواطف فمالأ خصمه وانحاز إليه أو ظلمه وألح عليه وانما الانصاف مزاج لا يعتدل الا بصدق النية وحسن المقصد وتحكيم العقل ورفض الهوى وعدم الاستسلام الى العواطف والوجدان

وإذا كان النقد فى كل شىء لا يصدر الا عن ذى العلم بذلك الشىء والتفوق فيه كان نقد الجاهل نوعا من لغو القول وسخف الحديث وكان من الشروط الضرورية فى النقد العلم بالموضوع الذى يبحث الناقد عنه ويتكلم فيه

قالوا من ضروريات النقد أن يعترف الناقد بحسنات خصمه قبل أن يذكر سيئاته ليكون ذلك أدعى الى تصديق الظن به وتحسين الرأى فيه وعدم اتهامه بالميل أو الحسد أو الاستجابة للاهواء ولست أرى هذا الرأى ولا اميل إليه لانى اعتقد أن النفس التى لا تميل الى الحق الا اذا توسل اليها بأنواع من الملق والنزلف وفنون من المدح

والاطراء خايفة ان لا يحفل بها الناقد ولا يلتفت إليها لأنها انما ترغب فى الحمد والثناء لا فى الحق والصواب قالوا وإذا كان الكتاب مؤلفاً فى الفلسفة الالهية مثلا فمن الجهل نقد اغلاطه اللغوية ولست أدرى من أين لهم هذا الرأى فان للعالم بالفلسفة ان ينقد الكتاب فى موضوعه وللعالم بالالفاظ أن ينقد الكتاب فى ألفاظه ولم يقل احد اننا انما نريد الرقى فى موضوع دون موضوع وإنما نريد أن نرقى فى ألفاظنا كما نريد أن نرقى فى أفكارنا ولو أننا شايعناهم فى هذا الرأى ومالأناهم عليه لانعقدت ألسنتنا وتحطمت أقلامنا وغلت أيدينا بازاء ذلك الكاتب الذى يؤلف كتابه في الطب والمنطق بلغة العامة ودهماء الناس

قالوا ولا يحسن بالناقد إلا أن يكون معتدل اللهجة بريئاً من الغلوّ فى التشهير بخصمه والقدح فيه وهذا حق لا ينكره الا مكابر أو عنيد ولكن مالهم يكرهون قول الحق والاعتراف به ويعدونه نوعاً من الشتم وقاسى الكلام فلو انى قرأت فصلا من كتاب فضحكت من سخفه أو خجلت من جهل صاحبه وقلت فى نقده انه مخجل أو مضحك

لم أكن عنده الا سبابة سفيهاً مع انى لم أقل الا الحق ولم أمل الا إليه

ومبلغ القول ان شروط النقـد كلها تنحصر فى شئ واحد وهو الاعتدال وعدم الميل الى الهوى والغلو فى الثناء أو الهجاء

السيد محمد كرد علي



رئيس المجمع العلمي بدمشق
وصاحب جريدة المقتبس

جزء الاول صحيفة ٨٢

٤

السيد محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي بدمشق

المختار من نثره

الانشاء والمنشئون

اذ أردنا أن نحكم على المنشئين بما انتهى إلينا من خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم ومصنفاتهم وأبدأنا بأهل القرن الأول للاسلام . نرى على رأسهم أمير المؤمنين على ابن أبي طالب (كرم الله وجهه) .فانه سيد البلغاء على الاطلاق، وواضع بنيان البيان العربى ، وكلامه كما قال العارفون بعد كلام الله وكلام رسوله (عليه الصلاة والسلام) أبلغ كلام ، ونهج البلاغة الذى جمعه الشريف الرضى من كلامه وشرحه ابن أبي الحديد كتاب الدهر الخالد . وقد عد كثير من الصحابة أئمة فى الكتابة والخطابة (راجع) (أعجاز القرآن) للبقلانى و(الاتقان) و (المزهر) للسيوطى .

ولم يؤثر عن عصور الجاهليـة خطب ورسائل كثيرة لأن التدوين لم يحدث في الأمة العربية إلا في أوائل القرن الثانى للهجرة وكانت تعمد على ذكراتها ومحفوظها ورواياتها

المتسلسلة . قال الرقاشى : ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون فلم يحفظ من المنثور عشرة ولا ضاع من الموزون عشرة . ومعظم الذى أبقته الأيام من أدب العرب لم يبرح محفوظاً فى الخزانة لم يطبع وأكثره محفوظاً فى جامعات أوروبا ودور كتبها .

ختم القرن الأول بأمير المؤمنين عمر ابن عبدالعزيز ، فان رسائله الموجزة وخطبه الغر التى نقلها ابن سعد فى (الطبقات الكبير) وابن الجوزى فى (مناقبه) ، آية فى البلاغة وفيها من أدب العرب مسحة وطلاوة ، ورسائله وخطبه فى الادارة والسياسة على قلتها ، تربى فيمن يتدبرها ملكة الانشاء أو تقف به على أصول الادارة العربية . ومن بلغاء هذا القرن زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفى وقطرى بن الفجاءة وعمران بن حطان . وهذان الأخيران من خطباء الخوارج . وقد استغرقت أخبار الخوارج الذين خرجوا على الخليفة الرابع يوم النهروان ، جزءاً مهماً من كتاب (الكامل) للمبرد تتمثل بها بلاغة الفوضويين والشيوعيين فى الاسلام .

جاء القرن الثانى وقد نبغ فى أوله عبد الحميد بن يحيي الكاتب وهو النهاية فى البلاغة والفصاحة ، اختط للناس خطة الترسل والانشاء ، ثم عبد الله بن المقفع الذى اسلست له الكتابة قيادها ، فلم تعد له هنة واحدة فى باب التكلف بل كان فى (اليتيمة) وسائر مافاضت به قريحته من رسائله ابتداء كما كان فى ترجماته (ككليلة ودمنة) طبقة عالية فى البلاغة . ولو عمر بن المقفع (عاش ستة وثلاثين سنة)لابقى لنا أمثلة فى البيان ، يتخرج بها طلاب الأدب من العرب على غابر الحقب . ونبغ فى هذا القرن سهل بن هرون وهو بالقليل الذى وصلنا من رسائله نابغة فى علمه وأدبه ،وينقل عنه فى كتبه . كان كثيراً مايؤلف الكتاب وينسبه لسهل ابن هرون فى جمع الناس على استحسانه ، أكثر مما كان لو نسبه لنفسه ، وكتابه سهل من السهل الممتنع ، لاحوشى فيها ولا مبتذل . أوكما قال الجاحظ فى الكتاب (انهم قد التمسوا من الالفاظ مالم يكن متوعراً أو وحشياً ولا ساقطاً سوقياً. ومن خطباء هذا القرن داود بن على وشبيب بن شيبة ومن كتابه اسماعيل بن صبيح كاتب الرشيد وعمر بن مطرف

كاتب المنصور والمهدي والهادى والرشيد . وصالح بن جناح صاحب كتاب (الأدب والمروءة وكلامه رشيق دقيق مستقاد فى الحكمة .

وكان يقال بلغاء الناس عشرة عبد الله بن المقفع وعمارة ابن حمزة وخالد بن يزيد وحجر بن محمد وأنس بن أبى شيخ وسالم بن عبد الله ومسعدة والهزير وعبد الجبار بن عدى واحمد بن يوسف. قال صاحب (الفهرست) ومن البلغاء الحدث ابراهيم بن العباس الصولى والحسن بن وهب وسعيد بن عبد الملك . ولم يصل إلينا من كلام هؤلاء الجهابذة شئ اللهم الا ما عرف من كلام ابن المقفع واحمد بن يوسف والصولى والباقون دثرت كتاباتهم الا نتفاً قليلة لا يبنى عليها حكم

ومن كتاب هذا القرن أبو اسحاق الكاتب ابراهيم بن محمد المدبر وزير المعتمد على الله المتوفى سنة ٢٧٩ (صاحب النظم الرائق والنثر الفائق) وهو صاحب (الرسالة العذراء فى موازين البلاغة وأدوات الكتابة التى نشرناها فى (رسائل البلغاء)

وامتاز القرن الثالث بظهور الجاحظ (٢٥٥ هـ) الذى رزق الاجادة فى كل ما كتب وهو رب البديهة فى أفكاره ومظاهر علمه وتقريره . ولم يعهد قبله أن تبرز الموضوعات المختلفة فى هذا القالب الفتان ، الذى يظهرها فيه غير متكلف ولا متعسف. وكلماته كلما كررته حلت أو بقدر ما تتلوها تتجلي لك رقة معانيها . ومتانة مبانيها . وتدهش وأنت تطالع كلامه من تملك ناصية اللغة ، وبراعته فى استعمال الألفاظ فى أماكنها أو ربما تساهل فأورد ألفاظا عامية فى معرض كلامه لينقل الأفكار بحالتها . ولم يكد يعد مثله فى الموجودين من المؤلفين من يزيك ببيانه الباطل حقاً والحق باطلا ، يقول الشئ ونقيده فينعك فى الاول حتى لاتظنك تقنع بعد الكلام ويرجع عليك بكلم طيب ، فينسيك ما أصاب فى الألى . وهكذا يلعب بالعقول كالسحر ولكنه السحر الحلال

افتح أى كتاب من كتب الجاحظ التى أبقتها الأيام للمكتبة العربية زخراً وفخراً ؛ تشهد المعجب من فتنته وابداعه وتدرك كيف تستجيب له المعانى ، وتنقاد الالفاظ برشاقتها وجزالتها ، وقد يشوب كلامه ببعض الظروف والهزل

والنوادر أحيانا لئلا يمل مطالعه هكذا تراه فى « كتاب الحيوان » و « البيان » و« التبيين » و« البخلاء» و «المحاسن والاضـداد » و « الحاسد والمحسود » وغيرها من رسائله وهى بضع وعشر رسائل مطبوعة وكل صفحة من صفحاتها أفيد من مجلد برمته وممن سيجئ « بعد الجاحظ أبو حنيفة الدينورى صاحب كتاب « الأخبار الطوال » وأبو حنيفة اكثر ندارة ، وأبو عثمان « الجاحظ » اكثر حلاوة ومعانى أبو عثمان لائطة بالنفس سهلة فى السمع ، ولفظ أبى حنيفة أعذب وأعرب ، وادخل فى أساليب العرب ، قال ابو حيان التوحيدى والذى اقول وأعتقده وآخذ به وأساهم عليه انى لم اجد فى جميع من تقدم وتأخر إلا ثلاثة لو اجتمع الثقلان (؟) على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم فى اخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم ، وذكر الجاحظ والدينورى وثلث بأبى زيد احمد بن سهل البلخى ، ووصف كل واحد بألفاظ عجيبة

ومما امتاز به هذا القرن ان علوم الأوائل التى بدئ بترجمتها فى منتصف القرن الاول فى دمشق بمعرفة خالد بن

يزيد الأموى وعنى بها عمر بن عبدالعزيز أواخره ، قد زادت العناية بها فى بغداد على عهد المنصور العباسى ؛ ثم بلغت أشدها فى زمن المأمون وقد أدخلت هذه العلوم والصناعات فى العربية روحا جيداً ، فترجم إليها من اليونانية والسريانية والفارسية والهندية وغيرها ، فاغتنت اللغة ورأت من الاساليب والافكار مالا عهد لها وهذا أول تأثير من آداب الأمم الأخرى اصاب اللغة العربية فأصبحت لغة علم وصناعة ، بعد ان كانت لغة شعر وحكمة فقط . وعصر المأمون هو فى الحقيقة العصر الذهبي فى الادب والكتابة والعلم وسائر مقدمات الحضارة العربية

قلنا ان احمد بن يوسف الكاتب هو من اوائل البلغاء وقد أورد بعض رسائله الصولى فى كتاب « الأوراق » المخطوط وأورد له بن طيفور صاحب « كتاب بغداد » المطبوع نموذجات من رسائله وفى كتاب التراجم المطولة شيء عن كتاباته المسجعة على مثال السجع الذى يقع فى كلام أئمة البلاغة فى القرن الاول وناهيك برجل أعجب المأمون بعقله وأدبه فاستوزره واستكتبه . والكتاب المجودون فى هذا القرن

كثيرون ومنهم عمرو بن مسعدة وزير المأمون ، وكان كاتباً بليغا جزل العبارة وجيزها ، سديد المقاصد والمعانى ، وصدق عليه ما قاله الرشيد فى البلاغة « البلاغة التباعد عن الاطالة والتقرب من معنى البغية ، والدلالة بالقليل من اللفظ على الـكثير من المعنى » وابن على الدامغانى الوزير وأبو الفتح البستى (صاحب الطريقة الأنيقة فى التجنيس الا ليس البديع التأسيس)

ومن أهم من انتشرت كتبهم ابن قتيبة (٢٧٦) فهو ثانى الجاحظ بعلمه وجودة انشائه وتأثيره ، وفى كتابه (الامامة والسياسة) و (كتاب العرب) ومختلف تأويل الحديث و (الأشربة) و (المعارف) و (عيون الاخبار) و (أدب الـكاتب) ما يدل على روح سام سار فيه الادب مع العلم سيراً متساويا . فمن شرح (أدب الـكاتب) لابن قتيبة ابن السيد البطليوسى وممن انتقدوا (آمالى القالى) أبو عبيد البكرى صاحب « معجم ما استعجم » فى جزء لا يزال مخطوطاً سماه (التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه) ويعد من كتاب الدرجة الاولى فى القرن الرابع أحمد بن

يوسف المعروف بابن الداية (٣٤٠) بغدادى الاصل انتقل أبوه من مصر وكان أحمد من كتاب الدولة الطولونية وقد عرفناه من كتاب « المكافأة » الذى نشر له مؤخراً مع قطعة من كتابه (حسن العقبى) وهى عبارة عن حكايات فيها حكمة ومواعظ واعتبار آية البلاغة ومنهم أبو بكر الصولى (٣٢٥) صاحب كتاب (الادران) و (أدب الكاتب) وأحمد بن عبد ربه (٣٢٨) صاحب (العقد الفريد) وجعفر ابن قدامة بن زياد الكاتب (٣١٩) وعرفنا من أهل هذا القرن زمرة من الكتاب الذين زانوه بأقوالهم وأفضالهم ومنهم أبو الفضل بن العميد وزير بنى بويه (٣٦٠) وكان أبوه أيضاً كاتبا مترسلا من كتاب الدولة السامانية وابن العميد أول من فتح باب السجع وأكثر من أنواع البديع . وكان يقال فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد كما قيل بدىء الشعر بملك أى امرىء القيس وختم بملك أى أبى فراس الحمدانى . وما قيل فى ابن العميد يقال فى الصاحب ابن عباد (٣٨٧) فهو أيضا ممن تناغى بالجناس ، وأكثر من الاسجاع وكان يقول : كتاب العصر أربعة : الاستاذ الرئيس يعنى

ابن العميد ، والاستاذ أبو القاسم يعنى عبدالعزيز بن يوسف وأبو اسحاق يعنى الصابى ، ولو شئت لذكرت الرابع يعنى نفسه

ويجئ مع هذه الطبقة أبو بكر الخوارزمى (٣٨٣) وكان يميل الى طريقة ابن العميد فى الكتابة و (رسائله) المطبوعة المشهورة مثال البلاغة والفصاحة على كثرة الاسجاع فيها حتى لا يكاد يعدوها ، وقلما تفوته . وأما بديع الزمان الهمذانى (٣٩٨)صاحب(الرسائل) و (المقامات) المشهورة فانه صار مع الطبع أكثر من الخوارزمى وكثيراً ما يترك التسجيع وأنواع البديع ، وإذا استعملها ففى مواطن خاصة وجمل معينة ثم يعود إلى طبعه فتأخذ أقواله بمجامع القلوب . وأكثر ما قرأناه من « رسائل الصابى » (٣٨٤) الصادرة عن الخلفاء وغيرهم ومنها ما طبع على حده ومنها ما اقتبس فى « صبح الأعشى » . قد أفرغ فى قالب من السجع البديع المتملح وقد يتخلى عنه فى بعض التقاليد والعهود ولو تيسر له ان يطرح السجع على طريقة البديع لجاءت كتاباته مفخر الاسلاف ، وأعظم معلم للاخلاق

وممن نبغ فى ذاك القرن أبو الفرج الببغاء وعبدالله بن عمر والفياض كاتب سيف الدولة ونديمه وأبو القاسم على الاسكافي النيسابورى «كان من علو الرتبة فى النثر وانحطاطها فى النظم كالجاحظ» وعلى ابن هند وصاحب «الكلم الروحانية» ويحيي ابن عدى صاحب تهذيب الاخلاق أو سياسة النفس (٣٦٤) وابن حبان البستى (٣٥٤) صاحب (روضة العقلاء) والحاتمى صاحب (الرسالة الحاتمية) التى شرح فيها ما جرى بينه وبين أبى الطيب المتنبي من اظهار سرقاته وإبانة عيوب شعره والقاضى التنوخى (٣٨٤) صاحب (النشواء) و (الفرج بعد الشدة) وقدامة بن جعفر الكاتب (٣٣٧) صاحب (قصة الشعر) و (كتاب الخراج) وابن نباتة صاحب (الخطب) المشهورة ومنهم أبو جعفر محمد بن العباس وزير المكتفى والمقتدر وأبو منصور البغوى (٣٧٥) ورأس أدباء هذا القرن أبو العلاء المعرى والشعر غالب عليه وكتابته مصنعة فيها كثير من عويص اللغة وسبكها لا يخلو من يبوسة وجفاء طبع ولكن (رسالة الغفران) التى كتبها رداً علي رسالة ابن القارح وكلاهما مطبوع أشبهت رواية

دانتى الشاعر الايطالى وكانت من أعظم الروايات الخيالية الدالة على ان أعمى المعرة كان معلما لنابغة ايطاليا فى الشعر والخيال . وبعض الباحثين من المتشرقين فى أوربا على أن دانتى فى روايته الهزلية المؤلفة من ثلاث روايات وهى جهنم والمطهر والجنة التى ألفها بين سنى ١٣٠٠ — ١٣١٨ م قد اقتبسها ولا سيما رواية جهنم من رسالة الغفران للمعرى ونسج على منواله فى التصور . وان ما كتبه المعرى على ديوان أبى تمام الطائى وسماه (ذكرى حبيب) وعلي ديوان أبى عبادة البحترى وسماه (عبث الوليد) وما كتبه على ديوان أبى الطيب المتنبي وسماه (معجزة أحمد) يدل على احاطة المعرى بأسرار العربية وفهم كلام العرب ومراميهم وشدة ملكته فى النقد الادبى دع فلسفته فى لزمياته) و دواوينه فالمعرى فيلسوف لغوى وليس بكاتب

ومنهم على بن خلف صاحب (مواد البيان) الذى نقل القلقشندى فى صبح الاعشى جزءاً مهماً منه

***

وتميز القرن الخامس بظهور كثير من الكتاب فيه

ومن أشهرهم الذين تركت الايام لنا شيئاً من كتاباتهم الامير قابوس بن وشمكير (٤٠٣) صاحب (كمال البلاغة) فان كتاباته هى الموسيقى برنتها، والشعر الفنان، ولكن بدون قافية وروى، الا أن الاسجاع غالبة عليه، مستحكمة حواشي كلامه، آخذة بجماع أدبه خلافا للثعالبي (٤٢٩) سيد كتاب هذا العصر، ومن أعظم مؤلفيهم فى اللغة والادب، فان مقدمة كتابه (فقه اللغة) لطبقة عالية فى الكتابة المرسلة فى عصره وبعده ولو تخلى عن السجع فى (يتيمة الدهر) التى ترجم فيها أدباء عصره نحو ما تركه في (المضاف والمنسوب) و (لطائف المعارف) وغيرهما من كتبه ورسائله لما عيب عليه في شيء. ومثل ذلك يقال فى ابن رشيق القيروانى (٤٥٦) صاحب (العمدة) أحد أمهات كتب الأدب الذي انتقده أبو عبدالله ابن شرف القيروانى فى رسائل الانتقاد وكان الناس فى الدهر القديم يعتمدون على اربعة كتب لاتقان فن الادب. (البيان والتبيين) للجاحظ و (ادب الكاتب) لابن قتيبة و (الكامل) للمبرد و (الأمالى) لأبى على القالى. ومن هذه الكتب الأربعة ماشرح ومنها ما اختصر ومنهاما انتقد

وممن توفى على رأس الاربعمائة أبو حيان التوحيدى وهو مبتدع طريقة خاصة به قرأناها فى كتاب « المقابسات » و (رسالة الصديق والصداقة) و (الاشارات الالهية) .

وذكر الثعلبي ثلاثة من كتاب آل بويه وهم أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وأبو احمد عبد الرحمن بن الفضل الشيرازى وأبو القاسم على بن القاسم القاشانى وأورد من كلامهم نموذجات لطيفه . ويعد فى الطبقة الأولى من المؤلفين والكتاب المجيدين أبو الفرج الأصفهانى صاحب (الأغانى) وأبو الحسن على بن عبد العزيز صاحب كتاب (الوساطة) بين المتنبي وخصومه والأمير عبد الله الميكالى فانه من الكتاب المجيدين والسجع غالب عليه ومثله أبو النصر العتبي واضع (تاريخ ابن سبكتين) المعروف باليمنى وهذا التاريخ المسجع البديع يعد مؤلفه من أكبر المنشئين

ومن كتاب هذا القرن ابن موصلايا (٤٩٨) وابن ناقيا (٤٨٥) والموفق بن الخلال وصاحب ديوان الانشاء على عهد الحافظ العبيدى بمصر (وكانت له قوة على الترسل يكتب كما يشاء)

وكان الغالب على الموفق بن الخلال فى رسائله العناية بالمعانى أكثر من طلب السجع (كان فن الكتابة بمصر فى زمن الدولة العلوية غضباً طرياً وكان لايخلوديوان المكاتبات من رئيس يرأس مكاناً وبياناً ، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطاناً .

وممن أثرت بعض رسائله فى هـذا القرن هلال بن المحسن الصابى (٤٤٨) حفيد ابى اسحاق صاحب الرسائل ومؤلف كتاب أخبار الوزراء) ومن المجيدين فى الانشاء وان عدهم الناس فى طبقة الحكماء احمد بن مسكوية (٤٢١) مؤلف (تهذيب الأخلاق ، والفوز الاصغر) و (تجارب الامم) فان كتابته مثال الانشاء المرسل البديع

ومنهم أبو طاهر محمد بن حيدر ٥١٧ صاحب قانون البلاغة وهو لم يطبع

* * *

وفي هذا العصر نبغ فى الاندلس الوزير بن زيدون ٤٦٣ فى النظم والنثر ورسالته على لسان ولادة بنت المستكفى بالله أديبة عصرها من المرقص المطرب . ومثل ذلك يقال فى الوزير ابن حزم الاندلسى ٤٥٦ فانه من أكتب

العلماء فى عصره ومن المكثرين من التأليف المجودين فيه وناهيك بكتابة طوق الحمامة ورسائله فى الأخلاق دليلا على أدبه الراقى ومثالا من انشاء عصره الذى أشبه الأدب فى عصر لويز الرابع عشر فى فرنسا

ونشأ فى هذا القرن والذى يليه فى الاندلس طبقة من الكتاب ومنهم من تولى الوزارة. والغالب ان الكاتب المجيد فى الدهر السالف يكون وزيراً كالخطيب المصقع فى هذا الدهر يكون رئيس وزراء. مثل الباجى وابن الدباغ وابن الجد وابن القاسم وأبى الاصبغ وابنه أبى عامر وابن سفيان وابن الحاج وابن عبدون وابن أبى الخصال وابن عبد العزيز وابن السقاط وابن القصيره وكان هذا على طريقة قدماء الكتاب من إتيان جزل الالفاظ، وصحيح المعانى، من غير التفات إلى الأسجاع التى أخذها متأخروا الكتاب اللهم ما جاء في رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء، ومنهم ابن عبد الغفور وابن عمار وابن الأفطس وابن أمين وابن سالم ومنذر بن سعيد وبن أيمن وابن اللبانة وابن عبد البر والفرضى وابن سعيد المؤرخ وابن حيان

وابن القطوية وابو عبيد البكرى صاحب معجم ما استعجم والمسالك والممالك وابن الطفيل صاحب رسالة حى ابن يقظان وفيها إشارات لمذهب النشوء والارتقاء. ومنهم البطليوسى وابن تومار وابن هود والنحلي والاشبونى والقسطلى وابن لبون وابن رزين والنمرى والسرقسطى وابن القلاس والصناعى والبهارى والحجازى والدانى والبلنسى والطيلطلى وغيرهم وما منهم إلامنشىء مجدد ومؤلف جزل العباره رشيق الألفاظ. ولاغرو فان الاندلس اخرجت للادب رجالا عظاماً، تشم من مكوباتهم أرج الغرب وقد جمع كبار أحد المشرقات من الاسبان تراجم الاندلسيين من العرب فكانوا ثلاثين الف عالم وأديب وفقيه ومهندس وطبيب الخ من أصحاب المنزلة وترجم الفتح بن خاقان ٥٣٥ه صاحب قلائد العقيان ومطمع الأنفس لبعض أولئك الأدباء بالاسجاع المطبوعة كما ترجم لهم ولغيرهم بن بسام فى الذخيرة واشتهر بالوزارة من الكتاب المجودين فى بغداد الوزير على بن عيسى والوزير أبو الحسن بن الفرات. ولعلى ابن عيسى مذهب فى الترسل لا يلحقه فيه أحد ولا ابن الفرات ومنهم أبو على محمد بن خاقان ومحمد بن عبد الملك

الزيادات الى غيرهم من الكتاب النابهين والخاملين وربما كان الخاملين من هم أعلى كعباً من النابهين سنة ٥٦

وممن اشتهر بنثره فى هذا العصر الحريرى ٥١٠ صاحب المقامات و درة الغواص . وقد رزق بالمقامات الحظوة التامة ولكنها أيضا من النثر المتكلف لا المرسل ولو خيرنا بين نثره ونثر حجة الاسلام الغزالى ٥٠٥ لاخترنا كتابة الغزالى ولا سيما فى الجزء الثالث من الاحياء ورسائله التى أبان فيها عن طبعه خصوصاً التفرقة بين الاسلام والزندقة وتهافت الفلاسفة والرد على الباطنية أو نثر الراغب الاصفهانى فى (الذريعة الى مكارم الشريعة) و (تفصيل النشأتين) و (المحاضرات) أو الماوردى فى (أدب الدنيا والدين) و (الاحكام السلطانية) . وفى كلام الحريرى صناعة التعمل قد يصل إليه معظم من جمعوا أدواته من اللغة وكلام العرب لو شاءوا أن يحصروا كدهم ويتعملوا فى منثورهم . وكان ابن الخشاب يقول ان الحريرى رجل مقامات أى انه لم يحسن من الكلام المنثور سواها فان أتى بغيرها فلا يقول شيئاً . ولعل جار الله الزمخشرى ٥٣٨ يفوقه باجادة صناعة النثر فسجعاته فى (تفسيره و (المفصل

و (أساس البلاغة) و (مقاماته) و (أطواق الذهب) و (الكلم النوابغ) و (الفائق) فى الغاية من الرقة والجزالة وكانت بينه وبين رشيد الدين الوطواط صاحب (الرسائل) المطبوعة المسجعة محاورات ومراءات والزمخشرى أرقى بيانا وأوسع علماً . ويعد فى كتاب هذا القرن أبو الفرج بن الجوزى ٥٩٧ الواعظ المؤلف فانه خلف كتباً كثيرة ومنها كتاب (الاذكياء) و (أخبار الحمقى والمغفلين) وأمثال هذه الكتب أشبه شئ بما يطلق عليه الافرنج اسم « HOIK1Ofe » أى العادات والتقاليد ومن مثل هذا كثير فى العربية مثل أخبار (عقلاء المجانين) للحسن بن حبيب المفسر وقد حدث التاريخ ان كثيراً من الكتاب ولا سيما فى القرون الاولى وضع حكايات أشبه شئ بقصص الغربيين اليوم يقصدون بها تلقين فكر . أو بث دعوة ، أو إحداث مشغلة للعامة ، لصدهم عن البحث فى شأن مهم للدولة ، وقد صنفوا كثيراً فى الأسمار والخرافات منها ماعربوه عن فارس والهند والروم وبابل ومنها ما ابتدعوه ومنهم من كتب روايات غرامية ذكروا فيها أخبار العشاق الذين عشقوا فى الجاهلية ومنها من ذكر الحبائب المتظرفات أو اكتفى بأخبار العشاق

الذين تدخل أحاديثهم في السمر . وصنع المتأخرون قصة ألف ليلة وليلة فاشتهرت فى الشرق العربى ومثل ذلك يقال فى قصة السندباد البحرى والظاهر وتغريبة بنى هلال الى غير ذلك مما لا يعد فى الادب الراقى لانه كتب للعامة ولم يكتبه كتاب موجودون

وممن نشأ فى هذا القرن ضياء الدين بن الأثير صاحب (المثل السائر) فهو أيضاً كاتب مسجع مبدع .وهو الذى تصدى ابن أبى الحديد المدائنى لمؤاخذته والرد عليه وعنته وجمع هـذه المؤاخذات فى كتاب سماه (الفلك الدائر على المثل السائر) وسيد المنشئين على التحقيق فى هذا العصر القاضى الفاضل وزير صلاح الدين فهو حجة المنشئين سواه من ترسل بالسجع أو تخلى عنه مع انه لم يكن يفارقه على الأغلب ولو انتهت إلينا رسائل كلها لجاءت بضعة مجلدات والتقليل المقتبس منه فى صبح الأعشى « ورسائله » المخطوطة وما نقل له فى « الروضتين » مما تنبسط له النفس ويجئ بعده فى المرتبة عماد الدين الكاتب الاصفهانى فهو سالك طريقته ، ولـكنه فى دعواه التفوق على غيره من الكتاب أشبه الناس بصاحب المثل السائر . والدعوى تذهب ببهجة

العلم وإن كانت صحيحة وكتاباه « الفتح القسى » و « زبدة النصرة » نموذج أدبه ، وراموز صالح من سجعه وترسله وقد نشأ فى عصر القاضى الفاضل والعماد الكاتب ، كاتب هزلى اسمه الوهرانى ركن الدين أبو عبدالله محمد ٥٧٥ عمل (المنامات والرسائل) المشهورة التى لم تطبع وذلك لانه أيقن لما دخل الشام مهاجراً من الجزائر أن بضاعته لا تنفق مع وجود القاضى الفاضل والعماد الكاتب وتلك الحلبة كما قال ابن خلكان فى وفيات الاعيان فعمد إلى الهزل ونفق سوقه ومنهم ابن منقذ صاحب كتاب الاعتبار ذكر فيه قصصا فى الشجاعة وقعت له ولأسرته أصحاب قلعة شيزر على عهد الحملات الصليبية الاولى وذكر شيئا من عادات الصليبين وأخبارهم وشجاعتهم على صورة مستغربة . ومنهم يحيى ابن زيادة الشيبانى انتهت إليه المعرفة بأمور الكتابة والانشاء ، وابن الصيرفى صاحب الاشارة الى من نال الوزارة وقانون ديوان الرسائل

وممن كان فى القرن السابع من الكتاب وسار على الطريقة الفاضلية فى الانشاء محيى الدين بن عبد الطاهر ٦٩٢ وابنه محمد فتح الدين . ويعد الأب والابن من واضعى

نظام الانشاء فى عصرهما والعصرين التاليين. وابن عبدالظاهر أضعف فى البلاغـة بما ورد له فى صبح الاعشى من الفاضل والعماد ومن تقدمه فى الميلاد . وممن عرف بالبراعة في تصوير البلدان والآثار عبـد اللطيف البغـدادى الفيلسوف ٦٣٩ فان كتابه الادب والاعتبار شـاهد له بانه من خيرة البلغاء فى عصره . ومنهم الوزير عبـد المحسن ابن حمو ٦٤٣ وبهاء الدين الاربلى والكمال بن العديم ٩٦٦ سنة ١٧١

وتعـد رحلة بن جبير الـكتانى الاندلسى (٦١٤) الى الشرق من الأدب العالى فقد وصف البلدان فى عصره وصفاً فاق فيه تقدمـه مثل ابن بطلان وابن فضلان كما فاق من تأخر مثل العبدرى (٦٨٨) والبلوى (٧٤٠) وابن بطوطة (٧٧٩) والزركشى (٧٩٤) وابن أبى البركات النجدى (٧٩٥) على أن الجمل التى أثرت عن ابن بطلان فى مطولات الجغرافية — وكانت رحلتـه من العراق الى الشام فى النصف الاول من القرن الخامس — تنم عن أدب وفضل ذوق فى وصف البلدان والسـكان ، والقليل مما قرأناه من هـذا القبيل فى معجم البلدان لاحمد بن فضلان — وكان المقتدر بالله العباسى أرسله الى ملك الصقالبة سنة ٣٠٩ هـ — يدل أيضاً على ذوق

وفضل علم وأدب . وعلى ذكر الجغرافية يجب أن يعد في جملة الأدب الجيد ما كتبه ياقوت الحموى فان (معجم البلدان) و (معجم الادباء) من أنفس ما كتب الكاتبون في هذا القرن كما أن ما كتبه القفطى (٦٤٦) فى (أخبار الحكماء) وما كتبه ابن أبى أصيبعة (٧٦٦) فى (طبقات الأطباء) يعد من الادب العالى فى تراجم الناس . ومن هذه الكتب الأربعة التى طبعها المستشرقون استفدنا أموراً كثيرة فى الحضارة العربية لم نكن نعرفها من قبل كما استفدنا أى استفادة من نشرهم لنا « تاريخ الرسل والملوك » لابن جرير الطبرى (ومروج الذهب للمسعودى) و (الكامل) لابن الاثير و (تاريخ اليعقوبى) و (تاريخ سنى ملوك الارض والانبياء) لحمزة الاصفهانى و (الفخرى) لابن الطقطقى) و (البدء والتاريخ) لمطهر بن طاهر المقدسى وغير ذلك من تواريخ الأولين وكذلك استفدنا من نحو خمسة عشر مجلداً لجغرافيي العرب طبعوها فعلمونا بها تاريخ بلادنا الاقتصادى والعمرانى وأشياء مهمة لم نكن نحلم بوجودها وكثر بها رأس مالنا من الفصيح والتعابير اللمعية

ومن كتاب القرن الثامن فى مصر والشام ابن فضل الله العمرى صاحب (مسالك الابصار) و(التعريف بالمصطلح الشريف) والصلاح الصفدى (٧٦٤) صاحب (الوافى بالوفيات) و (تحفة ذوى الألباب) و (نكت الهميان) و (جنان الجناس) و (دمعة الباكى) والشهاب محمود الحلبى صاحب (حسن التوسل فى معرفة صناعة الترسل) وعلاء الدين غانم وأحمد الانصارى وابن القيسرانى وكمال الدين الزملكانى . ونبغ فى الأندلس لسان الدين بن الخطيب ولو لم تكن له إلا (الاحاطة فى أخبار غرناطة) لكفى فى تفوقه في كتابته وشعره فانه صور وترجم لهم كأنك تراهم فهو كاتب ومصور على ما يظهر . ونفح الطيب للمقرى يحوى طرفا صالحاً من نظم لسان الدين ونثره مع زمرة من رجالات الأندلس . وقد حل لسان الدين بعض القيود فى الكتابة هو وصاحبه ابن خلدون ٨٠٨ وكان الكتاب قبلهما ولا سيما فى القرنين السادس والسابع يقلد بعضهم بعضا فأصبحت الصناعة تسير نحو التقليد لا إبداع فيها ولا تجديد. فالمجددون فى الحقيقة فى القرن التاسع هما عبدالرحمن ابن خلدون.

ولسان الدين بن الخطيب ولم تكد تكتب العلوم الاجتماعية والتاريخية قبل ابن خلدون بمثل ذلك اللسان الذى استعمله ولا غرو فهو وصاحبه حسنة من حسنات الأندلس، وزهرتان ناضرتان من الزهور التى أهداها المغرب للمشرق وبهما ختم عهد الأندلس

كانت دواوين الانشاء فى قرطبة وغرناطة والقاهرة ودمشق وبغداد وغيرها من مراكز الحكومات فى القرون الوسطى مدارس لتعلم الانشاء ، والأخذ من فن الادب العربى الواسع ، فلما انحلت دولة الاندلس ، واستولى الترك العثمانيون على مصر والشام والعراق بطل التناغى بالادب والانشاء لان التميز فى هذا الشأن ، أصبح لا يجدى صاحبه شيئاً ، وغدا فن الانشاء مقصوراً على بعض أفراد في كل قطر عربى يستخدمونه حلية وزينة ، وإذا لم يبق فى الحكومات من يقدر الادب قدره ، ضعف بحكم الطبيعة وزاد عدد الشعراء أكثر من الكتاب لسهولة الشعر ، وإمكان الانتفاع به فى المديح . وإن كان الشعراء فى كل دور من أدوار العرب فيما رأينا أكثر من الكتاب بما لا يقاس

شوقي الناثر يصور الوطن

الوطن موضع البلاد . ومجمع أوطار الفؤاد . ومضجع الآباء والأجداد . الدنيا الصغرى ، وعتبة الدار الأخرى ، الموروث الوارث ، الزائل عن حارث الى حارث . مؤسس لبان ؛ وغارس لجان ، وحى من فان . دواليك حتى يكسف القمران ، وتسكن هذى الارض من دوران

أول هواء حرك المروحتين ، وأول تراب مس الراحتين ، وشعاع شمس اغترق العين . مجرى الصبا وملعبه ، وعرس الشباب وموكبه ؛ ومراد الرزق ومطلبه ؛ وسماء النبوغ وكوكبه ، وطريق المجد ومركبه . أبو الآباء مدت له الحياة فخلد ، وقضى الله ألا يبقى له ولد . فان فاتك منه فائت ، فاذهب كما ذهب أبو العلاء عن ذكر لا يفوت وحديث لا يموت

مدرسة الحق والواجب ، يقضى العمر فيها الطالب ؛ ويقضى وشىء منهما عنه غائب . حق الله وما قدأسه وأقدمه ، وحق الوالدين وما أعظمه ؛ وحق النفس وما ألزمه . الى أخ تنصفه ، أو جار تسعفه ؛ أو رفيق فى رحال الحياة تتألفه .

أو فضل للرجال تزينه ، ولا تزيفه . فما فوق ذلك من مصالح الوطن المقدمة ، وأعباء أماناته المعظمة . صيانه بنائه ، والضنانة بأشيائه ، والنصيحة لابنائه ، والموت دون لوائه . قيود فى الحياة بلا عدد ، يكسرها الموت وهو قيد الأبد

رأس مال الأمم فيه من كل ثمر كريم ، وأثر ضئيل أو عظيم ، ومدخر حديث أو قديم . ينمو على الدرهم كما ينمو على الدينار ؛ ويربو على الرذاذ كما يربو علي الوبل المدرار ، بحر يتقبل من السحب ويتقبل من الانهار . فياخادم الوطن ماذا أعددت للبناء من حجر ، أو زدت فى الغناء من شجر . عليك أن تبلغ الجهد ، وليس عليك أن تبنى السد . فانما الوطن كالبنيان فقير إلى الرأس العاقل والساعد العامل . وإلى العتب الوضيعة ، والسقوف الرفيعة . وكالروض محتاج الى رخيص الشجر وثمينه ، ونجيب النبات وهجينه ، إذ كان ائتلافه فى اختلاف رياحينه . فكل ما كان منها لطيفاً موقعه ، غير ناب به موضعه . فهو من نوابغ الزهر قريب ؛ وإن لم يكن فى البديع ولا الغريب

حظيرة الاعراض والعروض ، ومحراب السنن والفروض وسيد الأديم ، صفحاته التاريخ الكريم ؛ وبوغاؤه عظم

الابوة وانه لعظيم ؛ وعلى جوانبه الدولة وهى حسب الامم الصميم . وثم كرائم الاموال والأنفس وهى غوال ، وثم ثمرات الرجال ، وضنائنهم اللاتى خلف الحجال . فياعجبا كيف يجحد الاوطان الجاحد ؛ أو يزعم ان الارض كلها وطن واحد . قضية تضحك النمل فى قراها ؛ والنحل فى خلاياها . وتستبهم على الطير فى أوكارها ؛ وعلى السباع فى أحجارها . وينبئك عنها السمك اذا اتخذ من البحر وطناً شائعاً ؛ فولد مهدوراً وعاش ضائعاً . صغاره طرائد ، وكباره موائد ، وبتصيد بعضه بعضاً إن أبطأ الصائد

والوطن شركة بين الاول والآخر ؛ وبين الحاضر والغابر . لا يرث لها عقد ؛ وإن تطاول العهد ؛ مؤسسه بالمهد حينا وباللحد . يدخلك فيها الميلاد ؛ ولا يخرجك منها النفاد ؛ فقد تضرم النار وأنت هامد كالرماد ؛ وقد تحيي بك الديار وأنت بواد والحياة بواد

والوطن مستودع المفاخر ، وصوان المآثر ؛ وخزانة الأعلاق والذخائر . لكل متقن منها موقعه ؛ ولا ينبوا بصالح فيها موضعه . الهرمان لديها معظمان (وشيخ البلد) شيخ الصناعة على الزمان . وعندها سيف (على) ومغارسه ؛

وقناة (اسماعيل) ومدارسه . وفيها القصائد البارودية ؛ وليس فيها الخطب النديمية . تلك لقربها من كلام الحكمة ؛ وهذى لبعدها عن الاتقان والحشمة ، فيالك خزانة تميز الصحاح من الزيوف وتعرف الضيفن من الضيوف ؛ وتحجب العصى وتأذن للسيوف

صحيفة الاخبار ، وكتاب الأبرار وسجل الهمم الكبار. أسماء المحسنين فيه مرفوعة . وأفعالهم مثل للخلف منصوبة وحروف بماء الذهب مكتوبة . فاذا أتت السنون ، ودارت على الرجال المنون . ولحقت بالمشايع الشيع ، وذهب المتبوع والتبع ونامت الحرابى عن الشموس ، وحيل بين النار وبين المجوس . انفتح كتاب الوطن من نفسه وإذا الحسنات ثم على الصدق بحصاة ، فلا الحصاة درة ولا الدرة حصاة . وإذا الرجال يعظمون على الافعال ، وإذا الوقائع قد نحت منها الابطال . على قدر العمل يأتى الجزاء ، وبقدر جمال الأثر يكون حسن الثناء

وليس أحد أولى بالوطن من أحد . فما (پاستور) والشفاء فى مصله ؛ ولا كمال والحياة فى نصله ، أولى بأصل الوطن وفصله . من الأخير المحسن الى عياله ، الكاسب على أطفاله ،

الفادى الوطن بأشباله ، وهم رأس ماله . فلا تتحمد على الاوطان بآثار كرم ؛ وإن حمات عليها الهرم ؛ أو نقلت اليها إرم . فانك لم تزد على أن أقمت جدارك ، وحسنت دارك . ولا تنس أنها الآلة التى رفعتك ، والهالة التى أطلعتك . ولا تحجب ذات الوطن بذاتك ، أو تطرف العيون عن وجهه بقذاتك . ولا تكن كالسرح المظيم إذ نسى خلقه إذ علا على الأرض وهى أمه . ماؤها عصارة عوده ، وطينها جرثومة وجوده . حتى إذا ترعرع وكبر أخفاها وظهر ، وحجب عنها الشمس والقمر . خلعت عليه مانضر ورف ، وألقى عليها مايبس وجف

والوطن لايتم تمامه ، ولا يخلص لأهله زمامه . ولا يكون الدار المستقله ، ولا الضيعة الغله . ولا يقال له البلد السيد المالك ، وان تحلى ألقاب الدول والممالك حتى يجيل العلم فيه يد العماره ، ويجمع له بين دولاب الصناعة وسوق التجارة . فيا جيل المستقبل ؛ وقبيل الغد المؤمل . حاربوا الأمية فانها مساح الأمم وسرطانها ، والثغرة التى تؤتى منها أوطانها . ظلمات يعربد فيها خفاش الاستبداد ، وقبور كل

مافيها لضبعة غنيمة وزاد . وتذرعوا بذرائع العلم الصحيح أطلبوه فى مدارس الزمان وحلقاته ؛ وخذوه على جهابذته وثقاته . واعلموا أن أنصاف الجهال لا الجهل دفعوا ، ولا بقليل العلم انتفعوا . وبنو الوطن الواحد أخوة وان ذهب كل فريق بكتاب ، ووصلت كل طائفة من باب ، واتبع أناس الانجيل ، وأناس اتبعوا التنزيل ، وكل بلاد تسوسها حكومة فاضلة ، وتقيدها القوانين العادلة ، وتعمرها جماعة عاقلة عاملة ، إنما يفرق فيها الوطن الذى هو الحياة وشئونها ، الدنيا وشجونها ، والحكومة نظمها وقانونها ، والمملكة سهولها وحزونها ، والدولة أطرافها وحصونها . وبين الدين الذى هو السماء الرفيعة . والذروة المنيعه . ولاية الضمائر . وسياسة السرائر !

ربنا وانزلهم على أحكام العقول وقضايا الاخلاق . ولا تخلهم من العواطف . وان كن عواصف . ولا تكلهم للأهواء . فانها هواء . وخذهم بروح العصر وسنة الزمان . واجعلهم حفظة العرش وحرسة البرلمان

حدیقه ار دلتجه کا ابنا لحسا ا



رحلجه م یه شا ر بۀ غلتسه ۱۷

بجه ۱۱ لا م ا ن حمیعهۀ ۲ ق ۱۱

الـكاتب الاجتماعى القدير



الاستاذ محمد بك فريد وجدى

جزء الاول صحيفة نمرة ١١٤

٥

الكاتب الاجتماعى القدير

الاستاذ محمد بك فريد وجدى

حياته

محمد بك فريد وجدى هو ابن صاحب العزة المفضال مصطفى بك وجدى وكيل محافظة السويس ولد فى مدينة الاسكندرية عام ١٨٧٨ وأدخل المدرسة وهو فى الرابعة من عمره وأول مدرسة التحق بها هى (مدرسة اسماعيل افندى حق بالاسكندرية) وانتقل منها بعد أربعة أعوام إلى مدرسة (حمزة قبطان) وبقى فيها حتى أتقن القراة والكتابة ثم أدخل الى مدرسة كانت (للمسيو فالو) حتى سنة ١٨٨٢ نقلت الحكومة حضرة والده الى مصر فتبعه وأدخل (المدرسة التوفقية)

وقد بدا له أن يختصر سنى الدراسة فأحضر له والده مدرسين بالبيت يعلمونه وبينما هو كذلك إذ صدر أمر بنقل حضرة والده الى ثغر دمياط فتوجه معه

وهنا ابتدأت تظهر أفكار الكاتب الصغير بأحسن مظهر وأخذ يفكر فى موضوع التناقض بين العلم والدين وشغله حب ذلك الموضوع ومال الى الوقوف على حقيقة كل ميل فترك سير الدراسة القانونية وعكف على مطالعة العلوم

الاجتماعية والنفسية وأخذ يدرس الفلسفة وحده ليصل الى حل ما أشكل عليه لعدم وجود من يرشده من هذا الطريق العصرى واستمر في دراسته هذه لا يلوى على شيء غيرها حتى عام ١٨٩٨ حيث وضع كتابه الذى يعتبر بمثابة مختصر لابحاثه فى الدين وسماه « تطبيق الديانة على نواميس المدنية »

ثم نقل حضرة والده الى السويس فرحل معه وهناك أظهر الى عالم الصحافة مجلة الحياة

وهذه المجلة تعتبر من أكبر المجلات العصرية وأحسنها وأجودها أسلوبا وأعلاها إنشاء وأجلها مباحث دافع فيها الكاتب عن الاسلام بأحسن الادلة العصرية الفلسفية وأظهر فيها عظيم اطلاعه وسعة فضله وخدم فيها الدين خدمة عظيمة

وقد أخذ يمد للدفاع عن بلاده أعظم عدة من العلم والثبات والبلاغة ولما تمت عدته رأى أن البلاد المنعزلة البعيدة لا تكفيه ليؤدى فيها خدمه ومالت نفسه الطيبة الى الدخول فى معترك العالم ليدافع عن بلاده ورأى أن من أسلحة هذا الكفاح اصدار جريدة يودع فيها أفكاره ويدافع بها عن مبادئه الحره

المختار من نثره .

كيف تأدب البنات أحسن الاساليب فى ذلك

أساليب تربية البنات فى العالم كله معيبة وفى حاجة ماسة الى التهذيب . وقد أظهر الفيلسوف الانجليزى الكبير (هربرت سبنسر) غاية السخط فى كتابه (التربية) على طريقة تعليم الأناث فى بلاده وسرد لها عيوبا جمة . فاذا كانت هذه حال التربية النسويه فى انجلترا فما ظنك بها فى سواها ؟

أنا فى هذه العجالة لا يعنينى انتقاد هذه الأساليب فى تفصيلاتها ، وانما أقصد منها اليوم أمراً واحداً وهو كيفية تلقين الأدب النفسى للناشئات فى معاهد التعليم عندنا

الامر فى نظر الجميع هين . وربما كان درس الاخلاق أهون الدروس على المعلمين ، والعادة فيه أن يلقى المدرس على المتعلمات درساً أشبه بخطبة يجتهد فيها فى وجوب الامتناع عن منهيات الشريعة ، وينصح لهن بالتصون عن مزالق الزلل

ومواطن الريب ؛ والنزول على حكم من له اليد العليا عليهن من أهلهن وذويهن الخ ، ثم يأمرهن أن يطالعن فى كتاب من الكتب الموضوعة فى آداب المرأة وهو لا يخرج عما سبق بيانه أو يزيد عليه فى التحريج والتشديد ، والانذار والوعيد ظناً من المعلمين والمربين أن الاكثار من النصائح والذهاب فى التشديد مذهب المغالاة يطبع فى روع البنات صوراذهنيةمن الآداب العليا تزعهن عن الرذائل متى عرضت لهن وئقيهن شر الوقوع فى الحبائل اذا نصبت فى طريقهن

ونحن مع ايماننا بأن الزواجر تنطبع فى النفس الناشئة ويكون لها أثر فى تأخير وقوعها فى الآثام العارضة لها . ولكن هذا الاثر لا يتعدى حد النزاع بين صورة ذهنية تنفر منها الطبيعة لمعاكستها لاغراضها . وبين حقيقة مادية كل ما فى تلك الطبيعة يدعو اليها . ويترامى عليها . فلا تلبث هذه المعركة القصيرة الامد أن تنجلى عن تعفية أثر تلك الصورة الذهنية ونقش صورة أخرى مكانها تمليها الاهواء بلا منازع

ليت الامر يقف عند هذا الحد . فان كل التشديد الذى

تسمعه البنت من المعلم وتقرأه فى كتاب التربية ويصور لها الحياة بصورة خشنة مظلمة . ينقلب الى تمرد على الاخلاق متى تيقظت في نفسها الغرائز الجدية والقلبية . لانها ترى البون شاسعاً بين ما يحب مربوها أن تكون عليه . وبين ما يدعوها المجتمع وكل ما فيه اليه

ليس غرضنا من هذه المقابلة بين التربيـة وبين الواقع أن تثبت عقم التربية .وافلاس أساليب التأديب علي الاطلاق، ولـكن غرضنا أن نثبت نقص الاساليب المعول عليها . وقصورها عن انتاج الآثار المنتظره منها

فى رأيى أن تربية البنات لا يجوز أن ترتكز على الامر والنهى والاكثار من الزواجر . بل على إيقاظ الغرائز الادبية الـكامنة فى نفوسهن . وإثارة القسوى المعنوية الثاوية فى طبيعتهن . وهو عين الاسلوب التأديبي الذى أختاره أنا لـكل نفس انسانية من أى جنس كان صاحبها

فأرى أن يعمد فى تربية البنات الى بيان قيمة الأنوثة وكرامتها . وما يتـوقف عليها من حفظ النوع وتكميل الرجولة وما يناط بها من ترقية المجموع وتلطيف شعوره .

ورفع مستوى إنسانيته، بما أودعته من الغرائز الفاضلة والقوى الكامنة، والقدرة علي قلب الأحوال الأدبية فى العالم متى أرادته وعملت عليه

يجب أن يبين كل هذا للبنات مع إيراد الأمثلة وإقامة الأدلة على كل نظرية منها والتوسع فى ايراد تراجم النسوة اللاتى كان لهن تأثير كبير فى ترقيـة المجتمعات . ويجب أن يشفع كل هـذا ببيان تاريخ المرأة وما كانت عليه من يوم إن أمكن الحصول على تاريخ الانسان . ولـكن لا يجوز التلاعب بهذا التاريخ ليوافق هوى خاصاً أو مذهباً معيناً . بل يجب أن يعطى كما هو فى حلته التاريخية الصادقة وان كان فيـه ما يناقض الآراء الخاصة أو العامة . لان الغرض تنور السنن الاجتماعية . والاصوال العمرانية من تعاقب الحوادث على الامم . وتتالى الادوار التى دخلت فيها . والعوامل التى ورطتها فى تلك الادوار . فاذا حرف التاريخ الى وجهة غير وجهته ليستدل منه على صحة مذهب أو رأى لم يكن الوقوف من هذه الحوادث المحرفة على حقيقة السنن الالهية . ولا معرفة الاتجاه الذى تأخذه فى سيرها . ولا إدراك العوامل الصحيحة

التى دفعت الامم الى ما دفعتها اليه . بل تحصل لنا من ذلك معلومات ضالة لا يمكن الاخذ بها لانها غير طبعية

فتاريخ المرأة عريق فى الحرية والاطلاق بل وفى السيادة ويظهر من عموم هذه الحال فى طوائف الانسان القديم أنها الاصل فى الوضع الطبعى . وإن ما طرأ بعدها من أسرها وادخالها تحت الوصاية . كان من الاوضاع البشرية المحضة . فهذا التاريخ يجب تدريسه للبنات على ما هو عليه لينبه فيهن ما كمن في أطواء طبيعتهن من عاطفة الأنفة والترفع

فاذا أضيف الى كل هذا درس فى الاخلاق مبنى على المباحث البسيكولوجية العملية . لا على الآراء العتيقة الفائلة أغنى هذا عن ألف كتاب فى الاوامر والنواهى يحفظها البنات حفظاً ولا يكون لها من سلطان عليهن . متى بلغن أشدهن . واندفعن فى تيار الحياة على ما هى عليه في الواقع

اذا جرت تربية البنات على هذه السنة فتحت فى قلوبهن عالماً من القوى المعنوية حبسها فيها ما وقعت فيه المرأة من الاسر . وما أحيطت به من التقاليد والتكاليف الموبقة فى قرون طويلة متعاقبة . وأدركن حقيقة مكانهن فى

الوجود الانسانى ، وكنه وظيفتهن فى المجتمع ، وحد قيمتهن حيال الطبيعة ، ومبلغ قدرتهن فى العمل للتقدم العام

هذا الادراك يرفع أنفسهن عن التسفل للدنايا ، ويدفعهن بالعوامل النفسية التى ينشئها الى أبعدما يتخيله العقل من الكمال والفضيلة . نعم أن الوصول الى اصلاح هذا الجنس برمته لن يكون طفرة ، ولابد من مرور أمد ليس بقصير حتى تتوطد أساسه ، وترسخ أصوله ، وحتى تتجه هذه التعاليم الممهدة له الى وجهتها القويمة ، ولا تؤول الى عكس المقصود منها ، ولكن المصلحين لا يبالون بأمثال هذه العوارض مادامت الغاية مضمونة ، ومادامت هذه الطريقة هى الوحيدة للايصال هذه الغاية الكريمة

قد يقول معترض أن هذا الأسلوب من بث روح الانفة والترفع في روع المرأة ، يبعثها على التمرد على الأصول المقررة ، ويدفع بها الى الامعان فى سبيل التبرج الذى أختطتها لنفسها فى هذا العهد الاخير

وجوابنا عن هذا أن الأساليب القديمة قد ظهر عجزها بظهور الحال التى يشكو منها المعترض ، فلو كانت صالحة

لمنعت حصولها أو لوقفتها عند حد، والمشاهد أنها آخذة فى التفاقم والاستشراء فلا بد إذن من تغيير هذه الاساليب بما هو أصلح منها، وأجلب للغرض المقصود من التربية، ولا يعد وجوب أسلوب أوفى بانهاض جنس برمته أرقى من اللجأ الى عوامله الذاتية المودعة فى طبيعته الجنسية، وقد ثبت أن الجبلة النسوية ثرية فى المواهب العلوية، فعملنا على اثارة تلك المواهب وتنبيهها، والاستعانة بها على ما نحن بصدده أولى من اللجأ الى الوسائل الصناعية التى تقوم على طمس تلك المواهب. وقيادة ذلك الجنس برمته قيادة استعبادية

وليت هذا الاسلوب القمعى على ما فيه من خماد أجل المواهب الآلهية، من أجمل الكائنات الارضية، تأدى باهله الى ما قصدوه من وضعه فقد تأدى الى فساد نصف البشرية على وجوه شتى. وهذا الاصلاح التهذيبى الذى نشير به لابد من التعويل عليه فى يوم من الايام لانه الطريق الطبعية. فان لم يقم به الرجل من تلقاء نفسه قامت به المرأة نفسها متى استكملت أدواتها للعمل لذاتها وقد ظهرت بوادر تحفزها. فمن مصلحتنا ان لم نقل من واجبنا. اعانتها عليه بما أوتيناه

من السبق فى الوسائل . ويكون لنا عندها يد تذكرها . والا تأدت اليه بغير مساعدتنا بعد أدوار تمر فى تنازع يقع ضرره على الجنسين معاً . ثم لا يكون الا ماهو كائن رضينا به أو لم نرض

كمال المرأة

لكل حى فى هذا الوجود كمال يتأدى اليه مسوقاً بدوافع مناسبة له غرزها الخالق الحكيم فى طبيعته . ولكن قضت السنة الالهية أن لا يبلغ كائن كماله طفرة فلا بد من مروره على أدوار شتى تتعاوره فيه عوامل لا تدخل تحت حصر . وللكائنات الانسانية من هذا التطور تاريخ والاجماع بالشؤون والتقلبات تكلفت ببيانها علوم التاريخ والاجماع والنفس وسواها لا تزال فى دور نشوئها وقد مضى عليها ألوف من السنين . ولا غرو فان استكشاف السنن الاجماعية التى تسوق الآحاد والجماعات العاقلة الى غاياتها هى من التركب والتعقد بحيث يتعذر على المدارك تتبع آثار كل

واحدة منها كما تتبع آثار السنن العاملة فى الـكائنات المجردة عن العقل. لان هذه الـكائنات الاخيرة تنفعل لتلك السنن انفعال الآلة لليد المحركة لها. ولـكن الـكائنات المفكرة تقوم عند كل أثر يقع عليها بحركة مقابلة تقتضيها ما ركب فيها من القوى التابعة هى أيضاً لنواميس خاصة بها. وهـذا التفاعل بين الطبيعة الخارجية والطبيعة الداخلية للعقل كان فى كل زمان موضوع علوم شتى سميت بأسماء مختلفة لا تزال كما قلنا فى دور نشوئها وان مضت عليها عشرات الاجيال. ولـكنها هدتنا في الجملة الى حقائق عامة لايمكن نكرانها ليس من غرضنا سردها فى هـذه العجالة وانما ننبه منها الى ما يخص مبحثنا هـذا وهى الحقيقة : (ان لـكل من الرجل والمرأة غايتين من الـكمال ينساقان اليهما تتخالفان فى طريقهما وتتـكاملان فى نهايتيهما)

هذا ما قررته المعارف الاجتماعية والنفسية وتكلفت بالتدليل عليه مقررات الفروع المختلفة بالعلم من تشريحية وفيزيولوجية واقتصادية وغيرها ولـكن المتكلمين من الكاتبين

والقصصيين والمتطوعين للدفاع عن حرية المرأة يضربون صفحاً عن هـذه المقررات التى لم يكلفوا أنفسهم دراستها فيخبطون فى هذا المبحث خبطاً مشتقين كل مايكتبونه من نظرات سطحيه . وأراء شخصية . فاذا تخالفوا فلا يحكمون المقررات العلمية التى أفنى العلماء أعمارهم فى تدعيمها ولـكنهم يعمدون الى التناضل بالشتائم حتى اذا تعبوا ألقوا أقلامهم تهيئاً لدور آخر من التخاصم

ولقد تتبعنا الفريقين فى كل أدوار مناقشاتهم فتبينا لهم مذهبين متناقضين : ففريق يرى أن المرأة دون الرجل إدراكاً وقوة فيجب أن تخضع له خضوع الضعيف للقوى وعليه أن يتولاها كما يتولى ابنته فيحجبها عن الاعين ويعطيها نوع التهذيب الذى يتولاه

وفريق يرى أن المرأة والرجل سواء فى الادراك والقوة (الا ماأوجبه الاسر عليها قروناً طويلة) فلا يجوز أن تخضع له . ولا أن يتولى هو أمرها فيصرفها على ما يهوى . ولا أن تحتجب عن الرجال . ولا أن تقصر نفسها على الامور البيتية بل أن تعمل فى كل مجال من يعمل فيه الرجل

هذان هما الفريقان اللذان يختصمان فى أمر المرأة اليوم وكلاهما على غير السبيل العلمى . فهما يعتركان بمعزل عن مضطرب العوامل الاجتماعية وليس لكتابهما من أثر غير ما ينتجه من حركة فكرية بعيدة عن مواطن العلل الحقيقية

ولكن العلم الاجتماعى الذى أدرك ماهيتى كمال الرجل وكمال المرأة وعرف العوامل التى تدفع كلاً منهما اليه فى طريقه الخاص به ثم تلاقيهما فى النهاية . لا يقوم على شىء من الاصول التى تقوم عليها كتابات هؤلاء المتجادلين . فهو لا يقرر أن المرأة يجب أن تخضع للرجل لحجة أنه أقوى منها مداركاً وجثمانا . ولا أنها يجب أن تنطلق من أساره بدعوى أنها تساويه فيهما فهو لا يطرح مسئلتى خضوعها وتحررها على بساط البحث لانه يرى نفسه حيال كائنين خلقا ليتكاملا لا ليتغالبا وجدا ليتضامنا لا ليتنافسا

نعم أن الرجل استخدم قواه العضلية لأسر المرأة وأخضاعها لسلطانه ولكن ليس طريق تحريرها إعلان استقلالها عنه وادعاء مساواتها له فى كل مواهبها . لانهما لم يخلقا ليستقل أحدهما عن الآخر بل ليعيشا معاً ولان مواهبها

تتخالف بتخالف وظيفتها فلا سبيل للمفاضلة بينهما

فهذا الضرب من الخبط لا تكون نتيجته الا زيادة حالتها سوءا . فانهم ان حصلوا لها الاستقلال قضوا عليها اما بالترجل أى بالجرى مع أهوائها . وفى كلتا الحالتين إسقاط لها الى الحضيض وقضاء عليها بالدون من العيش . وان حققوا مسئلة مساواتها للرجل عرفا (وهى ليست كذلك فى الواقع من الوجهة التى يرمون إليها) قضوا عليها بالعبودية له . لانها لا تساويه من الوجهة العضلية وان كانت تفوقه من وجهة أخرى فتخضع له مضطرة تبعاً للقاعدة الحيوانية التى لا تزال سائدة بين البشر وهى أن الحق للقوة . وفى العالم الشرقى والغربى مجال واسع لتحقيق هذه المقررات . فالنساء المترجلات والمستقلات لا يعشن الا فى الحرمان . اللهم الا شواذ يعددن عداً وهن على شذوذهن لا يتخطين الدرجة الوسطى الا اذا كانت لهن ثروة موروثة

فالعلم يقرر أن للمرأة درجة من الكمال تساوى درجة كمال الرجل فى الرتبة ولكنها لا تحصلها بالجرى على سنته بل على السنة المقررة لها . وهى لم تخلق دونه مواهب وقوى

ولكن هذه المواهب والقوى ليست من نوع قواه ومواهبه فلا يصح ان تقارن بها . وانها لم تخلق لتخضع له بل لتعيش معه مكملا أحدهما نقص الآخر . وانها لم تجعل لتستقل عنه ولكن ليس فى تعلقها به معنى التبعية بل معنى الشركة الطبيعية وأنها لا تصل الى مكانتها هذه من طريق الاباحات التى يطلبها لها الذين يدعون تحريرها ، بل من طريق السنن المقررة لطبيعتها . وان المرأة الغربية التى يريد أولئك المدافعون عنها أن يجعلوها نموذجا لها ليست بالمثل الاعلى الذى يجب أن تعمل المرأة للوصول اليه ، بل هى فى حالة تنافى ذلك المثل الاعلى من أوجه كثيرة وتحول دون بلوغه

كل هذه مباحث جليلة . المرأة المصرية فى أشد الحاجة اليها وهى فى دور نهضتها الراهنة . ليتسنى لها أن تسعى الى كمالها بقدم ثابتة ونفس مطمئنة . واضعة نصب عينها مثلها الاعلى الذى ليس وراءه مرمى . ضاربة عرض الحائط بكل كلام يرمى الى صرفها عنه لما ليس منه من المرامى الاباحية الموبقة

الشاعر الناثر



خليل بك مطران شاعر القطرين

جزء الاول صحيفة ١٣٠

٦

شاعر القطرين
خليل بك مطران

المختار من نثره

ماهى الارادة ؟

شأن التصور فيها

لو كانت العناصر التى تتألف منها حياتنا النفسية بسيطة أى غير معددة الادغام والتركيب والمشاركات لسهل على المرء أن يتبين الحوائل التى تحول دون سلطانه على نفسه فيتقيها أو الوسائل التى تبلغه الى التمالك فيتوسل بها غير أن تلك العناصر ترجع بوجه عام الى ثلاثة: تصوراتنا ، احساساتنا ، أفعالنا

(١)

من التصوراب ما هو اقبالى أى منجذب نحو المحور ومنها ما هو ادبارى أى مندفع عن المحور

غير أن كثيراً من التصورات يطرقنا من الخارج فينزل من ذاكرتنا منزل الغريب من الخان وقد تجتمع فى ذلك الخان الاضداد مما يجىء عن المطالعات أو المحادثات أو الأمانى والأوهام

من تلك الاضداد يغلب أن تنتحل المعاذير لكسلنا مستمسكين بأقوال ضارة أو كلم مشتبهة بالحكم معزوة الى بعض ذوى الأسماء من الأدباء أو العلماء

أمثال هذه التصورات لاسلطان لها علينا بل لنا عليها كل السلطان. على أن معظمها ألفاظ لاغير شيء. وماذا تراها، مع كونها ليست الا ألفاظاً، فاعلات بتوا كلنا وشهواتنا، أيسطى بآنية الخزف على آنية الحديد ؟ من المحقق أن العقل على ما به من القدرة التى لاتجحد لو انفرد فى قتال الأهواء لما أجدى فتيلا. أليس السكير يعلم حق العلم بنتائج إدمانه ومع ذلك لايتوب: لان التصور وحده لايكفى رادعا. الا أن يكون السفيه دهراً تحت تهديد المستقبل فاذا عضه الشقاء بنواجذه قال «ليتنى علمت» على أنه كان يعلم ولكنه لم يتعظ، هتان واقعتان لهما أشباه لا تحصى من الوقائع المألوفة تدل كلها على أن التصور اذا لم يمد بالشعور لم يستفز همتنا ذلك الاستفزاز القوى الذى لا تمد الارادة الا به وتوجد تحت هذه الطبقة من التصورات الأجنبية طبقة أخرى من التصورات السطحية لاتنفذ الى

الصميم ولكنها قد تلابس الاحساس فتستعير منه بأساً وأيداً [١] مثال ذلك : شاب حاق به السأم وملكته الروية فاقام أياما لاينشط لواجب عليه، ثم اتفق أن جاءه البريد صباحا منبئاً بنجاح أحد أقرانه، فما هو الا أن ألقى الألوكة [٢] من يده حتى سار به الشوق الى استئناف عمله، سورة لم يشبهها فيه قبلا تقدير التبعات [٣] وان ساءت عليه مآلا ومن هذا القبيل حادث جرى لمؤلف هذا الكتاب قال «كنت فى بعض خطراتى للرياضة مستغرقاً فى التفكير فشارفت خطراً في مذلة قدم من جبل وعر فلم أجزع وتمهلت فى انحدارى مستعيناً بمخصرة [٤] فى أدناها زج [٥] حديد حتى انتهيت الى مأمن فهنالك تولانى الذعر وسال من جسمى بارد العرق لشدة الفرق [٦] فالشاهد هو أنه فى لحظة أو دونها قد تحول فى نفسى منظر الخطر الى خوف من الخطر

يضاف الى هذا النوع من التصورات نوع آخر أبلغ

---

(١) قوة (٢) الرساله (٣) المسئوليات (٤) عصا
(٥) كعب (٦) الخوف

شأناً وهو الذى تصادف فيه التصورات الغريبة انفعالات خاصة من النفس فان السانحة من هذا الصنف اذا صادفت قلباً تائقاً إليه اجتذبت إليه . بفعل الاشتفاف الداخلي الذى سنراه فيما بعد . كل احساس صالح لتلقيحها ، فاتخذت لها منه غذاء وحولا وأولته منها جلاء وصفاء وسيرته بعد الحيرة فى وجهة يوليها شطره ، فما التصور فى مثل هذه الحال الا كالمغناطيس يجمع آلاف التيارات المنبثقة من قضيب الحديد اللين راداً تنافرها الى التئام ، مرسلا اياها نحو واحد فيضاعف بذلك قوتها الي مئة من أمثالها ؛ وكذلك التصور حين يأتلف بالاحساس فى حدما وصفنا فربما نجمت عنه الكلمة الموفقة ألقاها خطيب سياسى محبوب فى قومه فكفت لتقييد أوابد الأغراض بعد الفوضى والشتات وانجحت فى تسيير الجماهير بعد اختلافهم نحوغاية واحدة

تلك قوة الخواطر اذا حالفتها نزعات الحس فاذا انفردت عنها لم يكن لها شىء من ذلك الأيد ، يدرك حقيقة هذه القاعدة من ساوره الخوف ذات ليلة ، لغير ما سبب ؛ فلزم مضجعه كأنه به لصيق ، وخفق فؤاده . واطرب صدغاه

وتعذر عليه من صفاء ذهنه ، أن يسكن روعه ، بيد أنه إذاكان الخوف من الانفعالات الكبرى فانظر ما أضعف فعل التصور منفرداً في النزعات الصغرى ، أكل تقى ورع من أهل التجارات والزراعات الذين يتفق لهم مع ذلك أن يتسامحوا أحيانا فى بعض التطفيف بالكيل أو مماحكة الفاعل الكداح البائس فى شيء من أجره الى ما هو أجسم وأظلم ، أهؤلاء الاتقياء الورعون الذين تجنبوا الدنيا وتحرروا لله قولا وفعلا هم فى الايمان سواء ؟ أوليس بيناً أن الذى يحس منهم بالعقيدة هو غير الذى يقف منها عند حد التصور ؟ وهل يقال ، فى تقدير آخر ، أن الاشتراكى الذى يجوس خلال الجادات فى باريس مستمتعاً بكل شيء ، غير ضان على نفسه بنفقة يستطيعها وأن تفه غرضه منها وكان وراء حاجته ، شبيه بتولستوى ذلك المثرى الاصيل (١) العبقرى العليم الذى تخلى لعقيدته عن محتده (٢) الفخم وجاهه الواسع وقصوره الباذخات ليعيش عيشة فلاح روسى من عامة الفلاحين

---

(١) الشريف النسب (٢) الاسرة التى جاء منها

لاحاجة الي التكثير من الامثال وفى اختبار كل مناما يتجدد كل يوم أو يشهد كل ساعة بان التصور على حدته ليس بذى حول فلو خلت له ضمائرنا لجاز أن يصبح فيها العامل القوى غير انه لا يكون هناك الا على نزاع بينه وبين الأهواء وحيث لم يستعر بأساً وايداً من الاحساس لم يفلح فى مكافحتها

(٢)

لئن ساءنا ان التصور بلا حول كما قدمنا فما ذلك الا لعدم انتفاعنا ، فى جانب تنشئه الارادة بما لنا عليه من مطلق السلطان مثال هذا السلطان أن الرجل اذا كان متبحراً فى بحث أو تأمل ، وصدعه من الخارج صوت فقطع عليه سلسلة فكره ، ونقله من شأنه الى شأن آخر لا ارتباط له به ، استعان الرجل على طرد هذا التصور المتدخل باشارة هو معتادها كأن يضع يده على جبهته ، أو بقراءة كتاب ، أو بغمغمة كلمات مما كان يبحث فيه وبذلك يتسنى له وصل السلسلة من حيث انفصلت وتمكين التصور الذى هو فى صدده من حيث كان قد أخفق أو اضطرب

من هنا يتبين أن الذاكرة هى المعوان الاكبر على إحراز هذا الظفر فهى تحفظ كل ما نراجعه وتهيء له مكاناً من عطفنا أو تصر على ادخاره . أما سائر ما يلقى فيها من البذار فتدعه يجف فى حيز المهملات الى أن يتلاشى وربما تلاشى ذلك الحيز نفسه

الخلاصة ان السلطان الذي لنا على تصورنا انما هو متمم بسلطاننا على الأعصاب التى ترتبط بها جوارحنا الحساسة فهو يمنح كلا من الناس حيلة لابرام ما ينتقد مما يشتغل به ذهنة وانما قدرة المرأة على فكره تابعة لقدرته على أعصابه غير أن كل مالنا من الصولة علي تصورنا لايخولنا صولة جديرة بالذكر على توكلنا واستسلامنا الشهوى فننظر ما تمدنا به الانفعالات من الوسائل للتوصل الى السيطرة على أنفسنا أو بلفظة واحدة الى التمالك

الارادة
وكيف تصنع رجالا

عيب متأصل فينا يجب أن نجاهده . ضعف الارادة وما يبدو من مظاهره المختلفة فى طالب العلم والعالم بعلمه

اذا تبينا ، عن ثقة ، مم يتأتى فشلنا فى أعمالنا كلها أو جلها ، وجدنا السبب الاكبر بل الاوحد فى ذلك هو ضعف إرادتنا ، أو نفارنا من الجهد ولاسيما الجهد المطرد

سبب تتنوع أسماؤه فيقال توان ، أو روبة ، أو نزق على كون المسمى واحداً هو ذلك الكسل المتغلب على الطبيعة الانسانية النازل منها بقوته القاهرة منزلة الثقل من المادة

ألد خصم فى الانسان الارادة الثابتة هو بالطبع ما كان قوى الفعل دائبه . أما الشهوات فليست ذلك الخصم الألد لأنها طارئة أسرع ما تجىء أسرع ما تزول الا في أحوال نادرة كل الندور تقرت فيها من الجنون . فلا يصح زعم من زعم ان الشهوات هى العلل التى تحول دون المواظبة وخصوصاً مع ما يتسنى للمرء فى أثنائها أن يأتى به من جلائل الأعمال .

أما العدو الغلاب للارادة فهو تلك الحالة النفسية المتمكنة التى تدعى بالروبة أو التواكل أو الكسل كما قدمنا. أما ترى أن الرجل لاينشط لأمر الا أن تلح عليه الضرورة. وإن أمماً كالجيل الأحمر آثرت الانقراض على النهوض لمقاومته بالمجهود المتابع المنظم، وان الطفل تشق عليه مزاولة العمل المطرد، وان الصناع يقضون أعمارهم فاعلين فعلا واحداً لايعنون باتقانه حتى يجىء خيراً من سوالفه الغابرة أو من أمثاله الحاضرة وهو ماأدهش الفيلسوف سبنسر اذ آنس فى الأشياء التى يتداولها كل يوم تشا كلا ما به من أثر دال على أن الصانع حرف فطنته فى تلك الاشياء ليجعلها أخلق بما خلقت له فاستخلص من ذلك قوله « كأن الناس قد اتفقو على عبور الحياة مقلين من كد أذهانهم نهاية الاقلال » . تلك أمثلة على جلائها لا نتبين حقائقها بأحسن مما تعيده على بالنا ذكرى عهدنا بطلب العلم: فما كان أقل الجادين من رفقائنا فى تلك الايام وما كان أكلفنا جميعاً بألا يعانى فى التهيؤ للامتحان الا أيسر ما يعانى فنعقد النجاح بالاستظهار دون سواه من قوى العقل طمعاً في البلوغ الى مأرب فذا - أخس به من

مأرب - هو خدمة الحكومة أو القيام بأى عمل من هذا النوع يجال الذهن فيه كتطريس اللاحق على أثر السابق لا إجالة الاستنباط والتوليد

إليك مثلا آخر : اذا انقضى زمن الطلب وصار الفتى محاميا أو قاضيا أو طبيبا أو مدرسا افتتح حرفته بالنشاط والتفطن ولا ستصلاح وتعدها بكل أولئك زمناً الى أن ترتسم خطط معلومة لديه وتلين أدوات المزاولة بين يديه . غير أنه بالنظر الى كونه لم يردف العمل الذى يرتزق منه بعمل عقلى آخر يجعله فى الخلوة ، خير سلوة ، ويستعين به على حفظ نشاطه ، وتقوية ، ارادته ، لا يلبث حين يستوفى البراعة فى حرفته ان تفتر همته من جهة العمل العقلى الآخر فيكف عن التحصيل ويمل من اقتداح الفكر الى أن يفنى فى العام بعد العام وسائل اختراعه وينفد قوى ابتكاره فينحدر فى وهدة التواكل وقد صدىء ذكاؤه لطول اعتماده وانتهكت رويته وتثلمت حدود قياسه : ذلك بان كل من لا يتخذ لنفسه شغلا عقليا يزواله بجانب مرتزقه لم تنج عزيمته من التدهور الى مثل هذه النهاية

فلننظر الآن في الخلة السيئة التى يجدر بناشد العلم والعامل بعلمه ان يكافحها فان هذا الكتاب انما هو موجه المقاصد الى هذين الفريقين بالأخص

أخطر مظهر من مظاهر الكسل فى طالب العلم هو ذلك الخور أو ذلك السأم النفسى الذى تتضح آثاره فى كل حركة من حركات اليافع واليك وصفه : ينام ساعات طويلة وراء حاجته ، يستيقظ وانيا متثائبا مخدر الأعصاب ، يتنظف ويصلح ظاهره على مهل ، يرتدى ثيابه فى زمن مديد، يشعر بأنه غير متهيء لفعل الا أن يفعله مكرها مكتئبا متبالدا ؛ يبدو النعاس على وجهه وكأن فى ملامحه حيلة تحت الفتور الظاهر عليها ، يكاد لاينشط لشيء واذا نشط لم يعلم لأى شيء ، اذا أضاع صباح يومه على هذا النحو عاد فتغدى فتحاذف الى مشرب قهوة يقرأ بعض الصحف الى آخر حرف من الاعلانات لما فى ذلك من التسلية بغير كلفة عليه فاذا كان الأصيل أحس دبيب الهمة فيه فطفق يبدد تلك الهمة بالمحادثات الفارغة والمناقشات العقيمة ، وكثيراً ما يبعثه الحسد الكامن فى نظر كل مكسال على ثلب الغائبين

والطعن فى كبراء القوم من حكام أو علماء أو أدباء أو مدرسين حتى اذا جاء المساء أوى الى مضجعه، أنكد قليلا مما كان بالأمس، بسبب أن تلك الروبة التى تقعد به عن الجد تقعد به فى غالب أمره عن المسرات وما من سبيل الى الهناء بلا عناء ولا الى السعود بلا مجهود. على ان من المسرات ماتدعو اليه من الفطنة وتبعث عليه الهمة كمطالعة الاسفار وتفقد المتاحف وترويح القلب فى الخلاء الطلق فهذه هى المسراب الصحيحة التى تتجدد دون سواها وتستعاد ماشاءت أمانى النفس. غير أن المكسال يرى فرصها سانحه ممكنه فلا يمد اليها يداً فتفلت عازبة عنه ويلبث من حياته فى فراغ موحش

يجدر بنا التنبيه في هذا المقام على ان الكسل المتأصل فى الطبيعة لاينافى حدوث النشاط هبة هبة: يشاهد أن الامم غير المتحضرة لاتعز عليها النهضات العنيفه أحيانا وانما يشق عليها العمل المنظم المطرد الذى يستنزف فى نهاية أمره من القوى أضعاف ماتستنزفه تلك الوثبات الفجائية. فهو كالنفقة يستنفد بقليلها على الاستمرار مالايستنفد بكثيرها فى بضع مرار، ويشاهد أن الرجل المكسال قد يقدم على

الحرب ويبلي فيها بلاء حسناً فتهون عليه شدائدها التى يعانيها بين آن وآن عن مزوالة أيما عمل ممتد الأمد متصل الجهد

كم من أمة غابرة ابتنت ملكا كبيراً فى الدنيا لكنهم لم يضطلعوا بحفظه لانهم لم يكونوا من ذوى المثابرة التى يتقن معها تدبير الاقاليم وتؤسس المدارس وتمهيد الطرق وتشيد المصانع فأضاعوا بهذا التقاعس ذلك الملك الكبير. وكذلهم مثل الطلبة الكسالى : فقد يأتون بالمعجز حيثما شارفوا موعد الامتحان وينجحون على قصر المدة لتأهبهم لكنه يشق عليهم أن يتهيأوا له منذ بدء السنة ، معتدلين فى كدهم ، مثابرين اليوم بعد اليوم والشهر بعد الشهر

فاذا كانت الهمة الحقيقية المثمرة انما قوامها الجهد المعتدل المتتابع صح بلا شبهة ان ماخرج عن هذا الحد خليق بأن يسمى « عملا كسلياً » - أما العمل المطرد فمن مستلزماته بالبداهة اطراد الوجهة وعليه فما تكون قوة الارادة بتعدد المجهودات بل بتسيير جميع قوى العقل نحو غاية واحدة

إليك نموذجاً من صنوف الكسالى وهم كثير: هذا

فى زميع مفراح كداد قلما يأتى بلا عمل : يقرأ فى اليوم الواحد بحثاً فى طبقات الارض وفصلا من ناقد جهبذ فى شاعر كبير ، ومقالات عدة فى صحف شتى ، يهيء تخطيطا لمحاضرة فى مطلب ذى شأن ؛ يترجم بضع صفحات من لغة أجنبية ، لايهدأ هدأة فى نهاره . فيكبر اخوانه منه ذلك الكدح وتلك الوفرة فى أنواع الشغل . غير أنه مع كل ذلك لايجدر الا بنعت الكسلان عند علماء النفس لأن المراوحة بين الاشغال على هذه الصفة دليل فى رأيهم على زهن حاضر بالفطرة ، له نباهة لاتنكر ، ولكنه لم يصل بعد الى رتبة الذهن «الحاضر بالمشيئة» . كما ان تلك الشدة فى الكدح دليل فى رأيهم على ضعف وأى ضعف فى الارادة

الكسول من هذا الصنف غير قليل وأخلق به أن يسمى بالمتوزع اذ لاجرم ان التنقل العقلى بين موضوع وآخر فيه مفترج للنفس ولكنه لازيد شيئا عن المفترج وقد دعا نيكول تلك الالباب بعقول الذباب وشبهها فنلون تشبيها بديعا بالشمع المتقد فى ملعب اهوية

اذا تبينا ما التوزع فاكبر سيئاته أن السانحه لاتمل حتى

تكتمل خلافا لما تقضيه القاعدة المطاقة التى عليها مدار كل عمل عقلي : من التصورات والاحساسات التى لا نتنزلها منا الا منازل الغرباء من الفنادق تظل أجنبيات عنا ولا تلبث أن تصبح نسياً منسيا ، فى حين أن العمل العقلى بالمعنى الصحيح يوجب توجيه المجهودات على اختلافها فى متجه واحد كما سنرى . على أن كراهة الاكثرين لهذا العمل المسير نحو غاية معينة أقل من كراهتهم للاجتهاد أى للجهد الذاتى المقصود به اتيان ماليس بمسبوق : ولا غرو فاية مشاكلة بين استظهار ماصنعه الآخرون وبين خلق الشيء من حيث الاختراع وتهيئه الاصول الانشائية كتابية كانت أو فنية من صنف آخر . أما السر فى تصعب الابداء فهو استلزامه التنسيق ومامن انشاء أى ابداء يفترق فيه الجهد الذاتى عن المنساق الى الغاية الواحدة ومن ثم يتبين السبب الذى من أجله يعاف السواد الأعظم من الطلبة هذا الضرب من العمل مع أن مآل الامور اليهم فى الغد حلا وعقداً

انظر الى طلبة الفلسفة مثلا : تجدهم جادين ولاسيما حين يتأهبون للامتحان ولاتأخذ عليهم أهمالا أو تباطؤاً

عن المواعيد ، غير أنهم يجتنبون الروية ، فهم ولا نحاشى إلا النابغين منهم وليسوا بكثير ، كسالى العقول وكسلهم هذا عبارة عن نزوعهم الى التفكير بالألفاظ دون المعانى ، وكلفهم بالاستظهار دون الاستبصار ، فيؤثرون تحميل ذاكرتهم ما لا تضطلع به من الوفر على أن يأتوا بأدنى جهد من عند بأنهم ، من ذلك أنهم إذا تعلموا علم النفس لم يرجعوا فى التطبيق الى ما عهدوه بأنفسهم منذ نعومة أظفارهم ؛ وفيه الكفاية للاستشهاد عن تدبر ، بل يرجعون الى الشواهد . المحفوظة عن ظهر القلب من الكتب وشتان بين الحالتين . قس على هذا وفرة الاستظهار وقلة الاستبصار فى سائر العلوم كالطب والحقوق والمواليد الثلاثة والتاريخ بل ربما وجد المدقق آثار هذه الآفة ؛ وان لم تكن بينة فى مصنفات غير واحد من اللوذعيين : إذ يلمح فيها غلبة المحفوظ على المبدوء . وأنذر بفائدة الاكثار من المطالعات وشحن الذهن بالمنقولات على حد ما قاله الحكيم القديم « أخاف من صاحب الكتاب الواحد » ، وأغزر بفوائد

الاقلال من التصفح مع حسن الاختيار ، واستبقاء المكان الكافى من الذهن خالياً للابتكار ، وأعداد معدات الشيء الذى يجدر به أن يسمى عملاً

ومما يدعو إلى الأسف ان النظام الراهن للتعليم معوان كبير على امتداد ذلك الكسل العقلى المتأصل وازدياد مخطاره كأن برنامج الدراسة الثانوية انما خلقت لجعل التلامذة أن طائفة المتوزعين : اذ تضطرهم بكثرة المواد وتباينها على المرور بها عبراً وعدم التعمق أو التثبت أوالتبحر في واحدة منها . تريد أيها التلميذ أن تقف قليلاً لتفهم مطلباً مما بين بديك أو لتستوضح الشعور الذى أحدثته فيك إحدى المطالعات؟ أبى النظام أن تمهل. فتقدم ذاهباً مذاهب اليهودى التائه . بين الحسابة والطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات وتاريخ الأمم وجغرافية الأقسام الخمسة من الدنيا ومدارسة لغتين متداولتين وأشتات من أدبيات الألسنة الغابرة و الحاضرة والمنطق والأخلاق وما وراء الهيولى حتى تنتهى إلى التوسط أو مادونه بوقوفك على الظواهر من كل شيء واقتصار حكمك على تلك الظواهر

فمتى انتقلب من هذا الشوط الحثيث إلى الدراسة العليا فلست بمزداد الاندفاعاً وتشتتاً فى الشوط الآخر . حتى اذا أفضيت الى ميدان الحياة فهناك تمضى أسباب العيشة المصرية بفكرك الى أبعد غاية من التوزع . وناهيك بسهولة الارتحال وكثرة الانتقال ، براً وبحراً ، من علل لشتات الاذهان وأسباب للشطط والخطل والتفريط . تلك عيشة مضطربة فارغة لا يتسع الوقت معها للمطالعة بجدّ وأية قيمة للكتاب الحكيم فى جانب ما تشغل القلب به صحف الاخبار من النبهات الكاذبة والأنباء العاجلة التى تقسم الذهن بين ما جل أوقل من الحوادث الخافقين فى خمسة أجزائها

ذلك ما تعدنا له البيئة فكيف نقاومه حيث لا يوجد فى التأديب ما يهيئنا لتلك المقاومة . أليس من بواعث الغم أن الصنيع الأمثل وهو تربية المشيئة لم يشرع فيه إلى الآن مباشرة ولا عن تدبر واكتناه بل نهاية ما يصنع في هذا السبيل انهم ينشئون الارادة على قدر ما يعتقدونه ضرورياً لشحن الرأس بالمنقولات . غلطت بقولى ينشئون الارادة والصواب أنهم يهيجونها ليصلوا بها إلى ذلك الأرب . وفى

هذه الحالة يكون الفتى ما دام ناشداً للعلم من جهة بين خوف القصاص أو حذر السخرية من الاقران ومن جهة أخرى بين رجاء المكافأة أو توخى الثناء فاذا رقى الى المدارسة العليا بطل هذان العاملان ولم يبق إلا الحصول على الاجازة وهى سهلة المنال لا يقصر عنها باع الكسل

ذلك كل ما يعمل لتنشئة الارادة مع أن ذلك المطلب بعيد الشقة ليس بالميسور ولا بضئيل النتيجة . أليس المثابرة هى التى توجد الرجل بتمامه ، أو ليست هى التى كونت أسنى هبات الزكاء وجعلتها منجبة ؛ أو ليست هى التى كانت الوسيلة لحدوث أجل العظائم وأجمل المحاسن . من العجب أن هذا الرأى إجماع ، وانك لا تجد غير شاك من سعة الشقة بين وفرة ما يختزن فى الدماغ وقلة ما تغذى به المشيئة . وكل صائر مصيراً يلتمس منه هذه الثلمة التى تركها لنا المتقدمون على علاتها إذ أن الطالب بعد رقيه إلى الدراسة العليا يصبح حيران ذاهلا غير عارف كيف يعمل ولا كيف يريد

اجهد جهدك

أى اجعل لك ضالة فى الحياة وأنشدها

نحس من أنفسنا وأن لم تشعرنا بذلك برامج التعليم أن قيمة الواحد منا قيمة ما به من العزيمة ، وأنه لا يرجى أمر ذوبال من امرىء ضعيف الشيمة. فيهون علينا لأجل التباهى ان نبالغ في مقدار المجهود الذى نبذله كل يوم لما فيه من الدليل على قوة مشيئتنا . ولئن كذبنا بدعوانا تلك فهو أشيع شىء بين الطلبة . وقد تذهب بنا الغلواء إلى الافتراء على أنفسنا فى هذا المعنى انخداعاً منا بمضائنا واغتراراً بما نستطيع الاتيان به من العمل

ومهما يكن من ذلك التوهم أو الايهام فان هما الا أقرار من طرف خفى بان الرجل قدره همته

من استراب فى مشيئتنا فقد أثخن الطعنة فى كرامتنا . أليس الذى يتهمنا فى قدرتنا على العمل يرمينا بالضعف والجبن، أو ليس الذى ينكر علينا مثابرتنا يلزمنا بين جمهور الادعياء

الغاصة بهم رحاب الحرف الحرة مكانا هو الوسط أو دونه لا يرجى لنا النهوض منه أو التعالى عنه

كل ذلك ثناء على العمل وفيه دلالة لا ريب فيها على رغبة الطلبة في النشاط والكد : وهى تلك الرغبة التى نبين لهم خلال هذه الفصول كيف يستطيعون تحويلها الى عزيمة ثم الى مواظبة ثم الى عادة ثابتة وطيدة

يراد بالعمل العقلى أحد أمرين : أما إقبال المرء على الطبيعة تدبراً واستقراء وبحثا مع عكوفه من جهة أخرى على مدارسه كل صنيع أتاه الآخرون من جنس ما انصرف اليه وتخصص له، واما الانتاج الذاتى ومن مرادفاته الانشاء أو الابتداع أو الابتكار أو الاستنباط . فاما الانتاج الذاتى فالاطلاع أول مقتضياته وجميع المجهودات الذهنية من مشتملاته وأداته إنما هى التأمل والاستجماع كما أن أداة التفحص والمدارسة لما فى الخارج انما هى التفطن أو التنبه ففى كلا الأمرين المطلوب هو حضور الذهن ولا عمل فى غيبة الذهن . على أن التنبه ليس كما يغلب على وهم العامة بالحالة الثابتة المتصلة الى أمد معلوم كما تكون القوس الموتورة

بل هو مجموع مجهودات جلت أو دقت ، تتكرر وتتوالى مختلفات السرعة . فاذا كان الذهن مروضاً متمرساً جرى تتابع المجهودات مجرى متلازماً يوهم اتصال بعضها ببعض مستمراً بضع ساعات في كل يوم

فالغاية المرومة أو الضالة المنشودة هى إذن الحصول على مجهودات متصله قوته من جانب الروية . ولا مشاحة فى أن أكبر مغتنم يتسنى لنا اغتنامه من سلطاننا علي أنفسنا هو إقدامنا في كل يوم على استئناف مابذلناه من المجهودات الشاقة : ذلك لأن الشبيبه مطية التهور ومبعث الغرور فهى تغلب الميول الحيوانية الشهوية فى الفتيان على ما يبدو لهم من ظاهر الشظف فى حياة أولى الالباب

بيد أن المجهودات العظيمة المثابر عليها قد تكون فوضى صادرة عن التوزع فلا تفى بمرام فاذا التمس تمام فائدتها تعين أن توجه نحو غاية واحدة وهى التى سميناها بالضالة المنشودة ليس بكاف سنوح التصور على بالنا أو حدوث الأثر فى نفسنا ليجتنى منهما أيما جنى بل هما ينزلان منا منزل الضيفين فاذا نويا التوطن : فاشراطه الاقامة زمناً معلوما ، ولطف

المجاورة ، وحسن المعاشرة ، ليتمكن مدرّجين ويكون لهما ألالاف وتتبين مزاياهما الخاصة

أماترى كيف تخلق الآيات الفنية ؟

تجول الفكره بادىء بدء فى رأس الرجل العبقرى وقد تكون خطرة موقفة من خطرات الصبي ، فتلبث فى أوائلها مستقرة خفية حتى تصادفها قراءة جدّت ، أوحادثة فى الحياه حدثت .أوعبارة لم يفطن كاتبها لما تحتها فالقى بها فى عرض كلامه رمية من غير رام ، فتنبث منها فى تلك الفكرة المستكنة روح تشعرها بما لها من القيمة وبماقد يكون لها من الشأن ، فتشرع من ذلك الحين تتغذى بكل مايمرّ بها من محتويات الأسفار ألى نحويات المحادثات. آخذة منها كل العناصر التى تستصلحها لنمائها وتقويتها . الفكرة التى تولدت منها رواية فوست أقامت ثلاثين سنة فى قلب الشاعر جوتى حتى أكملها العرفان واللوذعية والخبرة.وكل تصور ذوبال جدير بأن يحتفظ به الضمير أمداً . وأن يعاد إليه بالروية كرة بعد كرة فما يعتم أن يصبح محوراً حياً يجتذب إليه بمغناطيسه الخفى المعروف بالمشاركة والفكرية

أو أبد المعانى الأبية من عقلية وقلبية ، فيتلهمها ويمثلها نامياً بها نمواً لا يتم الا بفعل التأمل مع الجلد والتمهل . تلك الفكر المحورية انما هى أشباه لتلك البلورات العجيبة التى يغمس المختبر السكيماوى واحدة منها فى السائل الهادىء فتستنزل بانتظام وتأن آلافاً من دقائق ذلك السائل كأنهن صغار الدر واليواقيت

فتمشياً على هذه القاعدة يكون كل اختراع احدى نتائج الارادة ، ولم يستكشف نيوتن سنة الجاذبية العامة الا بعد أن تفكر فيها بلا انقطاع ، وكان داروين لا يشتغل بمطالعة ولا ينصرف الى تأمل الا فى المعنى الذى هو منقطع له ، وهذا مصداق قول الذين عرفوا النبوغ «بالصبر الجميل فى الأمد الطويل»

بدعتان

مخالفتان لتنشئه الارادة

(١)

لاشيء أضعف حجة من محض الانكار . فمن توخى الاقناع فالاقناع ليس فى الانتقاد بل فى الايجاد . ولما كنا معتدين بأفضلية المذهب الذى وضعنا له هـذا المصنف لاتخاذنا مادته من أثبت وأنصع الأدلة التى صفاها علم النفس تسامحنا فى التصدى لبدعتين شائعين كل الشيوع نبين ما فى أصولهما النظرية من الاختلال وما فى نتائجهما الفعلية من كبير الضرر

احدى هتين البدعتين قائمة على زعم أن الخلق لايتغير تقـدم بها « كنت » وتابعه « شوبنهور » وجاراهما بعض الشيء « سبنسر » . أما الاول (كنت) فبقوله أن النفس هبطت من علـو وقد اختـارت الخلق الملائم لها فهى تلزمه على العلات الى الممات . وأما الثانى (شوبنهور) فبقوله « انما

الخلق على ماخلق » بشاهدان ذا الأثرة ربما حمل على فعل الخير اذ يتبين لنفسه مصلحة أو مغنماً أو مزيد رغد فى ذلك ولـكنه لن يفعله حباً له . وأما الثالث (سبنسر) فبقوله أن الخلق الانسانى قد يتغير ولـكن على توالى الحقب وكرور الأدهار

فزدنا على ما تقدم : ان التقول فى الخلق على هذا النحو ربما جاء من كون المتكلمين فيه ظنوه واحداً لوحدة اللفظة التى هو مسمى بها فاشتغلوا بتلك اللفظة عن التبحر فيما تحتها من الاغراض. وأكثر الناس يحملهم الكسل الذى أسلفنا وصفه علي التفكير بالالفاظ دون المعانى لـكنهم لو كدوا الذهن فى استخراج المؤدى الاصلح لوجدوا أن الخلق ليس الا استخلاصاً ، والمستخلص من قوى متعددة لا يكون الا متحولاً بلا انقطاع ، ووجدوا كذلك أن الخلق ان كانت له وحدة فكوحدة أوربة : وكما أن تنوع المحالفات فى أوربة أو رقى دولة أو عثار أخرى يغير الحالة أى المحصل فعلى هذا النحو شهواتنا واحساساتنا وتصوراتنا لا تفتأ تتحول وفى وسعها بما تعتقده فيما بينها من المحالفات أو تنقضه من العهود

أن تلطف من حدة النتيجة أو تغير وجهتها تغييراً ، وسنرى فيما يلى مصداق ما نذكره من احتمال التحول فى الخلق . على ان « كنت » لم يقم على نظريته الا أدله تخمينية أرادبها التوقل الى اثبات الحرية أو التخيير وهو غريب

وأما « شوبنهور » فيم احتجاجه اذا عرف يقينا ان ذا الأثرة ربما سخا بقدر كبير من ماله بل جاد بحياته حيث يغلبه على الاثرة شغفه بغرض عظيم أو تشيمه لوطن عليه كريم ومتى جاز أن يتحول الطبع مرة جاز أن يتحول مراراً انتقض كونه ثابتا مكينا . ثم أيخبرنا « شوبنهور » فى أى حين وجد ذو أثرة فظل على أثرته فى كل لحظة من لحظات حياته ؟ مثل هذا الاستمرار غير معهودة فى الفطرة فالقول بأن الخلق صفة متجانسة غير متحولة ليس مبنيا على شهادة الحسن فى الناس بل على غيبيات مخيلة ولاقيام له

أما قول « سبنسر » فحسبنا فيه أن نسأل : اذا كان ميراث المرء من الصلاح معادلا ميراثه من الفساد فعلام لايستخدم بشيء من المهارة تلك القوة المتأصلة القديمة لترجيح الخير فى نفسه علي الشر ؟

٢

بقى أن نقول كلمة فى البدعة الثانية بدعة الخيار أو الحرية هذه البدعة توشك أن تكون أشد خطراً من الاولى لزعم أصحابها أن الانسان يستطيع التمالك أى التسلط على نفسه بسهولة نجم عن توهمها ان العدد الذى يصدر عن تعليمهم من الخائبين القانطين يربى على عدد أمثالهم من أهل البدعة الاولى

فاما أولا فقد ألحقوا ظلماً الخيار الشرعى أو التخيير الألهى بالحرية الخلقية وما بينهما من رابطة أو مجانسة ما . لا يملك لانسان نفسه بمجرد الرغبة كما لا يستقيل البلد العاثر من كبوته بمجرد التمنى بل بالعناء الجم والتجهز الطويل . ياعجباً أيجوز للمرء أن يقضى ثلاثين حولا من عمره وهو يقتصد ويحزن تأهبا لراحة الشيخوخة ولا يستخص الواحد منا بشيء من وقته لترويض نفسه علي طاعته مع اننا ان علونا مقاما فبالتمالك وان كرمنا حالا وعظمنا ما لا فبالتمالك وان سعدنا فى حياتنا فبالتمالك لان السعاده الصحيحة فى أصدق تعريف

لهـا هى الغبطة التى نغنمها من مجهود أحسنا تصريفه . كان أساتذنا يقولون لنا أنتم أحراره فنشعر انه قول فى حقيقته مكذوب ولـكن ننخدع مجاراة لمذهب الفيلسوف « تين » وأشياعه ودفعا لعناء المناهضة اذ لم يخبرنا أحدأن للارادة محلا مذكوراً ولا ان الارادة تكتسب ولا ان فى الوسع اكتسابها بوسيلة ما . ولـكن شتان بين زعم الخيالين وبين الحرية الخلقية : لان هذه الحريةالخلقيه هى كالحريه السياسيه خليقة بأن تؤخذ جهادا ، اذ ما من شىء قيم فى الدنيا يؤخذ بغير جهاد ، وخليقة بأن يدافع عنها استمراراً مخافة فقدانها ثم أنها هى الجـزاء الوفاق للاقوياء والمهرة والمثابرين . وهى العروس التى لايظفر بها غير الـكفء لها . ليست بحق ولا بمنة بل هى مكافأة أو هى أعلى وأسنى مكافأة . كنور الشمس من حرمه حرم أشهى لذات الحياة

الرغبة على التجريد ؛ لاتكفى فلابدّ لنا من الجهـاد كذا تقتضى الطبيعة ولا يستطاع تسخيرها الا من طريق الامتثال لسنها . يقولون من الناس من خلق فاقد الرغبة فاذا فقدت لم توجدها الوسائل ، صحيح ولـكن هل من رجل

واحد لا يفضل النبلاء الأخيار والعظماء الكبار على الزعانف الأذلاء والسكيرين السفهاء فاذا وجد الأيثار وجدت الرغبة ولو على ضعف وحيث وجدت جاز تنشيطها وتقويتها وإنماؤها أليس النواة وهى طعام فأر واحد تخرج السنديانة العظيمة التى تتكسر دونها الأعاصير ؟

لعل مذهبنا هذا لا يرضى لمشقته ولكنه ملائم لفطرتنا الخلقية موافق لغريزتنا النفسية وهو خير لنا من تلك البدعة التى تعرضنا بسوء نتيجتها لسخرية الأشهاد وعبودية الأعداء الداخلين الذين يقاتلون نمو الأرادة فينا

﴿ تم ﴾

اشهر مشاهير أدباء الشرق

مزين بالرسوم

شوقى ، العقاد ، طه حسين ، كردعلى ،
فريد وجدى ، خليل مطران ، عبد الله
فكرى ، الأفغانى ، محمد عبده ، فتحى
زغلول ، عبد الله النديم ، المنفلوطى

وضعه محمد محمد عبد الفتاح

الجزء الثانى فى نوابغ الاموات

الطبعة الثانية الناشر

عطية محمد على الكتبى

يطلب من المكتبة المحموديه التجارية

لصاحبها ومديرها : محمود على صبيح

الكائن مركزها بميدان الجامع الازهر الشريف بمصر

فهرس الجزء الثانى

صحيفة



المرحوم عبد الله فكرى باشا

جزء ثانى صحيفة نمرة ٢

١

المرحوم

عبد الله فكرى باشا

حياته

هو عبد الله فكرى باشا بن محمد افندى بليغ بن الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد ولد عام ١٢٥٠ هـ ولما توفى والده سنة ١٢٦١هـ كان لايزال فى الحادية عشرة من عمره فنشأ بعد وفاة والده في حجر أحد أقارب أبيه وكان قد بدأ في تعلم القرآن وحفظه حتى اذا ما أتمه حفظاً وأجاده تلاوة وتجويداً طلب العلم بالجامع الازهر الشريف وأخذ علوم الفقة والتفسير والحديث واللغة والعقائد والمنطق على يد كل من الشيخ ابراهيم السقا والشيخ محمد عليش والشيخ حسن البلنانى وغيرهم وكان فى هذه الاثناء يتعلم أيضاً اللغة التركية فأجادها ثم لم يلبث أن تعين فى القلم التركى فى الديوان الكتخدانى سنة ١٢٦٧ هـ وكان لايزال منكبا على تحصيل العلوم بالازهر الشريف فكان ينتهز فرصة الفراغ قبل ذهابه الي الديوان وبعد عودته منه ليذهب الى حيث يتلقى العلوم — ظل فى هذا الديوان مدة حتى انتقل

إلى ديوان المحافظة ثم إلى وزارة الدخلية بوظيفة مترجم ثم لم يلبث أن انتقل إلى المعية السنية فى عهد المغفور له سعيد باشا وظل فيها إلى أن تولى الخديوى الأسبق ساكن الجنان اسماعيل باشا سنة ١٢٧٩ﻫ فأبقاه المغفورله في معيته وظل صاحب الترجمة فى خدمته فكان ينتقل معه ويرافقه فى راحاته وغدواته وكان أيضا يرافق الحرم الخديوى فى رحلاتها حتى أنعم عليه فى سنة ١٢٨٢ﻫ بالرتبة الثانية مع لقب البيكوية

وفى سنة ١٢٨٤ﻫ أسند إليه الجناب الخديوى ملاحظة الدروس الشرقية وهى العربية والتركية والفارسية بمعية أنجاله وغيرهم من أمراء العائلة الخديوية فأخذ على عاتقه وجوب القيام بهذه المهمة بنفسه بأن يلقى الدروس شخصياً وأحيانا يراقب ماهية التعليم والتدريس ويباشر العمل مباشرة دقيقة حتى جاء عام ١٢٨٦ ﻫ فنقل إلى ديوان المالية فعهدت إليه مسألة النظر فى أمر الكتب التى كانت فى المحافظة إذ ذاك وابداء رأيه وملاحظاته فيها فأخذ منذ ذلك الحين يتردد مدة على ديوان المحافظة لفحص هذه

الـكتب وبعد أن فرغ من فحصها رفع تقريراً مطولا مفصلا عن هذه الـكتب جاء فيـه أن وجودها بالديوان (المحافظة) ضرر كبير وأن من الواجب ضرورة وضعها فى مكان خـاص داخل خزائن مخصصة لذلك حين ينتفع النـاس من وجودها هنـاك وقد نقلت الـكتب المذكورة إلى المـكتبه الخديويه المشهورة فى سراى درب الجماميز وبعد القيام بهـذه المهمه كان المجـلس الخصوصى فى ذاك الحين (مجلس الوزراء الآن) مشتغلا فى جمـع اللوائح والقوانين وتعديلها وتنقيحها فعهدت الى المرحوم اللوائح والقوانين التركية فأخذ فى العمل حتى سنة ١٢٨٧

وفى سنة ١٢٨٨ ﻫ عين وكيلاالديوان المـكاتب الأهلية وكان رئيسها إذ ذاك المرحوم على باشا مبارك وفى سنة ١٢٩٤ عين صاحب الترجمة وكيلا لنظارة المعارف العمومية وأنعم عليه برتبة الميرميران الرفيعة ثم أسندت اليه ايضا مع بقائه فى وظيفة وكالة وزارة المعـارف وظيفة الـكتابة الأولى بمجلس النواب وفى سنة ١٢٩٩ عين ناظراً للوزارة وفى شهر رجب من تلك السنة أقيل من الخدمة كما أقيـل الوزراء

الآخرين مثله لأحوال اقتضتها الثورة العرابية المشهورة ولما انقضت الثورة المذكورة وأخذت الحكومة فى محاكمة أعضائها كان المرحوم صاحب الترجمة من ضمن هؤلاء الذين قبض عليهم وقد أظهرت المحكمة براءته الا أن الحكومة قطعت عنه المعاش الشهرى الذى كان يتقاضاه فشق عليه الأمر والتمس المثول بين يدى الجناب الخديوى فلم يجب الى طلبه فأخذ ينظم قصيدة يمدح فيها الجناب الخديوى ويظهر له براءة ساحته ويتظلم فيها مما لحقه من ايقاف صرف معاشه وها نحن نقتطف منها شيئاً لملاحتها قال .

كتابى توجه وجهة الساحة الكبرى
وكبر اذا وافيت واجتنب الكبرا
وقف خاضعاً واستوهب الاذن والتمس
قبولا وقبل سدة الباب لى عشرا
وبلغ لدى الباب الخديوى حاجة
لذى أمل يرجو له البشر والبشرا
لدى باب سمح الراحتين مؤمل
صفوح عن الذلات يلتمس المذرا

تنوء الجبال الراسيات لحلمه
اذا طاش ذو جهل لدى غيظه قهرا
يراقب رحمن السموات قلبه
فيرحم من في الارض رفقا بهم طرا
مليكى ومولاى العزيز وسيدى
ومن ارتجى آلاء معروفه العمرا
لئن كان أقوام على تقولوا
بأمر فقد جاؤوا بما زوروا نكرا
حلفت بما بين الحطيم وزمزم
وبالباب والميزان والكعبة الغرا
لما كان لى فى الشرّ باع ولا يد
ولا كنت من يبغى مدى عمره الشرا
ولكن محتوم المقادير قد جرى
بما الله فى أم الكتاب له أجرى
أتذكر يامولاى حين تقول لى
وأنى لأرجو أن ستنفعنى الذكرى

أراك تروم النفع للناس فطرة
لديك ولا ترجو لدى نسمة ضرا
فعفوا أبا العباس لازلت قادرا
علي الامر ان العفو من قادر أحرى
وحسبي ماقد مر من ضنك أشهر
تجرعت فيها الصبر أطعمه مرا
يعادل منها الشهر فى الطول حقبة
ويعدل منها اليوم فى طوله شهرا
أيجمل فى دين المروءة أننى
أكابد فى أيامك البؤس والعسرا

فلما عرضت هذه القصيدة على سموه أجلها وحلها المكانة التى تليق بها وسمح له بالمثول بين يديه فلما مثل بين يديه ألقى أمامه قصيدة أخرى جاء فى مطلعها

ألا أن شكر الصنع حق لمنعم
فشكر الآلاء الخديوى المعظم
مليك له فى الجود فخر ومفخر
على كل منهل من السحب مرهم

سأشكره النعماء ماعانقت يدى
يراعى أو استولى على منطقى فمى

فلماسمع سموه منه ذلك أمر باعادة صرف معاشه اليه
وفى سنة ١٣٠٢ سافر الى الحجاز ليؤدى فريضة الحج الشريف فقابله علماء مكة والمدينة وادبائها بالترحاب واحلوه بينهم المكانة التى تليق به وبشخصه وقد وضع مؤلفا عن ذلك بعنوان (الراحلة المكية) وفى السنة التالية توجه الى بيت المقدس والخليل لزيارتهما وقد عرج الى بيروت حيث مكث فيها شهرا واحدا ثم سافر الى بعلبك حيث زار آثارها وتفرج عليها ثم سافر منها بطريق لبنان الى بيروت وظل فيها شهرين كان موضع احترام الجميع واجلالهم طول هذه المدة ثم سافر من هناك الى مصر

وفى سنة ١٣٠٦ انتدبته الحكومة المصرية لرئاسة الوفد العلمى المصرى فى المؤتمر الدولى الذى انعقد فى مدينه استكهولم وكان نجل صاحب الترجمه عضواً من اعضاء هذا الوفد وقد نفح الجناب الخديوى صاحب الترجمه قبل سفره

من الاسكندرية بالنيشان المجيدى الثانى وقد مر فى أثناء سفره على تريستا من أعمال النمسا والبندقيـة وميلانو من أعمال إيطاليا ولوزان من أعمال سويسرا وباريس وقد أقام فيها أكثر من عشرين يوما شاهد فى أثنائها المدينة وضواحيها وآثارها ومعارضها فشاهد فيها عجائب الصنائع وغرائب الفنون وبديع الاتقان ودقيق العمل وقد سر بما رآه ثم برحها الى لندرة عاصمة البلاد الانجليزية ومنها الى نوتردام ولاهى وليدن وقد زار مكتبتها ومطبعتها الشهيرتين ثم سافر الى كوبنهاجن عاصمـة الدانيمارك ومنهـا الى حيث يجتمع المؤتمر الذى أرسل من أجـله وقد تعرف بالعلمـاء الذين اجتمعوا فى المؤتمر كما أنهم احترموه واجلوه لماله من المكانة العلمية السامية وقد أنعم عليه ملك السويد والنرويج أسكار الثانى نيشان (وازة) من الدرجة الأولى وفى أثناء عودته الى بلاده من المؤتمر مر على برلين عاصمة البلاد الالمانيه وفينا عاصمة البلاد النمساويه فلقى فيهما مالقيه فى غيرهما من الاحترام وكان فى أثناء عودته يعد العدة لتحرير ما لاقاه فى رحلته وما شاهده الا أنه فوجىء بمرض السكتة الذى اعتراه فى شهر

رجب سنة ١٣٠٧ فاضطر الى ابقائها حتى اذا ما شفى أتمها ولكنه المرض عاوده مرة أخرى بعد ظهر يوم الخميس الموافق ٧ ذى الحجة وهو عائد من أبعاديته بتلحوين فحال هذا المرض اتمامه تحرير هذه الرحلة وقد زاد المرض عليه فتوفى الى رحمة الله تعالى فى الساعة الثانية العربية من صباح يوم الاحد عاشر الشهر وهو اليوم الذى ينحر فيه المسلمين النحائر سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا وقد تفضل الخديوى فابرق الى آل الفقيد يواسيهم فى مصابهم ويشاركهم فى أحزانهم وهذا دليل على إخلاص الفقيد والتفافه حول عرشه.

كان الفقيد شاعرا مطبوعا وكاتبا عبقريا واستاذا بليغا تطور فى الشعر تطوراً بعيداً وذهب فى انشائه مذهب الشعر البصرى

أما رحلة الفقيد الى المؤتمر فقد عنى بنشرها نجله المرحوم امين باشا فكرى ضمن ارشاد الالبا الى محاسن أوربا وهو مجلد ضخم جدير بالمطالعة لما حواه من ذكر عوائد الناس فى البلاد الأخرى ومعتقداتهم بل ولما

حواه أيضا ونثر الفقيد مما لم ينشر الا فى هـذا الـكتاب وقد طبع بمصر سنة ١٨٩٢

أما مؤلفات الفقيد فكثيرة نخص بالذكر منها المقامة الفكرية فى المملكة الباطنة وقد طبعت هذه المقامة فى مصر مراراً عديدة وهذا برهان ساطع ومثال ناطق لما كان له من الباع الطويل خصوصاً فى الآداب والنظم ولا غرو وفاته كانت ضربة من الضربات القاضية على العلم فى مصر ورجاله

المختار من نثره

المقامة الفكرية

حدثني صاحب مبارك . ليس في فضله يشارك . قال كان ببعض الامصار . فيما مضى من الاعصار . رجل من التجار .ذو شرفٍ ونجار . قد رزق سعة الغنى . وجنى ثمرات المنى . وكان حسن المعامـلة . كثير المجامـلة . سليم الفؤاد . حلو الوداد . فطارصيته فى الأقطار . وصار فى جميع الامصار. فانفسح نطاق تجارته . واتسعت دائرة ادارته . ورزق بولد سرّته سيرته . وحسنت علانيته وسريرته . فكان له رفيقاً . وعلى أهله شفيقا

نعم الاله على العباد كثيرة وأجلهـن نجابة الأولاد

وعاش الرجل مدة على هذه الحال . رخى العيش ناعم البال . قرير العين بكثرة المال وبلوغ الآمال . حتى قارب مدى العمر حدّه . وقد بلغ إبنه المذكور أشده . فلما أظله يومه الموعود ، وأحس بانقضاء أمده المحدود . دعا بابنه فى

خلوة من الاغيار . وأوصاه يوما بالبررة الأخيار وقال فيما اودعه سمعه . وأراد به نفعه . يابنى إنى أرى الشمس آذنت بالأفول . وقد عزم الغريب على القفول واليوم قد أزف الرحيل . والبقاء فى هذه الدار مستحيل

كل ابن أنثى وان طالت سلامته
يوما على آلة حدباء محمول

وأنا مكاشفك بخبيئة فى الضمير . ومخبرك بأمر خطير ولا ينبئك مثل خبير . ان عندى كنزاً أدلك عليه . لترجع بعدى عند الحاجة اليه . فيكون لك ظهرا فى شدائد الأيام وظهيرا في مكايد الانام . فافتح لما أقول إقفل لبك واحفظه كسواد عينك وسويداء قلبك. وما ادت كنز مال مدفون. ولا نفيس جوهر مكنون. فان مالى لديك وتجارتى بين يديك . والعقار كما علمت . واليسار مثل ما فهمت والرزق متيسر . وامر التجارة غير متعسر . ولكن قصدت ماهو اعلى واغلى . واجدر بالرعاية والعناية واولى . وماهو إلا صاحب عرفته قديماً . وعكفت على وده مستديماً . قد هذبته الليالى بمرها : وجرعته كؤس حلوها ومرها، وكنت

جربته فى خيرها وشرها . وبلوته فى نفعها وضرها . وكررت اختباره مراراً . فزاد اختبارى اختياراً . وطول تجربتى منزلة عندى ومقدارا . وكان لى كما قيل

إن أخاك الحق من يسعى معك
ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك
شتت فيك شمله ليجمعك

وأنت ترى كثرة الأصحاب حولنا . وإكثارهم من الزيارة لنا . ولكن كل ألف لاتعد بواحد

واذا صفا لك من زمانك واحد
فهو المراد وعش بذاك الواحد

وهذا الرجل الذى ذكرت لايتردد كما يترددون ولا يبدى من ظاهر الحال . والتجمل بالمقال . مثل ما يبدون وأنا أزوره المرة والمرتين فى الأسبوع . والود فيما بيننا غير مقطوع ولا ممنوع . فانما الحب فى الصدور لا فى الثغور وفى شغاف الجنان . لا فى أطراف اللسان

وليس أخى من ودنى بلسانه
ولكن أخى من ودنى وهو غائب
ومن ماله مالى اذا كنت معدماً
ومالى له إن أعوزته النوائب

فهذاهو الكنز الذى قصدت . والحرز الذى أردت فاشدد على صحبته العرى . ولا تنبذ بمودته فى العرا . واتبع هذا القول بنصائح ارتضاها . وأمور أمضاها وكأنها حاجة كانت فى نفس يعقوب قضاها . ثم أنه ودعه. وودع الدنيا معه . نزل مع أعماله فى رمسه والحق حاضر يومه بغابر أمسه . فأقام إبنه مراسم المآتم . وقضى من مقضيات العادة الجارية اللازم . وأخذ فى إدارة التجارة كالأول وصار عليه المعول. وكأن الحال ما تحول. إلى أن اجتمع عليه جماعة من أنداده . وأظهروا التحقق بوداده . وتملكوا بحسن ملاطفتهم أزمة فؤاده . وكانوا أتبع له من ظلاله وأطوع من يمينه لشماله . وانكف عنه بالضروره أصحاب الوالد. الواحد بعد الواحد . حيث رأوه لهؤلاء الاقران أميل . ومكانتهم لديه أمثل .وامتزاجه معهم أجمل وأكمل

وأحاط به هؤلاء الجلساء. ولزموا بيته صباح مساء فلما خلا لهم الجو ولم يبق فى الصحبة ليت ولا لو. أخذوا يذكرون الشرب والحان. ويتذاكرون الطرب والألحان والمثالث والمثانى . والغوانى ولأغانى. والصاحب يقتدى بصاحبه .ويسرق من طباع مصاحبه

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدى

فحركوا من رغبته الساكن .وجروه لما يكون فيه ذلك من الأماكن :فجرى معهم في فنون المجنون . ومجال ابنة الزرجون . فمازال حتى قصر على هذه الشؤن ميله وحصر فيها نهاره وليله. فلا جرم اختلت تجارته . ونحلت ارادته .فمال على المال الموجود فى خزينة النقود فبسط الراح للانبساط والراح. يكيل بالقدح ولا يبالى بمن ذم او مدح حتى فنيت الصفراء والبيضاء واشتبه جوف صناديقها والفضاء. فوضع يده فى الجواهر واخائر الذخائر. يبيع ويضع ويصرف ويتلف ويلحق دنيها بفاخرها. حتى اتى على آخرها. ثم انثنى على العقار يبيعه. ويضيعه فى تحصيل

لذاته . ورضا لذاته وقضاء شهواته. ثم أتبعه المزارع والضياع فعم جميعها بالضياع . وتفرق عنه الأتباع والخدم. وكان باع الدواب فيما تقدم. فلم يبق عنده صاهل ولا ناهق. ولا صامت ولا ناطق. اللهم إلا دار واحدة وكان يسكنها مع الأهل والوالده. وكان حين أخذ فى انحطاط الحال. وأشرف على الاقلال. صارت جموع إخوانه. ورمز أخدانه وخلانه يتسللون قوماً بعد قوم. ويقلون يوماً بعد يوم.

الناس إخوان من دامت له نعم
والويل للمرء إن زلت به القدمُ

ومازالوا كذلك حتى ذهب آخرهم مع آخر المال ولم يبق فى صحبته غير الهم والغم والملال. وسوى الندم والسدم والبلبال. فضاقت الدنيا فى عينه. وتمنى قرب حينه. فجلس إلى أمه حزيناً باكياً . ساخطاً على دهره شاكياً

نادماً سادماً يعضُ يديه حسرة واستكانة ومهانة

وقال ياأماه قد بلغت الفاقة غايتها وتجاوزت الشدة نهايتها . ولم يبق عندنا مايمسك الرمق . ويطفئ هذه الحرق

فهل ترين أن نبيع هذه الدار كباقى البيوت ونصرف من
ثمنها على القوت . ونتجر فى بعضه على بركة الحى الذى
لايموت . فقالت يابنى إذا بعت مأوانا . فأين يكون مثوانا .
وقد ربينا فى العزّ والسعادة . ولم تسبق لنا بالخروج فى الأزقة
عادة . على أنها موقوفة من الأجداد . على الأهل والأولاد
والأحفاد . ولكن أين أنت من صديق الوالد . الذى
فضله على الطريف والتالد . وأخبرك عند مماته . فى الاخير
من أنفاس حياته . إنه صديق حميم وكنز عظيم . فامض
يابنى لداره . واستضئ فى ليل هذه الشدة بأنواره . فعسى
أن يساعدك بثرائه . أو يسعدك بآرائه . فليست وصية
الوالد سدى . طال عليها المدى . فقال لعن الله النسيان .
لقد كنت أنسيته منذ أزمان . ولقد أشرت بالرأى السعيد .
وقربت من الخير كل بعيد . وهذا هو الوقت الذى يدخر
مثله لامثاله . ويحتاج فيه الى فضله وأفضاله . وقد ضاقت
النفوس . ولا مخبا لعطر بعد عروس . ثم قطع حبل المقال .
ونهض كانما نشط من عقال . ومضى يحدث نفسه ببلوغ
الآمال . ويستبشر بخير الحال والمآل . ويقول جزى الله

الولداة خيراً وفياً . . فقد أذكرتنى خلاً وفياً . ويرحم الله الوالد فانه كان بى حفياً

سأبلغ أسباب العلا باجتهاده
فليس مقال الوالدين يضيع

ويقول فى نفسه الآن أقول له وأقول . وأبلغ بفضله وحسن همته المأمول . فليس بينى وبين المنى إلا رؤية محياه . حياه الله تعالى وبياه . وهلم جرا من هذه الأمانى . وما تتحدث به نفس العانى من المعانى

إذا ما خلا العانى الضعيف بنفسه
أتته الأمانى من جميع الجوانب

وكان قد زاره مرات . فى أثناء الحظوظ والمسرات رعاية لأبيه . لا لرغبة فيه . وذاك حين كان فى غمرة لعبه . وسكرة لهوه وطربه . فكان كلما رآه يجله . ويعلو عنده محله . ويلقاه بصدر رحيب . ويقابله ببشر وترحيب . فلما ضربه الدهر بمخالبه . وعضه بأنياب نوائبه . قصده كما مرّ يجتلى أنواره . ويجتنى من روض فضله الوارف الظلال أنواره . ويشكو اليه من القله . ويستجير به من الذلة . وهو واثق بالنجاح . جازم بالفلاح

مستيقن بان صباح اليسر من ليل العسر قد لاح . فوصل إلى داره . في حالة رديئة . وهيئة مسيئة . يكاد يرثى لها الحسود. وتصفو لها القلوب السود . وكان يجيء في تجمل وجمال . وأبهة وكمال . بين أنصار وأشياع . وخدم وأتباع. والحاصل أنه تقدم البدار . ودخل الدار . وخدامها عنه منقبضون . مغضون وممرضون . لم يخاطبه أحد ببنت شفه . وكأنهم ليس لهم به معرفه

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها
فكلما انقلبت يوماً به انقلبوا
يعظمون أخا الدنيا فان وثبت
يوماً عليه بما لايشتهي وثبوا

تخجل من أوضاعهم . وسخط من طباعهم . إلا إنه قال هؤلاء قوم لئام . ليس على أمثالهم ملام . والآن يعلم رب المنزل . فيبادر وينزل . ولابدّ أنه يؤدبهم . والغالب أنه يضربهم . ووقف ينتظر من إقباله . واستقباله سالف عوائده . ويترقب تحقيق ما كان وعاه من قول والده . فما كان إلا أن أخرج الرجل رأسه من شباك قصيّ . وأرسل اليه على لسان غلام

خصىّ . يقول أنا غير منبسط للكلام . باذهب بسلام . فلما سمع الفتى ما سمع . كاد فؤاده ينخلع . حتى تخيل أن الارض ابتلعته . أو الريح اقتلعته . أو السماء انطبقت عليه . أو النجوم انتثرت حواليه . فان النقمة من محل النعمة أضر . والصبر من حيث يرجى الشهد أمرّ

واذا الشرُّ جاء من حيث يرجى

كل خير فذاك شر البلاء

والفتى وإن مسه الضر . وأصابه الفقر المرّ . الا أنه ابن نعمة وخير . تأبى نفسه الضير فكاد أن يسقط على الأرض صعقاً . وينشق صدره حنقاً وقلقاً . إلا أنه تماسك تماسكُ ذوى الألباب . وأسرع بالخروج يبتدر الباب سار ودموعه تسبقه . وزفراته تكاد تحرقه . وهو يقول تباً لهذا الغادر . فانه ألام من مادر . أهذا الذى كنت أرجوه . الاشاهت وترب فوه . فقد كذب واصفوه

ياليتنى قبل مت جوعاً

ولم أؤمل ندى لئيم

فالموت في نعمة وعز
خير من الذل للكريم

وليت رجلا حملتنى له قطعت . وعبثاً هدتنى سبيله قلمت
ياليتنى مت قبل هـذا أوليتنى لم أكن خلقت

ورجع تضطرم نيران فؤاده . وتغلى مراجل أحقاده. فقص على الوالدة ماجرى من الرجل وخدمه . وما كان من خيبة سعيه وندمه . فسلته ببعض الكلام . وحكايات ماجرى على الكرام . وقالت يابنى

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه
وليس عليه أن يساعده الدهر

فلا تجزع من تقلب الدهور . وعجائب المقدور . واصبر على ما أصابك فأنت بالصبر مأمور . ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور

دع المقادير تجرى فى أعنتها
ولا تبيتن الا خالى البالى
ما بين غفوة عين وانتباهتها
يقلب الله من حال الى حال

وما أحسن ما قيل

فاصطبر وانتظر بلوغ الأمانى

فالرزايا إذا توالت تولت

وإذا وهنت قواك وجلت

كشفت عنك جملة وتجلت

***

وعاقبة الصبر الجميل جميلة

وأحسن أخلاق الرجال التصبر

ثم قالت قم فبع لنا الآن هذه الأثواب. وانتظر اللطف من مسبب الأسباب ففيض من عبراته. وخفض من زفراته. ونهض فباع الثياب. وصار يصرف من أثمانها بالحساب. وفى خلال ذلك أقبلت عجوز تسأل عن داره. وتستقصى من الجيران عن أخباره ثم. دخلت على والدته فسلمت واستغفرت لوالده المرحوم وترحمت. وقالت حضرت من الغرب منذ أيام. وكنت حضرت مرات قبل أعوام. وأحضرت بعض حلى بعتة على يد المرحوم. وأخذت ما يسر الله من الربح المقسوم. والآن جئت لمثل ذلك الأمر. ومعى

من نفيس الياقوت والماس والدر . وفى إبن المرحوم إن
شاء الله الخير . وهو علي كل حال أحق وأولى من الغير .
فمودة الآباء . تنتقل للأبناء . وقصدى حج البيت المحرم.
وزيارة قبر النبي المكرم . صلى الله عليه وسلم

واذا المطى بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام

وأريد أن أجاور فى الحرم المطهر . وأعود انشاءالله
بعد عام أو أكثر .وسأترك ما معى ليباع.إلى أن أعود من
تلك البقاع . فحضر الفتى فكلمها وأكرمها . وأمنها بايمان
أكدها وأبرمها. فسلمته قدراً صالحا من الاحجار الغاليه.
وقومتها بأثمان مناسبة غير غاليه . لينتفع بما يقسم من الربح
المقدر . ويحافظ لها على أصل الثمن المقرر .وكتب بها وثيقة
بالاستلام. ثم ودعته وانصرفت بسلام. فعمد الفتى إلى دكان
فاكتراها.وإلى بعض ملابس يسيرة فاشتراها.وجلس فى دكانه
يبيع.حتى أتى على الجميع . فعزل أصل الثمن جانباً .وكان للخيانة
مجانباً.وصار يتجر فى الربح المباح ،وفتح عليه الكريم الفتاح
وكان فى البيع والشراء حازما.وللصدق والأمانة ملازماً .فأتمنته
التجار على نفائس الاموال ،وانتظمت له الامور واستقامت

الأحوال . وفتح الله له أبواب الاكتساب . والله يرزق من يشاء بغير حساب . فلم يمض عليه نحو سنة . إلا وقد صار فى حالة حسنة . وهيئة مستحسنة. وكأنما كانت الشدة غفوةٌ أو سنة

اذا تضايق أمرُ فانتظر فرجاً
فأضيق الأمر أدناه إلى الفرج

ومازال على هذه الحال حتى استحال فساد أحواله صلاحاً . وعادت خيبة آماله فلاحاً . فصار يشترى كل ما أمكنه . مما كان باعه من الامكنة . ويسترد بعض ما أضاع، من القرى والضياع؛ والانعام والدواب، والادوات والأثواب ، وتأخر حضور العجوز جملة أعوام ؛ وهو يدعو لها بالخير والسلامة على الدوام ، ويرى أن طلعتها كانت له طالع سعود ، وينتظرها السنة بعد السنة أن تعود ، ولا يعلم لها من خبر يؤثر ؛ ولا يرى لها من عين ولا أثر ، ثم أنه لما حسنت حاله ، وفارقه أمحاله ، وزالت نقمته ؛ وزادت نعمته ، ونسى الغمه ، واذكر بعد أمه ، تذكر ما كان من أمر الرجل الذى ساءه ، وحشى بالغيظ والحقد أحشاؤه ،

فالتهبت نار غيظه الكامن ؛ وبدت آثار غضبة من المكامن ، وقال لا بد أن أقصده ، وأعرف مقصده ، وأعنفه على ما حصل ، وأعرفه بما وصل ، من لطف الله واتصل ، وأشفى النفس من ذلك القهر ، ثم لا أعود اليه مدى الدهر ، فلبس أفخر أثوابه ، وركب أحسن دوابه ، ومضى له على غلوائه ؛ فى زينته وروائه ، فقام له الخدم تبجيلاً ، وبادروا يديه تقبيلا

اذا كنت ذا ثروة فى الورى فأنت المعظم فى العالم
وحسبك من نسب صورة تخبر أنك من آدم

وقابله الرجل بقبول وإقبال ، واستقبله بالترحيب أحسن استقبال ، والفتى عابس المحيا ، وما سلم ولا حيا ، بل قال تعلم أنى ماجئت لسلام ولا كلام ، ولا قصدتك الآن لرغبة فى مرام ، ولكن لأذكرك بسوء صنيعك معى ، حين خاب فيك رجائى ومطمعى ؛ حيث قلت ما قلت ، وفعلت فعلتك التى فعلت ، ألم تر قول النبى المرسل ، أكرموا عزيز قوم ذل ، ولم تحفظ ما رواه عبد الله بن عباس ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الناس أنفعهم للناس ،

أو لم يرد لك يوما على خاطر ؛ إنه ما عند الله بشئ أفضل من جبر الخواطر ، أو لم تسمع قول الشاعر :

لا تقطعن يد الاحسان عن أحد
ما دمت تقدر والأيام تارات
واشكر فضيلة صنع الله إذ جعلت
إليك لا لك عند الناس حاجات

وهلا رددتني الرد الجميل ، إذا لم تكن موضعاً لتأميل

قال الرجل : مهلا يابنى مهلا ، وأهلا بعتابك . وسهلا

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الأجسام بالعلل

قال الفتى ليس هذا عتاب المحبة ، ولا استبقاء الصحبة ، ولكنه اللوم ، ولا اجتماع بعد اليوم ، وما ينفع العتب على الجفا ، إذا لم يكن في أصل الطبيعة وفا ، ويرحم الله من يقول :

إذا أنا عاتبت الملول فانما
أخط بأقلامى على الماء أحرفا

* * *

واذاما القلوب لم تضمر الود فلن يعطف العتاب القلوبا

قال الرجل يابنى الصلح خير ، ولا ضر فى العفو ولا ضير ؛

من ذا الذى ما ساء قط   ومن له الحسنى فقط

وأى جواد لايكبو   وأى صارم لاينبو

ومن يبغ الصديق بغير عيب

سيبقى الدهر ليس له صديق

فانشد الفتى

جربت دهرى وأهليه فما تركت

لى التجارب فى ود امرئ عرضاً

وقال لله در أبى العتاهية حيث قال، وما أوفقه لصورة الحال،

أنت ما استغنيت عن صا   حبك الدهر أخوه

فاذا احتجت اليه   ساعة مجك فوه

لو رأى الناس نبياً   سائلا ما وصلوه

وأى نفع لصديق لايصدق فيه رجائى ، وصاحب لايصحبنى فى شدتى ورخائى

اذا لم تكن إن أدبر الدهر صاحبى

فكل الورى أن اقبل الدهر أصحابى

فقال الرجل يابنى لاتؤلم بهذا القول مسمعى، وراع

طول صحبة الوالد معى . فطالما اتفقنا فى الأخاء . وتقلبنا فى حالتى شدة ورخاء

اذا لم تجدنى للمودة موضعاً

فراع وداداً من أبيك تقدما

فقال الفتى وهل غرنى بك وضرنى من جانبك . إلاما كان حكاه لى أبى من مناقبك . حتى حسبت الجمر تمراً . وظننت التراب تبراً . فاوردتنى شر الموارد . وعاملتنى بذلك الموضع البارد

وكنت كالمتمنى إن يرى فرجا

مع الصباح فلما أن رآه عمى

فلا أحب أن تنظر عيناى لعينك . هذا فراق بينى بينك . فقال الرجل سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً . وأكاشفك بما لم تعرف له خبراً ولا خبراً . إن عندى لك خبيئة فاعلمها . وأمانه قم فتسلمها . فظن الفتى أنها خبيئة نقود من مال الوالد أو الجدود . فقام معه . وسار وتبعه . فانتهيا لحجرة فى الدار . فيها أمرأة فى خمار . فاستقبلته حين أقبل بالسلام وتأمل الفتى جرس صوتها فى الكلام . فاذا هى العجوز

المهوده صاحبه الجواهر المعدودة . فوقف باهتاً متحيراً ساكتا وقال الرجل خذ أمانتك أيها الأمين . وأعطاه الوثيقة التى كان كتبها بخط اليمين . وأشهد فيها علي نفسه باستلام ذلك الحلى الثمين . وقال هذه المرأة أم عيالى . وتلك الجواهر التى أعطتك من مالى . وما كان ما رأيته من سوء المعاملة التى ذكرتها . وردى لك بالصورة التى أنكرتها . إلا لاقامة أودك . وارادة رشدك . فانى لما رأيتك فى ثوب رث . وفى حال غث . علمت انك أتلفت التليد والطارف . وخالفت الذى علمك الوالد من المعارف . فايقنت ان نصحك وقتها لا يفيد . وإن كل ما اعطيتك بالسهولة ببيد . فانك ربما تضيعه كالذى كان لديك . ولا يبقى منه آخر الأمر شئ فى يديك . فأردت بتلك المعاملة تقويم طبعك . وراعيت من بعد ذلك تتميم نفعك . ففعلت ما فعلت وارسلت لك مع هذه المرأة ما أرسلت . فهذه حقيقة ما صار . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار . فأكب الفتى علي يده يقبلها ويلثمها . واقبل على المرأة يدعو لها ويعظمها . وقال للرجل والله لقد اجملت فأجزلت . او اكرمت فأتممت . وصيرتنى لك عبداً

رفيقاً . ولا أقول صاحباً وصديقاً. ولقد صدقت فراسة أبى فيك . ولست أقدر على أنى أكافيك . وهذا ثمن الحلى عندى في السكمين. وأناعليه إلى الآن حافظ أمين. فهلم فاستلم مالك . بلغك الله آمالك . بل جميع ما فى يدى ملكك أن أردت

ولا أشكرنك ما حييت فان أمت
فليشكرنك فى التراب عظامى

ولست أصلح فأقول لك اتخذنى ولداً . فاتخذنى خادما عندك وعبداً . ولئن أحيانى الله بعد هذا عمراً . فستجدنى صابراً ولا أعصى لك أمراً . فقال الرجل سأتخذك إبناً وولداً. وان لم أصلح فمخدوما وسيداً . فقال كيف لا نصلح لذلك . وأنت السيد المالك . ولم يكن للرجل أولاده فتبناه. وشاركه بعد ذلك فى غناه ومناه . وأقاما فى غبطة وسرور . وحبور وحضور . حتى بلغ العمر حد النهاية . وكل شئ ينتهى لغاية



فيلسوف الشرق السيد جمال الدين الافغانى

جزء الثانى صحيفة ٣٤

٢

المرحوم
السيد جمال الدين الافغانى

تمهيد

الفلاسفة فى عظماء العالم وكواكب الأرض وشموس الحياة. الفلاسفة هم أولئك الذين يضيئون المعمورة وهم الذين يرشدوننا إلى طرق الصلاح والفلاح. الفلاسفة قوم يخرجون من بنات أفكارهم من العلوم مالا تقدر بأثمان وما نسميها (أزهار الاذهان) الفلاسفة هم أنبياء وقتهم ورسل دهرهم وأفصح بنى وطنهم وأبلغ رجال بلادهم. وأعلم الناس فى حينهم

ومن هؤلاء كان فقيد الشرق وبطل الفلاسفة والعلماء المرحوم (السيد جمال الدين الحسينى الافغانى) رئيس النهضة العلمية المصرية ومعلم المرحوم الامام الشيخ محمد عبده

المرحوم كسقراط والشيخ محمد عبده كأفلاطون وسعد باشا زغلول كأرسطو بمعنى أن المرحوم جمال الدين كان معلم الشيخ محمد عبده كما كان سقراط معلم أفلاطون

والشيخ محمد عبده كان معلم سعد باشا كما كان أفلاطون معلم أرسطو

وزيادة على ذلك فان السيد جمال الدين الافغانى لم يؤلف كتابا فى الفلسفة وليس هو وحده الذى أتى ذلك بل أن سقراط نفسه لم يؤلف شيئا إلا أن تلامذته نقلوا فلسفته بعد أن حفظوها.

ولد رحمه الله سنة ١٨٣٩م وهو السيد محمد جمال الدين ابن السيد صفتر ويتصل نسبه بالسيد على الترمذى المحدث المشهور ويرتقى إلى الامام الحسين بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه وكان مولده بقرية أسعد أباد من قرى كنز من أعمال كابل ببلاد الأفغان وكانت لعائلة المرحوم منزلة عالية لدى الأفغانيين ومرتبة سامية ودرجة رفيعة وما ذلك إلا لأنهم يتصلون بالنبي عليه الصلاة والسلام، وكانوا يملكون جزءاً من أراضى الأفغان ولكن دوست محمد خان جد الامير عبد الرحمن إستولي على هذه الاراضى قوة واقتداراً وأمر بأن ينقل والد جمال الدين وبعض أخوات أبيه إلى مدينة كابل وكان صاحب الترجمة وقتئذ فى الثامنة

من عمره . ولما ترك أبوه الاراضى التى كان يمتلكها وأتى إلى كابل عنى بتربيته وتثقيف ذهنه بالعلوم وطرقه دار النور تاركا وراء ظهره الجهل والظلام فتلقى مبادئ العلوم العربية من قراءة وكتابه ومطالعة وبعد أن تمكن من إجادة ذلك بدأ يتعلم العلوم العالية . كالتاريخ وعلوم الشريعة الاسلامية بمحتوياتها من حديث وتفسير وأصول وفقه وتصوف الخ والعلوم العقلية من حكمة سياسية ومنزلية وتهذيبية ونظرية طبيعية وإلهية . والمنطق والعلوم الرياضية من جبر وحساب وهندسة وهيئة ونظريات الطب والتشريح وقد ألم بهذه العلوم وهو فى الثامنة عشر من عمره . كان فى هذه الاثناء مثال النجابة والفطنة والنباهة والذكاء وكفى دليلاً على ذلك أنه تعلم كل هذه العلوم فى وقت قصير لا يكفى لتعلمها

طلب إليه البعض أن يسافر الى بلاد الهند فأجابهم الى طلبهم ومكث فيها عاماً ونيف كان فى أثناء هذا العام يطلع على بعض العلوم الراضية على الطريقة الافرنجية الحديثة حتى إذا ما أخذ كفايته منها سافر إلى الأقطار الحجازية لكى يؤدى فريضة الحج وليعرف أيضاً عادات

ساكنى هذه الاقطار وليختبر علومهم وقد قضى عاماً ينتقل فيه من جهة الى أخرى ومن قرية الى قرية ومن مكان الى مكان حتى وصل الى مكة المكرمة وكان وصوله فى عام ١٥٧٨ م الموافق عام ١٢٧٣ ﻫ وقد تمكن أثناء سياحته أن يقف على عادات كثير من الامم وأخلاقهم وعلى كل شىء لديهم وبعد أن أدى فريضة الحج عاد الى بلاده فعين فى حكومتها فى عهد الامير دوست محمد خان الذى سلب أملاكهم ولما أراد هذا الامير أن يسير بجيشه ليفتح هراة سار معه جمال الدين وصار ملازماً له طول مدة الحصار والحرب حتى توفى الامير فى هذه المدة وفتحت المدينة بعد كل جهد وعناء وبعد ذلك تولى عليها ولى العهد سير على خان سنة ١٨٦٤ وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان بأن يلقى القبض على إخوته لأنهم ينشرون فى الناس دعوة معاهدات ولى العهد والمؤامرة ضده وإن فى عدم إلقاء القبض عليهم مضار كثيرة للمملكة وملكها فأصدر الامير أمره بالقبض عليهم وكان للامير ثلاثة أخوة فى الجيش الذى فتح هراة وهم الامير محمد أعظم ومحمد أسلم ومحمد أمين وقد انتصر

جمال الدين للامير محمد أعظم . فلما علم هؤلاء الامراء بذلك أسرعوا الى الفرار وتفرقوا في الولايات وذهب كل منهم الى الولاية متى كان مخصصاً اياها له أبوه فقامت الفتنة والثورة واشتعلت نيران الحروب الداخلية وبعد وقائع عديدة عظم أمر الامير محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن وتغلبا على عاصمة المملكة وأنقذوا والد عبد الرحمن الامير محمداً فضل الذى سبق ذكره وكان مسجونا فى سجن قزنه وجعلاه أميراً على أفغانستان ولكنه لم يلبث أن ذهب الى دار الآخرة بعد عام من توليته فتولى الامارة بدلا عنه الامير محمد أعظم خان شقيقه فعظم أمر الامير واحتد نفوذه وارتفعت منزلة صاحب الترجمة لديه فجعله فى مكانة وزيره الاول وكان يستشيره فى كل صغيرة وكبيرة ولا يأتى عملا دون أن يكون هذا رأى جمال الدين ولكن لم تلبث الحال أن انقلبت فان أحد أبناء الامير اغار بجيشه الى عمه طمعاً فى الحصول على إمارته والتحبب لدى والده اكثر من اخويه ولكنه غلب وانكسر واسر فقام الامير والده لمحاربته (اى محاربة جيش اخيه) فكانت الهزيمة ملازمة له فأسرع الامير بمغادرة هذه البلاد الى ايران

وهناك لم يكد يستقر علي مكوثه عدة أشهر حتى توفى الى رحمة الله فى مدينة نيسابور

أما جمال الدين فظل باقياً فى مدينة كابل لم يمسه فيها شيء وماذلك الا لخوف الامير اذا أمسسه أن تتجمهر الرعية عليه احتراما لبيت جمال الدين واتصاله بالنبي عليه الصلاة والسلام الا أن هذا لم يمنع الامير من أن يغدر به سراً لاجهراً ولما أحس جمال الدين بذلك أسرع الى مغادرة هذه البلاد بأن استأذن الامير فى السفر الى الحج فأمره الامير أن لا يمر ببلاد ايران خوفا من أن يلتقى هناك بالامير محمد أعظم الذى كان لايزال حيا وأمره ان يرحل من ناحية البلاد الهنديه وكان ذاك عام ١٨٦٩ أى بعد هزيمة الامير محمداعظم بثلاثة شهور فأجابه جمال الدين الى طلبه ولماوصل الى التخوم الهندية قابلته حكومة بلاد الهند والشعب بالحفاوة والاجلال وأنزلوه المكانة اللائقة به بينهم الا أن الحكومه لم تسمح للعلماء بالاجتماع به ولا بطول اقامته فلم يمكث فيها الا شهراً ثم ركب احدى البواخر قاصداً الديار المصرية فوصل الى السويس ومنها جاء الى مصر حيث قضى فيها ٤٠ يوما تردد

فيها على زيادة الجامع الازهر الشريف ومخالطة طلبته وقد تمكنوا من أن يستفيدوا من علمه مدة وجوده بين ظهرانيهم ثم عزم على السفر الى الاستانة وتحول عن السفر الى الاقطار الحجازية

وصل الى الاستانة العلية وبعد عدة أيام قليلة من وصوله قابل الصدر الاعظم وكان يدعى عالى باشا فأنزله الصدر الاعظم أكبر منزلة وأظهر له من الحفاوة والاحترام مايليق بقدره ومقامه ومع كل ذلك كان الفقيد يرى وهو مرتديا الثياب الافغانية شعار بلاده ومسقط رأسه ووطنه

وهذا الزى عبارة عن القباء والكساء والعمامة . ولم يلبث بعد مجيئه أن علت مكانته وارتفعت ولهج الجميع بذكره وذكر نبوغه وتفوقه في العلوم والفنون حتى كان موضع حديث الامراء ومحور مسامرة الوزراء والكبراء والعظماء مع أنه غريب عنهم ويتكلم لغة غير لغتهم ووطنه غير وطنهم وملبسه غير ملبسهم وعاداته ليست كعاداتهم الا أن النبوغ لاجنسية له . ولو افتخر اليونانيون بسقراط فأولى بنا أن نفتخر بجمال الدين . جمال الدين هو ذلك العالم

الذى رحل عن هـذه الحياة بعد ان ترك لنـا تلميـذاً من تلامذته هو المرحوم محمـد عبده الذى جعلنـاه فيلسوف مصر المسلم

ولنعد الآن الى حياة الفقيد فانه بعد ستة أشهر من وصوله الى الاستانة عين عضواً فى مجلس المعارف فأدى للاستانة بل لتركيا خدمات جليلة عظيمة واقترح طريقة لتعميم العلوم فخالفه فى الموافقة على ذلك شيخ الاسلام وفي سنة ١٨٧١ طلب اليه مدير دار الفنون أن يلقى خطبة حيال إنتشار الفنون ولـكنه اعتذر عن ذلك بأنه لايجيد التركية فألح عليه المدير فلم يمانع وأسرع بكتابة الخطبة التى سيلقيها وعرضها على نخبة من اعاظم الاتراك فاستحسنوا وهكذا ما كاد يأتى يوم هذه الخطبة حتى توافد جميع العظماء لسماع خطبته وما كاد الوقت يزف حتى اعتلى جمال الدين منصة الخطابة وألقى خطبته ببلاغة سحرت القلوب وفتنت الفتية والشيوخ فنال الاستحسان وعلا مركزه بين جميع هؤلاء

ولـكن بعض المشايخ أنكروا شيئاً من أرائه واتصل الامر بشيخ الاسلام الذى طلب من الحـكومة أن تبعده

فصدر له الامر بالابتعاد بضعة اشهر حتى تخمد نار الفتنة وتهدأ الخواطر وله ان يعود متى شاء فتركها واشار اليه بعض اصدقائه أن يأتى الى مصر فجاءها فى ٢٢ مارس سنة ١٨٧١

لم يكن رحمه الله يقصد من مجيئه الى مصر الاشتغال فيها وانما كان جل قصده التفرج على ما يراه من مناظرها ومظاهرها ولم يكن يفكر فى الاقامة بها الا مدة قليلة ولكنه لما لقى المرحوم رياض باشا استماله اليه وجعلت له الحكومة مرتباً شهريا يتناوله بدون نظير وكان قدر هذا المرتب ألف قرش صاغ ونزلا خاصا لافى مقابلة عمل أو خدمة وقد تمكن بعض الطلبة المصريين من التعرف به فوجدوا فيه أدباً جماً وأخلاقا عالية وكان يرحب بزائريه على اختلاف طبقاتهم ولا يتكلم الا باللغة العربية الفصحى ولكنه اذا رأى من جليسه عدم مقدرته على معرفة ما يقول خاطبه بلغة عربية بسيطة العبارة واذا وجده رجلا لا يعرف سوى العامية تنازع نخاطبه بها وكان لا يخاطب زائريه الا فيما يعود عليهم بالنفع واذا ما أراد زائره الانصراف خرج معه ليوصله بمثل ماقابله به من الحفاوة واذا خاطب الناس خاطب

كلا فى الموضوع الذى يهمه فلا يدع فرصة تمر دون أن يلقى على المسامع عظة وعبرة لأولى الالباب وكان لا يأكل كثيراً الا أنه كان يستعيض عن كثرة الأكل بتناول الشاى ولا يدخن الا نوعاً جيداً من لفافات التبغ الافرنجية أو لا يأمن لاحد هذه اللفافات خوفاً من أن يأتى له بغير طلبه فكان يشتريها بنفسه وكان حر الضمير عفوف النفس عزيزها صادق اللهجة وديعا مع أنفة وعظمة ثابت الجأش قوى العزيمة قد يؤتى به الى حيث القتل فلا يخاف. كان شجاعاً قوياً لا يغتر بالحياة ومتاعها ولا يخاف عاقبة الحاجة فلا يدخر مالا ولا يخاف عوزاً حتى قيل عنه أنه لما أبعد عن مصر كان لا يملك شروى نقير خاوى الوفاض بادى الانقاض ذهب اليه قنصل دولة إيران ونفر من كبار تجار العجم ليقدموا له بعضا من النقود ليستعين بها عند الحاجة فاعادها لهم شاكراً حسن معروفهم قائلا لهم (احفظوا المال فأنتم اليه أحوج أن الليث لا يعدم فريسة حيثما ذهب) : كان عادل الطبع لين العريكة يصبر على المصائب بقدر طاقته يلاقى الصعب بصدره الرحب لا يخاف باس انسان ولا يمد يده الى مخلوق واذا

خاطب انسانا حثه على الجد والعمل حتى اذا رأى من المخاطب أذنا صاغية تركه وهو عالم أنه سيجد ويجتهد كان ذكياً نجيباً فطنا عاقلا مؤدبا مهذبا حسن الخلق قوى الملاحظة سريع الادراك حتى انه كان يعرف ماتخفيه الصدور وماتحجبه الضمائر وماتكنه القلوب وقد تعلم اللغة الفرنسية حتى انه كان يترجم منها إلى العربية ترجمة صحيحة خالية من الغلطات والشوائب فى ثلاثة شهور بلا معلم الامن علم البادئ والحروف وكان لايفوته كتاب فى آدب الامم وفلسفتها واحوالها الا واطلع عليه وكانت اكثر قراءته للكتب العربية والفارسية وكان يجيد من اللغات العربية والافغانية والتركية والفاريسية والروسية والفرنساوية والانجليزية وكل ما كانت تصبوا اليه نفسه هو أن يوحد كلمة الاسلام ويجمع شتات المسلمين ويجعلهم كلهم مملكة واحدة يأتمرون وينتهون بأمر واحد وقد بذل فى هذا السبيل كل مرتخص وثمين فلم يتخذ له ولم يلتمس له كسبا حتى توفى دون أن يتمم أعماله

كان اسمر اللون ممتلىء البنية اسود العينين نافظ جذاب النظر الا انه كان يقرأ كتابا الا وادناه من عينيه ولكنه

لم يستعمل النظارات قط خفيف العارضين ذو شعر مسترسل كالرسل والانبياء يرتدى جبه تنطبق على الكاحلين وعمامة بيضاء صغيرة على زى علماء الاستانة

ولما جاء الى مصر وتعرفت به الطلبة ذاع صيته وظهر هلال شهرته وبدأ يضى على العالم بعلمه وقد وجه عنايته فى باده الامر الى محو الاوهام من عقول بنى الانسان وحمل تلامذته على الكتابة والانشاء فى الفصول الحكمية والادبية والعلميه والدينية فأجابوا سمعا وطاعة وكان فن الكتابة فى مصر من الفنون المندثرة فأحياه بحسن تدبيره وسعيه وقوة ذاكرته وكانت مدرسته هى داره فكان يعلم فيها تلامذته

وكان رحمه الله ميالا الى السياسة فخاض غمارها وكان يعلم ان مصر فى حاجة الى اناس يعلمون لمحو التداخل الاجنبي وانه لابد من تغير احوالها فانتظم فى سلك الجمعيه الماسونية وظل بها حتي صار رئيسا لها فأنشأ محفلا وطنيا تابعا للشرق الفرنسوى دعى اليه مريديه ومحبيه من العلماء والكبراء والوجهاء حتى صار عدد اعضائه مايقرب من ثلثمائه عضو

وكان شديد الكره للدولة الانكليزيه يبغضها كل البغض ويحقد عليها كل الحقد فجاهر بعدوانه لهم وحقده عليهم حتى ترجمت فصول كان قد نشرها ونشرت فى الصحف الانكليزية وقد تولى الرد عليه اللوردغلادستون فلما عظم أمر محفله داخل الانكليز الخوف ووقع فى قلوبهم الرعب فبادر قنصل انجلترا إلى بث دعوة الدسائس فى هذا المحفل ووشى به إلى الحكومة واشتدالجدال بينه وبين غلادستون والانجليز حتى بلغت مصر نهاية الارتباك وقد صرح المرحوم بأشياء قوت الساعين ضد الانجلير حتى تولى مصر المرحوم توفيق باشا فاصدر أمره بابعاده عن هذا القطر السعيد هو وتابعه أبو تراب فخرج منها موليا وجهه شطر البلاد الهندية وكان ذلك عام ١٢٩٦ ه أى سنة ١٨٧٩ م وأقام في بلدة تسمى حيدر آباد الدكن وهناك كتب رسالة عن (نفى مذهب الدهريين) ولما بدأت الحوادث العرابية المشهورة فى مصر طلب اليه الحضور من حيدر آباد الدكن والزمته الحكومة الهندية بالاقامة فى كلكتا وظل فيها حتى انتهت الحركة العرابية فابيح له الذهاب الى أى بلدة يختارها

فرغب الاقامة فى أوربا وكانت أول البلدان التى نزلت بها الندرة عاصمة المملكة البريطانية وقد أقام بها أياماً قلائل ثم لم يلبث ان سافر الى باريس حيث وافاه فيها تلميذه وصديقه المرحوم الامام الشيخ محمد عبده وكان فى مصر وقتئذ جمعية تسمى (العروة الوثقى) فطلبت اليه ان ينشئ جريدة تدعو كلمة المسلمين وتنفيذ برنامجه فأصدر جريدة (العروة الوثقى) واسند الى الاستاذ المرحوم رئاسة تحريرها فذاعت وراجت وانتشرت انتشارا عظيما ولكن حالت الموانع دون نشرها وكان قد صدر منها ثمانية عشرة عدداً حيث اقفلت أبواب الهند فى وجهها وشددت الحكومة الانجليزية في مراقبتها ومعاقبة من يقرأها.

قضى المرحوم صاحب الترجمة في باريس ثلاثة أعوام نشر فى أثنائها فى جرائدها مقالات تبحث فى سياسة الدولة العلية ومصر وروسيا وانكلترا وقد عربت جرائد انجلترا كثيراً من هذه المقالات وجرت له أبحاث فلسفية مع حيال موضوع العالم والاسلام شهد له فيها هذا الفيلسوف بسعة الاطلاع والعلم وقوه الحجة وصواب الراى ثم سافر

الى انجلترا وبعد ذلك عاد الى فرنسا وتعرف بكثير من فلاسفتها وعظمائها وكبرائها فأحلوه مكاناً عالياً بينهم وبين شعبهم

ثم عزم على السفر الى بلاد ايران فاستقدمه شاه الفرس اذ ذاك ناصر الدين شاه وكان قد طلب اليه الحضور على لسان البرق ليراه ويتعرف به فأجابه صاحب الترجمة الى طلبه وفي اثناء سفره تقابل بالامير ظل السلطان فقابله هذا بالحفاوه الفائقة والاجلال العظيم ايضاً حتى وصل جمال الدين الى طهران فقابله فيها الشاه مقابلة حسنه جداً واعجب به ايما اعجاب واكثر من الثناء عليه والمدح فيه حتى في بلاطه وبين اهله وعشيرته واسند اليه وزارة الحربية تمهيداً لاسناد الصدارة اليه بعد وقت قليل وقد نال جمال الدين المنزلة الكبرى لدى علماء الفرس وامرائها واهلها حتي صار منزله كعبة القاصدين ومكانا لاجتماع الجميع يؤمون اليه ليستمعوا مايلقيه على مسامعهم من الحديث فخاف الشاه وخامره الشك والريب ظنا منه انه ربما يمتد نفوذ جمال الدين وسلطانه فأظهر الشاه لجمال الدين نفوراً فلما علم جمال الدين بالامر

ورأى منه ذلك طلب اليه أن يسمح له بمغادرة هذه الديار ترويحاً لنفسه من عناء الأعمال فأذن له الشاه بالسفر فسار إلى موسكو فى الروسيا فقوبل بالتجلة والاكرام وأكبروا قدره لما سمعوه عنه من علو شأنه وما سبق إلى مسامعهم من شهرته ثم سافر إلى بطرسبورج وهناك تعرف بعلمائها وساستها ونشر فى جرائدها مقالات ضافية عن سياسة الأفغان والروسيا والفرس والدولة العلية والانكليزية وكان لهـذه المقالات دوى هائل فى عالم السياسة واتفق اذ ذاك فتح معرض باريس لسنة ١٨٨٩ فسافر إليها جمال الدين وهناك التقى بشاه الفرس فى مونيخ عاصمة بافاريا عائداً من باريس فطلب إليه الشاه أن يرافقه فأجابه جمال الدين الى دعوته وسافر معه فى معيته إلى إران وهناك أنزله المكانة اللائقة به كأنه ليس هو ذلك الرجل الذى أبغض جمال الدين وخاف سوء العاقبة من التفاف الناس حوله وكأن أوربا قد محت من ذهنه كل هذه الأفكار الخزعبلية فكان يستشيره فى كل شئ فعز هذا على رجال الدولة فأسر الصدر الأعظم

إلى الشاه أن هذه القوانين التى يصدرها بمعونة جمال الدين نافعة للوطن إلا أنها ربما تحول دون نفوذ أوامر الشاه والالتفاف حوله فعول على أن يعيد كرة البغض لجمال الدين فلما رأى منه ذلك طلب أن يسمح له بالسفر الى بلدة شاه عبد العظيم التى على بعد (٢٠ كيلومتراً من طهران) فأذن له بذلك وتبعه جم غفير من العلماء والوجهاء والعظماء فصار يخطب فيهم ويحثهم على إصلاح وطنهم وحكومتهم ولم تمض ستة أشهر على ذلك حتى ذاعت شهرة جمال الدين فى جميع أنحاء بلاد الفرس وشاع عزمه على إصلاح إيران فخاف ناصر الدين عاقبه ذلك وأرسل إلى شاه عبد العظيم خمسمائة فارس قبضوا على جمال الدين وكان مريضاً فحملوه من فراشه وساقوه يخفره خمسون فارساً حتى حدود المملكة العثمانية فعز ذلك على مريديه فى إيران فثاروا على الشاه حتى خاف الأخير على حياته

أما جمال الدين فظل فى البصرة إلى أن نقه من مرضه وسافر إلى لندرة وكان الانجليز قد عرفوا قدره ومكانته فأجلوه واحترموه وصاروا يدعونه إلى مجتمعاتهم السياسية

وأنديتهم العامية ليسمعوا حديثه أما هو فكان يحدثهم عن الشاه وتصرفه فى المملكة وما آلت اليه حالتها فى عهده وكان يحث الانجليز على خلعه وفيما هو كذلك ورد اليه كتاب من المابين الهمايونى بواسطة المرحوم سفير الدولة العلية فى لندن رستم باشا فأجاب جمال الدين معتذراً بأنه فى شاغل وقتى فى إصلاح بلاده ولكن ورداليه كتاب آخر فيه ثناء وحض على السفر فأجاب الدعوة برقياً على أن يتشرف بمقابلة جلالة السلطان المعظم ثم يعود بعد ذلك وهكذا سافر الى الاستانة عام ١٨٩٢ فطابت له فيها الاقامة لما لاقاه من حسن معاملة المغفور له السلطان عبد الحميد خان الثانى له وحفاوتهم به وظل فيها معززاً محترما مجللاً مكبراً حتى داهمه السرطان فى فكه وكان ذلك فى أواخر عام ١٨٩٦ وامتد من فكه الى عنقه فظل يعانى الآلام عدة أشهر حتى توفى فى ٩ مارس سنة ١٨٩٧ فاحتفل بجنازته احتفالا مهيباً ودفن فى مدفن (شيخلر مزارلغى) قرب نشان طاش

المختار من نثره

المقالة الاولى

العروة الوثقى لا انفصام لها

قال الله تعالى (الٓمٓ أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)

من الناس بل أغلب الناس من يقول آمنا (وللايمان آثار) ثم يحسبون أن الله يتركهم ويدعهم وما يتوهمون ويعاملهم سبحانه وهو الحكم العدل بما يظنون فى أنفسهم قبل أن يبتليهم أيهم أحسن عملاً حتى تظهر أنفسهم لأنفسهم ويعلموا هل هم حقيقة مؤمنون أو هـذه دعوى سولتها النفس وغرت بها الأمانى وأنهم تائهون فى أوهامهم يحسبون أنهم على شئ وهم خلو من كل شئ (ولما يدخل الايمان فى قلوبهم) * إلا أنهم فى حسبانهم لمخطئون * فلن يدع الله المغرور فى غيه حتى يبتليه فى دعوى الايمان (ليعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين) و (لئلا تكون للناس على الله حجة) * حاشا حكيما أنزل الكتب وأرسل الرسل

ووعد وأوعد وبشر وأنذر وقوله الصدق ووعده الحق أن يجازى من بنى عقيدته على خيال ليس له أثر أو ظن ليس له أساس بالسعادة السرمدية والنعيم الأبدى * أن المغتر بزعمه الحائر فى ظلمات أوهامه الذى لا يسهل عليه الايمان احتمال المشاق وتجشم المصاعب فى سبيله ليس بمعزل عن المنافقين الذين حكم الله عليهم بالشقاء الأبدى والعذاب المخلد الايمان يغلب كل هوى ويقهر كل أمنية ويدفع بالنفس إلى طلب مرضاة الله بلا سائق ولا قائد سواه * يقول الله تعالى وهو أصدق القائلين (لا يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والله عليم بالمتقين إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) هذا قضاء الله وهذا حكمه على الذين يستأذنون فى بذل أرواحهم وأموالهم فى أداء فريضة الايمان حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون صدق الله وصدقت كتبه ورسله * ان للعقائد الراسخة اثاراً تظهر فى العزائم والأعمال وتأثيراً فى الافكار والارادات لا يمكن المعتقدين أن يزيحوها عن أنفسهم ما داموا

معتقدين * هكذا حكم الايمان فى جميع شؤونه وأطواره له خواص لا تفارقه ونزعات لا تزايله وصفات جليلة لا تنفك عنه وخلائق عالية سامية لا تباينه بها كان يمتاز المؤمنون فى الصدر الأول وكان يعترف بعزيمتهم وعلو منزلتهم من كان يجحد عقيدتهم * نعم هم الذين صبروا في نيران امتحان الله وابتلائه حتى ظهر إيمانهم ذهباً إبريزاً صافياً من كل غش وأعد الله لهم جزاء على صبرهم نعيماً مقيماً * ما أصعب ابتلاء الله وما أشد فتنته وما أدق حكمته فى ذلك (ليميز الله الخبيث من الطيب) * نعم أن دون ابتلاء الله خلع العادات وتحمل الصعوبات وبذل الأموال وبيع الارواح * كل خطر فهو تهلكة ينبغى البعد عنها إلا فى الايمان فكل تهلكة فيه فهى نجاة وكل موت فى المحاماة عن الايمان فهو بقاء أبدى وكل شقاء فى أداء حقوق الايمان فهو سعادة سرمدية * المؤمن يبذل ماله فيما يقتضيه الايمان ولا يخشى الفقر (وان كان الشيطان يعده الفقر) * ليس فى النفقة لاداء حق الايمان تبذير ولو أتت على كل ما فى أيدى المؤمنين * ان للمؤمنين حياة وراء هذه الحياة وأن له لذة

وراء لذاتها وأن لهسعادة غير مازينه الشيطان من سعاداتها هكذا يرى المؤمن إن كان الايمان مس قلبه ولولم يبلغ الغاية من كماله * إن الفرار من محنة الله فى الايمان مجلبة للخزى الابدى * ان الفرار من مصادمة جيش الضلال وان بلغت أقصى مايتصور موجب للشقاء السرمدى * لاسعادة إلا بالدين ودون حفظ الدين تطاير الاعناق * أن للايمان تكاليف شاقة وفرائض صعبة الأداء (الا على الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى)* ان القيام بفرائض الايمان محفوف بالمخاطر مكتنف بالمكاره كيف لاوأول ماوجب الايمان خروج الانسان من نفسه وماله وشهواته ووضع جميع ذلك تحت أوامر ربه لن يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون الله ورسوله أحب اليه من نفسه *أول احساس يلم بنفس المؤمن انه فى هذه الدنيا عابر سبيل الى دار أخرى خير من هذه الحياة وأبقى وأول خطوة يخطوها المؤمن بذل روحه اذا دعاه داعى الايمان ولاداعى أرفع صوتا ولا أبين حجة من نداء الحق على لسان أنبيائه * لايقبل الله فى صيانة الايمان عذراً ولا علة مادامت الرجل تمشى والعين تنظر واليد تعمل *

ان امتحان الله للمؤمنين سنة من سننه يميز بها الصادقين من المنافقين * فى كل قرن يدعوا الله المؤمنين الى قوم أولى بأس شديد (فان يطيعوا يؤتهم الله أجرا حسنا وان يتولوا يعذبهم عذابا أليما)* فميزان عدل الله منصوب الى يوم القيامة وهنالك الجزاء الأوفى فلا يحسبن الواسمون أنفسهم بسمة الايمان القانعون منه برسم يلوح فى مخيلاتهم ان عدل الله يتركهم وما يظنون (كلا انهم في كل عام يفتنون) لينظر المفرطون فى دينهم ضناً بأموالهم وصوناً لأرواحهم ماذا يكون موقعهم من علم الله هل من الذين صدقوا أو من الكاذبين * أرشد الله المؤمنين الى وسائل خيرهم وبشرهم بعاقبة أمرهم

المقالة الثانيــه

قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم

شهد العيان ودلت الآثار على ماصدرمن بعض أفراد الانسان من أعمال تحير الألباب وتدهش الأفكار ينظر اليها ضعفاء العقل فيعدونها معجزات وان لم تكن في أزمنة النبوات ويحسبونهاخوارق عادات وإن لم تكن من تحدى الرسالات وقد ينسبها الغفل الى حركات الافلاك وأرواح الكواكب وموافقة الطوالع ومن القاصرين من يظنها من أحكام الصدف وقدفات الاتفاق عجزا عن إدراك الاسباب وفهم الصواب * أما من أتاه الله الحكمة ومنحه الهداية فيعلم أن الحكيم الخبير جل شأنه وعظمت قدرته قد أناط كل حادث بسبب وكل مكسوب بعمل وأنه قد اختص الانسان من بين الكائنات بموهبة عقلية ومقدره روحانية يكون بهما مظهراً لعجائب الأمور وبهذه المقدرة وتلك الموهبة مناط التكالف الشرعية وبها استحقاق المدح أو الذم عند العقلاء والثواب أو العقاب عند واسع الكرم

سريع الحساب *اذا رجع البصير الى القياس الصحيح رأى في تشابه القوى الانسانية وتماثل الفطرة البشرية مايدل على تقارب العقول بل على استواء المدارك وأرشده الفكر السليم إلى أن فضل الله قد أعد كل انسان للكمال ومنحه ما يكون به مصدراً لفضائل الاعمال على تفاوت لا يظهر به الاختلاف بينهما الا للنظر الدقيق * هذه وقفه الحيرة* استعداد فطرى للكمال فى خلقه الانسان * ميل كلى فى كل فرد لان يفرد بالفخار ويمتاز بجلائل الآثار وفضل عام من الجواد المطلق سبحانه وتعالى لايخيب طالباً ولايرد سائلا اذ صدق القاصد فى قصده وأخلص السائل فى جده فما العلة فى اخلاد الجمهور الاعظم من بنى الانسان الى دنيات المنازع وقصورهم عن الوصول الى ما أعدته لهم العنايه ويستفزهم اليه الميل العزيزى خصوصا ان كانت النفوس مؤمنة بعدل الله مصدقة بوعده ووعيده ترجوا ثوابا على الباقيات الصالحات وتخشى عقابا على ارتكاب الخطيئات وتعترف بيوم العرض الاكبر (يوم تجزى كل نفس بما كسبت) (من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) * ماذا يقعد

بالنفوس عن عمل * ماذا ينحدر بها فى مزالق الزلل * إذا ردت المسببات الى أسبابها وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها وجدنا لهذا علة أم العلل ومنشأ يقرن به كل خلل (الجبن) الجبن هو الذى أوهى دعائم الممالك فهدم بناها * هو الذى قطع روابط الامم فحل نظامها * هو الذى أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم وأضعف قلوب العالين فسقطت صروحهم * هو الذى يغلق أبواب الخير في وجوه الطالبين ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين * يسهل علي النفوس احتمال الذلة ويخفف عليها مضض المسكنة ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل . يوطن النفس على تلقى الاهانه بالصبر والتذليل بالجلد ويوطأ الظهور الحاسية لاحمال من المصائب أثقل مما كان يتوهم عروضه عند التحلى بالشجاعة والاقدم . الجبن يلبس النفس عاراً دون القرب منه موت أحمر عند كل روح زكية وهمة عليه . يرى الجبان وعر المذلات سهلا وشظف العيش فى المسكنات رفها ونعيما

من يهن يسهل الهوان عليه * ما لجرح بميت إيلام

لا بل يتجرع مرارة الموت في كل لحظة ولكنه راض بكل حال وان لم يبق له إلا عين تبصر الاعداء ولا تر الاحباء ونفس لا يصعد إلا بالصعداء وإحساس لا يلم به الا ألم اللاءوا هذه حياته أضاع كل شئ في القناعة بلا شئ وهو يظن أنه أدرك البغية وحصل المنية . (ماهو الجبن) انخذال فى النفس عن مصادمة كل عارض لا يلائم حالها وهو مرض من الامراض الروحية يذهب بالقوة الحافظة الوجود التى جعلها الله ركنا من أركان الحياة الطبيعية وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا انه يرجع الى الخوف من الموت * الموت مال كل حى ومصير كل ذى روح * ليس للموت وقت يعرف ولا ساعة تعلم ولكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر فى كل آن ويرتقب فى كل لحظة ولا يعلمه إلا مقدر الآجال جل شأنه (وما تدرى نفس ما تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت) * يشتد الخوف من الموت إلى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم والذهول عن ما أعده الله للانسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة إذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت

لاجله * نعم يغفل الانسان فيظن ماجعله الله واقياً للحياة وهو الشجاعة والاقدام سبباً فى الفناء * يحسب الجاهل أن فى كل خطوة خطراً مع أن نظره واحدة لما بين يديه الآثار الانسانية وماناله طلاب المعالى من الفوز بآمالهم وما ذللوا من المصاعب فى سيرهم تكشف له أن تلك المخاوف انما هى أوهام وأصوات غيلان ووساوس شياطين غشيته فأدهشته وعن سبيل الله صدته ومن كل خير حرمته * الجبن فخ تنصبه صروف الدهر وغوائل الايام لتغتال به نفوس الانسان وتلتهم به الامم والشعوب. هو حبالة الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدهم عن سبيله . وهو مبداه ولا ومنشأ لكل خصلة ذميمة. لاشقاء إلا مبداه ولا فساد إلا وهو جرثومته ولا كفر إلا وهو باعثه وموجبه ممزق الجماعات ومقطع روابط الصلات. هازم الجيوش ومنكس الأعلام ومهبط السلاطين من سماء الجلالة إلى أرض المهانة * ماذا يحمل الخائنين على الخيانة فى الحروب الوطنية * أليس هو الجبن * ماذا يبسط أيدى الادنياء لدنيئة الارتشاء * أليس هو الجبن * ربمايتوهم بعدالمثال

فتأمل أن الخوف من الفقر يرجع في الحقيقة إلى الخوف من الموت وهو علة الجبن * سهل عليك أن تعتبر هذا في الكذب والنفاق وسائر أنواع الامراض المفسدة لمعيشة ألانسان * الجبن عار وشنار على كل ذى فطرة إنسانية خصوصاً الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر ويؤملون أن ينالوا جزاء لاعمالهم أجراً حسناً ومقاما كريماً * ينبغى أن يكون أبناء الملة الاسلامية بمقتضى أحوال دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجبن) فانها أشد الموانع عن أداء ما يرضى الله وأنهم لا يبتغون إلا رضاه * يعلم قراء القرآن أن الله قد جعل حب الموت علامة الايمان وامتحن الله به قلوب المعاندين ويقول فى ذم من ليسوا بمؤمنين (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب) الخ الآيات * الاقدام فى سبيل الحق وبذل الاموال والارواح فى إعلاء كلمته أول سمة يتسم بها المؤمنون * لم يكتف الكتاب الآلهى بأن تقام

الصلاة وتؤتى الزكاة وتكف الايدى جعل ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون المنافقون بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح في اعلاء كلمة الحق والعدل الآلهى بل عده الركن الوحيد الذى لايعتد بغيره عند فقده * ولايظن ظان أنه يمكن الجمع بين الدين الاسلامى وبين الجبن فى قلب واحد * كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الاقدام وأن عماده الاخلاص لله والتخلى عن جميع ما سواه لاستحصال رضاه * المؤمن من يوقن أن الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء ولايفيده التبطأ عن أداء المفروض زيادة فى الاجل ولاينقصه الاقدام دقيقة منه * المؤمن من لاينتظر بنفسه الا أحدى الحسنيين اما أن يعيش سيداً عزيزاً واما أن يموت مقرباً شهيداً وتصعد روحه الى أعلى عليين ويلتحق بالكروبيين والملائكة المقربين * من يتوهم أنه يجمع بين الجبن وبين الايمان بما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه وهو ليس من الايمان فى شئ * كل آية من القرآن تشهد على الجبان بكذبه فى دعوى الايمان * لهذا

نؤمل من ورثة الانبياء أن يصدعوا بالحق ويذكروا بآيات الله وما أودع الله فيها من الامر بالاقدام لاعلاء كلمته والنهى عن التباطئ والتقاعد فى أداء ما أوجب الله من ذلك وفي الظن ان العلماء لو قاموا بهذه الفريضة (الامر بذلك المعروف والنهى عن هذا المنكر) زمنا قليلاً ووعظو الكافة بتبيين معانى القرآن الشريف واحيائها فى أنفس المؤمنين رأينا لذلك أثراً فى هذا الملة يبقى ذكره أبد الدهر وشهدنا لها يوما تسترجع فيه مجدها فى هذه الدنيا وهو مجد الله الاكبر *

فالمؤمنون بما ورثوا عن أسلافهم وبما تمكن فى أفئدتهم من آثار العقائد لايحتاجون الا لقليل من التنبيه ويسير من التذكير فينهضون نهضة الاسود فيستردوا مفقودا ويحفظوا موجودا وينالوا عند الله مقاماً محموداً

المقالة الثالثة

واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا

إن للمسلمين شدة فى دينهم وقوة فى إيمانهم وثباتاً على يقينهم يباهون بها من عداهم من الملل وان فى عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض * ومما رسخ فى نفوسهم ان فى الايمان بالله وما جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم كفالة لسعادة الدارين ومن حرم الايمان فقد حرم السعادتين ويشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء وهذه الحالة كما هى فى علمائهم متمكنة فى عامتهم حتى لو سمع أى شخص منهم فى أى بقعة من بقاع الأرض عالماً كان أو جاهلاً ان واحداً ممن وسم بسمة الاسلام فى أى قطر ومن أى جنس صبا عن دينه رأفت من يصل اليه هذا الخبر فى تحرق وتأسف يلهج بالحوقله والاسترجاع ويعد النازله من أعظم المصائب على من نزلت به وعلى جميع من يشاركه في دينه ولو ذكرت مثل هذه الحادثة فى تاريخ

وقرأها قارئهم بعد مئتين من السنين لا يتمالك قلبه من الاضطراب ودمه من الغليان ويستفزه الغضب ويدفعه لحكاية ما رآى كأنه يحدث عن غريب أو يحكى عن عجيب * المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على مايدخل فى ولايتهم من البلدان وكلهم مأمور بذلك لا فرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحدين فى الجنس ولا المختلفين فيه وهو فرض عين على كل واحد منهم ان لم يقوم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام * ومن فروضهم فى سبيل الحماية وحفظ الولاية بذل الاموال والأرواح وارتكاب كل صعب واقتحام كل خطب ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم فى حال من الاحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم * وبالغت الشريعة فى طلب السيادة منهم على من يخالفهم الى حد لو عجز المسلم عن التخلص من سلطة غيره لوجبت عليه الهجرة من دار حربه وهذه قواعد مثبتة فى الشريعة الاسلاميه يعرفها أهل الحق ولا يغير منها تأويلات أهل الاهواء وأعوان الشهوات فى كل زمان * المسلمون يحس كل واحد منهم بهاتف يهتف

من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة وما يفرض عليه الايمان وهو هاتف الحق الذى بقى له من الهامات دينه ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين فى هذه الأيام بعضهم فى غفلة عما يلم بالبعض الآخر ولا يألمون لما يألم له بعضهم فاهل (بلوجستان) كانوا يرون حركات (الانكليز) فى (أفغانستان) على مواقع أنظارهم ولا يجيش لهم جأش ولا تكون لهم نعرة على إخوانهم والافغانيون كانوا يشهدون تداخل الانكليز فى بلاد فارس ولا يضجرون ولا يتململون وان جنود الانكليز تضرب فى (الاراضى المصرية) ذهابا وإيابا تقتل وتفتك ولا ترى نخوة فى نفوس اخوانهم المشرفين على مجارى دمائهم بل السامعين لخريرها من حلاقيمهم بل الذين احمرت أحداقهم من مشاهدها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم * تمسك المسلمين بتلك العقائد واحساسهم بداعية الحق فى نفوسهم مع هذه الحالة التى هم عليها مما يقضى بالعجب ويدعوا الى الحيرة ويسوق الى بيان السبب نخذ مجملا منه * إن الافكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدركات والوجدانيات النفسية وان كانت هى الباعثة على الاعمال وعن

حكمها تصدر بتقدير العزيز الحكيم لكن الاعمال تثبتها وتقويها تطبع الانفس عليها حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق وتترتب عليه الآثار التى تلائمها * نعم ان الانسان انسان بفكره وعقائده الا أن ماينعكس الى مرآ ياعقلة من مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير فكل شهود يحدث فكراً وكل فكر يكون له أثر فى داعية وعن كل داعية ينشأ عمل ثم يعود من العمل الى الفكر ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الاعمال والافكار مادامت الارواح فى الاجساد وكل قبيل هو للآخر عماد * ان للاخوة ووسائل نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها فى الاعتصاب والالتحام لولا ماتبعث عليه الضرورات وتلجئ اليه الحاجات من تعاون الانسباء والعصبة على نيل المنافع وتضافرهم على دفع المضار وبعد كرور الأيام على المضافرة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذاً يصرفه فى آثارها بقية الأجل ويكون انبساط النفس بعون القريب وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جار يامجرى الواجدانيات الطبيعية كالاحساس والجوع والعطش والرى والشبع بل اشتبه أمره

على بعض الناظرين فعده طبيعياً فلو أهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها ولم تدع ضرورات الحياة في وقت من الأوقات إلى ما يمكن تلك الصلة ويؤكدها أو وجد صاحب النسب من يظاهره فى غير نسبه وألجأته ضرورة إلى ذلك ذهب أثر تلك الرابطة النسبية ولم يبق منها الا صورة فى العقل تجرى مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات * وعلى مثال ما ذكرنا في رابطة النسب وهى أقوى رابطة بين البشر يكون الأمر فى الاعتقادات التى لها أثر فى الاجتماع الانسانى من حيث ارتباط بعضه ببعض * إذا يصحب العقد الفكرى ما يجىء الضرورة أو قوة الداعية إلى عمل تنطبع عليه الجارحه وتمرن عليه ويعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشكلاً من أشكالها فلن يكون منشأ لآثاره وانما يعد فى الصور العامية له رسم يلوح فى الذاكرة عند الالتفات كما قدمنا * بعد تدبر هذه الاصول البينة والنظر فيها بعين الحكمة يظهر لك السبب فى سكون المسلمين إلى ما هم فيه مع شدتهم فى دينهم والعلة فى تباطئهم عن نصرة إخوانهم وهم أثبت الناس فى عقائدهم فانه لم يبق من جامعة بين

المسلمين فى الأغلب إلا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال وانقطع التعارف بينهم وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل * والعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها لا تواصل بينهم ولا تراسل فالعالم التركى فى غيبة عن حال العالم الحجازى فضلا عمن يبعد عنهم والعالم الهندى فى غفلة عن شؤون العالم الافغانى وهكذا بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ولا صلة تجمعهم الا ما يكون بين أفراد العامة لدواع خاصة كصداقة أو قرابة بين أحدهم وآخر مما فى هيئتهم الكلية فلا وحدة لهم بل الأنساب بينهم وكل وينظر إلى نفسه ولا يتجاوز ما كانه كون برأسه * كما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين * أليس بعجيب الا تكون سفارة للعثمانيين فى (مراكش) ولا لمراكش عند العثمانيين * أليس بغريب ألا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الافغانيين وغيرهم من طوائف فى المسلمين فى المشرق * هذا التدابر والتقاطع وارسال الحبال على الغوارب عم المسلمين حتى صح أن يقال لا علاقة بين قوم منهم وقوم ولا بلد وبلد

الاطفيف من الاحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم وربما يتعرفون مواقع أفكارهم بالصدفة اذا التقى بعضهم ببعض فى موسم الحجيج العام وهذا النوع من الاحساس هو الداعى الى الاسف وانقباض الصدر اذا شعر مسلم بضياع حق مسلم على يد أجنبي عن ملته لكنه لضعفه لاينبعث على النهوض لمعاضدته * كانت ملة الاسلام كجسم عظيم قوى البنية صحيح المزاج فنزل به من العوارض ماأضعف الالتئام بين أجزائه فتداعت للتناثر والانحلال وكاد كل جزء تكون على حده وتضمحل هيئة الجسم * بدأ هذا الانحلال والضعف فى روابط الملة الاسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن مرتبة الخلافة وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا واشرف العلم والتفقه فى الدين واجتهاد فى أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضى الله عنهم فكثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة الى حد لم يبق له مثيل فى دين من الاديان ثم انثلمت وحدة الخلافه فانقسمت الى أقسام خلافة عباسية فى بغداد وفاطمية فى مصر والمغرب وأموية

فى أطراف الاندلس فتفرقت بهذا كلمة الامة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلافة إلى وظيفة الملك فسقطت هيبتها من النفوس وخرج طلاب الملك والسلطان يدائبون من وسائل القوة والشوكة ولايرعون جانب الخلافة وزاد الاختلاف شدة وتقطعت الوشائح بينهم بظهور (جنكيزخان و(تيمورلنك) وحفاده وإيقاعهم بالمسلمين واذلالا حتى آذهلوهم عن أنفسهم فيفرق الشمل بالكلية وانفصمت عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعاً وانفرد كل بشأنه وانصرف إلى مايليه فتبدد الجمع إلى آحاد وافترق الناس فرقا كل فرقة تتبع داعياً إما إلى ملك أومذهب فضعفت آثار العقائد التى كانت تدعو الى الوحدة وتبعث على اشتباك الوشيجة وصار مافى العقول منها صوراً ذهنية تحويها مخازل الخيال وتحفظها الذاكرة عند عرض مافى خزائن النفس من المعلومات ولم يبق من آثارها ألا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عند ماتنزل المصائب ببعض المسلمين بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخطر الى المسامع على طول من الزمان وما هو الانوع من الحزن علي الفائت كما يكون على الاموات

من الاقارب لايدعوا إلى حركة تدرك النازلة ولا تدفع الغائلة * وكان من الواجب على العلماء قياماً بحق الوراثة التى شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا إلى أحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذى وقع فى الملك بتمكين الاتفاق الذى يدعوا إليه الدين ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق فى مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجدوكل مدرسة مهبطاً لروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة فى سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ فى جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة فيرجعون اليها فى شئون وحدتهم ويأخذون بأيدى العامة الى حيث ترشدهم التنزيل وصحيح الأثر ويجمعون أطراف الوشائج إلى معقل واحد يكون مركزه فى الاقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام حيث يتمكنون بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان والقيام بحاجات الامة إذاعرض حادث الخلل وتطرق الاجانب للتداخل فيها بما يحيط من شأنها ويكون كذلك أدعى لنشر

العلوم وتنوير الافهام وصيانة الدين والبدع فان أحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل نشرها بين العامة وليس يخاف على المتبصرين مايتبع هذا من قوة الامة وعلو كلمتها واقتدارها على دفع مايغشاها من النوازل * إلا انا نأسف غاية الأسف إذ لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة وهى أقرب الوسائل وإن التفت اليها فى هذه الايام طائفة من أرباب الغيرة * ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحد جمهم ويجمع شتيتهم فقد دارستهم التجارب ببيان لامزيد عليه وما هو بالعكير عليهم أن يبثوا الدعاة إلى من يبعد عنهم ويصافحوا بالاكف من هو على مقربة منهم ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود علي دينهم وملتهم بفائدة أو مايخشى أن يمسها بضرر ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة والرمق باق والآمال مقبلة وإلى الله المصير

المقالة الرابعة

« وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »

أظلت ولاية الاسلام مابين نقطة الغرب الأقصى الى تونكانى على حدود الصين فى عرض مابين قازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء أقطاراً متصلة ودياراً متجاوره يسكنها المسلمون وكان لهم فيها السلطان الذى لايغالب * أخذ بصولجان الملك منهم ملوك عظام فأداروا بشوكتهم كرة الأرض الا قليلا ما كان يهزم لهم جيش ولا ينكس لهم علم ولا يرد قول على قائلهم * صياصيهم وقلاعهم متلاقية ومنابتهم ومغارسهم فى سهولهم (أراضيهم السهلة الواسعة) وأخيافهم (الأراضى المنحدرة عن الجبل) رابية مزدهية بأنواع النبات حالية بأصناف الأشجار يربيها صنع أيدى المسلمين ومدنهم كانت آهلة مؤسسة على أمتن قواعد العمران تباهى مدن العالم بصنائع سكانها وبدائعهم وتفاخرها بشموس الفضل وبدور العلم ونجوم الهداية من رجال لهم المكان الأعلى فى العلوم

والآداب كان في نقطة الشرف من حكمائهم ابن سينا والفارابي والرازي ومن يشا كلهم وفى الغرب ابن ماجة وابن رشد وابن الطفيل ومماثلوهم ومابين ذلك أمصار تتزاحم فيها أقدام العلماء فى الحكمة والطب والهيئة والهندسة وسائر العلوم العقلية هذا فضلاً عن العلوم الشرعية التى كانت عامة فى جميع طبقات الملة * كان خليفتهم العباسى ينطق بالكلمة فيخضع لها (تقفور) الصين وترتعد منها فرائص أعظم الملوك فى (أوربا) ومن ملوكهم فى قرونهم المتوسطة مثل (محمود الغزنوى) و (ملكشاه السلجوقى) و (صلاح الدين الايوبى) وكان منهم فى المشرق مثل (تيمور الكوركان) وفى المغرب مثل السلطان (محمد الفاتح) والسطان (سليم) والسلطان (سليمان) العثمانى * أولئك رجال قضوا ولم يطو الزمان ذكرهم ولم يمح أثرهم * كانت الاساطيل المسلمين سيادة لاتبارى فى البحر الابيض والبحر الاحمر والمحيط الهندى ولها الكلمة العليا فى تلك البحار إلى زمان غير بعيد كان مخالفوهم يدينون لملكوت فضلهم كما يذلون لسلطان عليهم والمسلمون اليوم هم يملؤن تلك الاقطار التى ورثوها

عن آبائهم وعديدهم لاينقص عن مائتى مليون وأفرادهما فى كل قطر بما أشربت قلوبهم من عقائد دينهم أشجع وأسرع إقداما على الموت ممن يجاورهم وهم بذلك أشد الناس ازدراء بالحياة وأقلهم مبالاه بزخرفها الباطل * جاءهم القرآن بمحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم ويعيب الاخذ بالظنون والتمسك بالاوهام ويدعو إلى الفضائل وعقائل الصفات فأودع فى أفكارهم جراثيم الحق وبذر في نفوسهم بذور الفضل بأصول دينهم أنور عقلا وأنبة ذهناً وأشد استعداداً لنيل الكمالات الانسانية وأقرب فى الاستقامة فى الاخلاق * وربما يرون لانفسهم من الاختصاص بالشرف وما وعدوا به على لسان كتابهم الصادق من إظهار شأنهم على شؤن العالم أجمع ولو كره المبطلون لايذعنون بسلطة لغيرهم عليهم ولايحوم بفكر واحد منهم أن يخضع لذى سطوة من سواهم وإن بلغت من الشدة مابلغت ولما بينهم من الاخاء المؤزر بمناطق العقائد يحسب كل واحدمنهم ان سقوط طائفة من بنى ملته تحت سلطة الاجانب سقوط لنفسه * ذلك إحساس يشعر به وجدانه

ولايجد عنه مسلياً وبما ساخ (غاص ورسب) في نفوسهم من جذور المعارف التى أرشدهم اليها دينهم ونالوا منها النصيب الاعلى فى عنفوان دولتهم يعدون أنفسهم أولى الناس بالعلم وأجدرهم بالفضل ذاك شأنهم الاول وهذا وصفهم للآن ولكنهم مع هذا كله وقفوا فى سيرهم بل تأخروا عن غيرهم فى المعارف والصنائع بعد ان كانوا فيها أساتذة للعالم وأخذت ممالكهم تنتقص أطرافها وتتمزق حواشيها مع أن دينهم يرسم عليهم أن لايدينوا لسطة من يخالفهم ويعمل على الاستئثار بالحكم عليهم الذى يؤدى ولاشك الى المساس بدينهم واستقلالهم * هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الارض وهم العباد الصالحون * هل غفلوا عن تكفل الله لهم باظهار شأنهم على سائر الشؤون ولو كره المجرمون * هل سهوا عن أن الله اشترى منهم لاعلاء كلمتهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة * لا * لا * أن العقائد الاسلامية مالكة لقلوب المسلمين حاكمة فى إرادتهم وسواء فى العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصتهم ثم يوجد للتقصير فى إنماء العلوم وللضعف فى القوة أسباب أعظمها تخالف

طلاب الملك فيهم لأنا بينا أن لا جنسية للمسلمين إلا في دينهم فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة السلاطين في جنس واحد مع تباين الأغراض وتعارض الغايات فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم على خصمه وألهوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض فأدت هذه المغالبات وهي أشبه شيء بالمنازعات الداخلية إلى الذهول عما نالوا من العلوم والصنائع فضلا عن التقصير في طلب ما لم ينالوا منها والانحسار دون الترقي في عواليها ونشأ من هذا ماتراه من الفاقة والاحتياج وعقبه الضعف في القوة والخلل في النظام وجلب تنازع الامراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا فلهوا بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم * هذا كان من أمراء المسلمين مع ما فيه الضرر الفادح عند ما كانوا منفردين في ميادين الوغى لا يجاريهم فيها سواهم من الملل ولكن ضرب الفساد في نفوس أولئك الامراء بمرور الأزمان وتمكن في طباعهم حرص وطمع باطل فانقلبوا مع الهوى وخلت عنهم غايات المجد المؤثل وقنعوا بألقاب الأمارة وأسماء السلطنة

وما يتبع هذه الأسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان واختاروا موالاة الاجنبي عنهم المخالف لهم فى الدين والجنس ولجؤا للاستنصار به على أبناء ملتهم استبقاء لهذا الشبح البالى والنعيم الزائل

حكيم الاسلام وفيلسوف الشرق



المرحوم الاستاذ الشيخ محمد عبده

جزء ثانى صحيفة ٨٢

٣

المرحوم
الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

ترجمته

ولد الفقيد الكريم من أبوين فقيرين من أهالى محلة « نصره » بالغربية كان يضرب بها المثل فى الورع والشهامة وإكرام الضيف

ولد رحمه الله عام ١٨٤٥ فلما بلغ السابعة من عمره ظهرت عليه علائم النجابة والذكاء فلم يشأ أبوه له أن يكون فلاحاً كأخوته بل شاء أن يعلمه فادخله إلى كتاب فى القريه فاختلف اليه الفقيد مكرهاً ولم يدع أحداً من أهل القرية إلا توسل به الى أبيه أن ينظمه فى سلك إخوته فلاحاً فكان يأبى عليه ذلك ويصر على تعليمه إصراراً . وكانت النتيجة من هذا وذاك ان الفقيد رحمه الله لبث بهذا الكتاب ثلاث سنين لايحفظ مما يلقى الفقيه حرفا

وفى عام ١٨٤٨ أدخله أبوه إلى الجامع الأحمدى فلبث به ثلاث سنين أخرى كانت النتيجة منها مثل الأول . فلما

عي أباه أمره أرسله إلى الجامع الأزهر فمكث فيه عامين
لا يدرى مما يلقن شيئاً

قال الأستاذ في تعليل ذلك ان الذى كان يعوقنى عن
فهم المقصود من هذه الشروح والمتون ثلاثة أمور . الأول
غبتى فى أن أكون مثل اخوتى فلاحاً وعدم وجود الوسائل
لتى ترغبنى فى العلم . والثانى إخلال نظام التدريس بحيث
كنت أسمع الشيخ وهو يدرس فاحسبه يتكلم بلغة أجنبيه .
الثالث مااتفق عليه الطلبة من مضايقة معدتهم بالأغذية
لضارة مما يكون منه الاعتلال فى الجسم والفكر معاً

فلما لم يجد الاستاذ مناصاً من إرادة أبيه خلا بنفسه
واجتمع بفكره وذكائه فهان الأمر بعد ذلك عليه وأصبح
مايحصله رحمه الله فى يوم واحد من هذه الدروس المعقدة
لمشوشة مثلما يحصله سواه فى عام أو عامين . ومما يروى
عن ذكائه أنه لم يمر شهر فى درس كتاب الكفراوى فى
لنحو حتى بدا له شئ من غلط الكتاب وتناقضه فى بعض
لمواضع فنبه شيخه إلى ذلك فاعترف معه به ولكنه قال إنما
ندرس هذا الكتاب تبركا

ثم جاء السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر فاجتمع به الفقيد وأخذ عنه كثيراً من فلسفته وعلمه والسيد جمال الدين يقول عنه أنه أنجب تلاميذه وأنه لمصر أقوى من أسطول وأعز من جيش . وقد لبث جمال الدين بمصر عشر سنين فكان الأستاذ ساعده الأيمن لا يكتب السيد موضعاً علمياً إلا بروح الفقيد وقلمه ولا يجادل أحد الا فلسفياً الا كان فيه شيء من ذكائه وفكره ولما طرد السيد جمال الدين قال « وهو فى سجن السويس منتظراً الباخرة التى تحمله منفياً » أنى تركت الشيخ محمد عبده وكفاه لمصر عالماً

وكانت أول الوظائف التى تولاها تحرير الوقائع المصرية ثم عين مديراً للمطبوعات المصرية ولما عزل اسماعيل باشا وتولى رئاسة النظار رياض باشا قرب الفقيد اليه واتخذه مستشاراً ثم كان ما كان من الثورة العرابية فبذل جهده فى إقناع أهلها بسوء عاقبتها حتى هموا كثيراً بقتله

ثم هدأت الثورة بعد الاحتلال فاتهم الفقيد أنه كان من رجالها فنفى إلى الشام فلبث فيها عام ثم دعاه السيد جمال الدين الأفغانى إلى مدينة باريس فأصدر بها جريدة (العروة الوثق)

ثم عاد الى مصر بعد أن تبينت براءته للحكومة المصرية فعين قاضيا جزئياً فى المحاكم الأهية ثم مستشاراً فى محكمة الاستئناف ثم عين مفتياً للديار المصرية أما أعماله النافعة فكثيرة لايحيط بها بيان نذكر منها تدريسه القرآن الشريف بما لم يسبقه اليه أحد حتى كان شرحه له شرحاً علمياً عصريا خاليا مما حشاه السابقون. ومنها أعماله فى مجلس الشورى وهى كل حسناته هذا عدا الافتاء والتأليف الذى منها رسالة التوحيد الشهيرة وتفسير جزء (عم) وتعريب الرد على الدهريين. ولم يقف عند هذا الحد رحمه الله من الأعمال النافعة بل وجه نظره الشريف الى الازهر فاصلح ما قدر على اصلاحه وكان المرض يساوره وهو يشتغل بمشروع مدرسة تخريج القضاة الشرعيين ثم أنه كان فوق هذه الاشغال الكثيرة يكاتب المجلات باعظم الموضوعات الأدبية والعلمية مما كان له شأن كبير فى العالم كله نذكر من ذلك رده علي المسيو هانوتو وعلى بعض مقالات ظهرت فى الجامعة. وله عدا ذلك كله أعمال انسانية انتفع بها خلق كثير

هذه أعماله اجمالا. أما أخلاقه فقد كان حليما واسع

الصدر كريم النفس . فما قصده ذو حاجة إلا سعى له سعيها حتى يقضيها له وما أساء اليـه إنسان إلا اجتهد أن يقابل الاساءة منه بالاحسان فقد كان أنجال المشايخ فى الأزهر يتناولون مرتبات آبائهم بالوراثة فرأى الاستاذ فى ذلك غبناً للعلماء لان هذه المرتبات إنما هى وقف عليهم فأعاده الاستاذ اليهم عوض أنجال المشايخ عنها بما كان يجمعه لهم بسعية فى رأس كل شهر من أمواله وأموال محبيه . ولقد شوهد وهو ساع هـذا السعى عقيب اعتزاله الازهر وقيام الشيوخ فى وجهه محاربين فأعظم بهذا كرماً وحلماً

ولقد كان رحمه الله وطنيا بحقيقه معنى الوطنية وكان لاينيء له عزم فى كل أذوار حياته عن ترقية الامة وإصلاح شؤنها . وله حسنات غير ذلك كثيرة تدل على أن الرجل رحمه الله كان كبير الهمه واسع العلم شديد الغيرة علي الامة والبلاد

....

المختار من نثره

انتشار الاسلام

بسرعة لم يعهد لها نظير فى التاريخ

كانت حاجة الامم الاصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك لكن يندهش عقل الناظر فى أحوال البشر عند ما يرى أن هذا الدين يجمع اليه الامة العربية من أدناها إلى أقصاها فى أقل من ثلاثين سنة ثم يتناول من بقية الامم مابين المحيط الغربى وجدار الصين فى أقل من قرن واحد : وهو أمر لم يعهد فى تاريخ الاديان ولذلك ضل الكثير فى بيان السبب واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ولقى من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل. أوذى الداعى صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء وأقيم فى وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله، وعذب المستجيبون

له وحرموا الرزق وطردوا من الدار وسفكت منهم دماء غزيرة غير تلك الدماء كانت عيون العزائم تنفجر من صخور الصبر يثبت الله بمشهدها المستيقنين ويقذف بها الرعب في أنفس المرتابين فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهي ذوب ما فسد من طباعهم فتجرى من مناحرهم جرى الدم الفاسد من المفصود على أيدى الاطباء الحاذقين : * ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون :

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليحصدوا نبتته ويخنقوا دعوته فمازال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء والفقير للاغنياء ولا ناصر له إلا أنه الحق بين الاباطيل والرشد في ظلمات الأضاليل حتى ظفر بالعزة وتعزز بالمنعة . وقد وطىء أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره ومع ذلك لم يبلغ بهم السعى نجاحا ولا أنالهم القهر فلاحا

ضم الاسلام فكان القفار العربية إلى وحدة لم يعرفها تاريخهم ولم يعهد لها نظير فى ما ضيهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أبلغ رسالته بأمر ربه الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان فهزأوا وامتنعوا وناصبوه وقومه الشر وأخافوا السابلة وضيقوا على المتاجر فبعث اليهم البعوث فى حياته وجرى على سنته الأئمة من صحابته طلبا للأمن وابلاغاً للدعوة فاندفعوا فى ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم وانهالوا به على تلك الامم فى قوتها ومنعتها وكثرة عددها واستكمال أهبتها وعددها فظفروا منها بما هو معلوم . وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر السلطان الفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين وأباحوا لهم البقاء على أديانهم وإقامة شعائرها آمنين مطمئنين ، ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون منه أهلهم وأموالهم ؛ وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزاء قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة .

كان الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة اتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة إلى دينهم يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر وبرهانهم

الغالبة وحجتهم القوة ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ولم يعهد في تاريخ فتوح الاسلام إن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون علي أنفسهم العمل في نشره ويقفون مساعيهم علي بث عقائد بين المسلمين ، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسبتهم في المعاملة . وشهد العالم بأسره أن الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا واحسانا عند ما كان يعدها الاوروبيون ضعة وضعفاً .

رفع الاسلام ما ثقل من الاقوات ورد الأموال المسلوبة إلى أربابها وانتزاع الحقوق من مغتصبيها ووضع المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغير المسلم . بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل اسلام من داخل فيه الا بين يدى قاضى شرعى باقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا إكراه ولا رغبة في دنيا . وصل الأمر في عهد بعض الخلفاء الأمويين إنه كره أعمالهم دخول الناس في دين الاسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية وكان في حال أولئك الاعمال صد عن سبيل الدين لا محالة عرف عن خلفاء المسلمين وملوكهم في كل زمان فالبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة في كثير من

الاعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم إلى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى إسبانيا . اشتهرت حرية الاديان فى بلاد الاسلام منهاهجر اليهود أوربا فراراً منها بدينهم إلى بلاد الاندلس وغيرها .

هـذا ما كان من أمر المسلمين فى معاملتهم لما أظلوهم بسيوفهم لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم حملوا إلى أولئك الاقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين أيديهم وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه ، ولم يقوموا بينهم بدعوة ولم يستعملوا لاكراهم عليه شيئا من القوة . وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه . فما الذى أقبـل بأهل الاديان المختلفة على الاسـلام وأقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجا وبذلوا فى خدمته مالم تبذله العرب أنفسهم !

ظهر الاسلام على ما كان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية وتغلبه على ما كان فيها من رزائل الاخلاق وقبائح الاعمال وسيره بسكانها على الجادة القويمة وحقق لقراء الـكتب الآلهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبيه ابراهيم

واسماعيل وأن هذا الدين هو ما كانت تبشر به الانبياء أقوامها من بعدها فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلا إلى البقاء علي العناد فى مجاحدته فتقلوه شاكرين وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين .

أوقع ذلك من الريب فى قلوب مقلديهم ما حركهم إلى النظر فيه فوجدوا لطفاً ورحمة وخيرا ونعمة : لا عقيدة ينفر منها العقل وهو زائد الايمان الصادق ، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهى القاضية فى قبول المصالح والمرافق رأوا أن الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلى ويلحقها بالملكوت الأعلى ويدعوها إلى أحياء ذلك الشعور بخمس صلوات فى اليوم ، وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ويعد رضا الله ونيل ثوابه حتى فى توفية البدن حقه متى حسنت النية وخلصت السريرة . فاذا نزعت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الالهى ينتظره متى حسنت التوبة وكملت الأوبة .

تبدت لهم سذاجة الدين عندما قرأوا القرآن ونظروا

فى سيرة الطاهرين من حامليه اليهم وظهر لهم الفرق بين مالا سبيل الى فهمه وما تكفى جولة نظر فى الوصول الى علمه فترموا اليه خفافاً من ثقل ما كانوا عليه .

كانت الأمم تطلب عقلا فى دين فوافاها . وتتطلع الى عدل في ايمان فأتاها ، فما الذى يحجم بها عن المسارعة الى طلبتها والمبادرة الى رغبتها ؟

كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التى رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشؤون الادنين متى عرضت دونها شهوات الأعلين فجاء دين يحدد الحقوق ويسوى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لامير عظيم مطلق السلطان فى قطر كبير — وكان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجداً — فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى الى الخليفة فورد أمره برد بيتها اليها مع لوم الامير على ما كان منه . عدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثل على بن أبى طالب — وهو

من نعلم من هو — أمام القاضى ويستوقفه معه للتقاضى إلى الى أن قضى الحق بينهما . هو وما سبق بيانه مما جاء به الاسلام هو الذى حببه الى من كانوا أعداءه وردا اليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه .

غلب على المسلمين في كل زمن روح الافكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم الا بعد أن يحرجهم الجار ، فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم ثم لا يكون الا طائفاً يحل ثم يرتحل . فاذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ما التفته من اللين والمياسرة ومع ذلك بل وغفلة المسلمين من الاسلام وخذلانهم له وسعى الكثير منهم فى هدمه بعلم وبغير علم لم يقف الاسلام فى انتشاره عند حد خصوصاً فى الصين وفى أفريقيا ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الاخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه ، لا سيف وراء ولا داعى أمامها وانما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه مع قليل من حركة الفكر فى العلم بما شرعه . ومن هذا نعلم أن سرعة انتشار الدين الاسلامى واقبال الناس على

الاعتقاد به من كل ملة انما كان بسهولة تعقله ويسر أحكامه وعدالة شريعته. وبالجملة لان فطر البشر تطلب دنيا وتزداد منه ما هو أمس بمصالحها وأقرب الى قلوبها ومشاعرها وأدعى الى الطمانينة في الدنيا والآخرة. ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذاً والى العقول مخلصاً بدون حاجة الى دعاة ينفقون الأموال الكثيرة والأوقات الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لاسقاط النفوس فيه. هذا كان حال الاسلام فى سذاجته الاولى وطهارته التى أنشأه الله عليها ولا يزال على جانب عظيم منها فى بعض أطراف الارض الى اليوم.

قال من لم يفهم ما قدمناه أو لم يرد أن يفهمه أن الاسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة الا بالسيف، فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن باحدى اليدين والسيف بالاخرى يعرضون القرآن على المغلوب فان لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته. سبحانك هذا بهتان عظيم.

ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الاخبار تواتراً صحيحاً لا يقبل الريبة

في جملته وان وقع اختلاف في تفصيله وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعاً عن أنفسهم وكفا للعدوان عنهم ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ولم يكن من المسلمين مع غيرهم الا أنهم جاوروهم وأجاروهم ، فكان الجوار طريق العلم بالاسلام وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه .

لو كان السيف ينشر ديناً فقد عمل في الرقاب للاكراه على الدين والالزام به مهدوداً كل أمة لم تقبله بالابادة والمحو من سطح البسيطة مع كثرة الجيوش ووفرة العدد وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها . وابتدأت ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة واستمر في شدته بعد مجيء الاسلام سبعة أجيال أو يزيد . فتلك عشر قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام في أقل من قرن : هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة الا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاؤن تحت حمايته مع غيره يفيض من الافئدة وفصاحة تتدفق عن الالسنة وأموال تخلب أموال المستضعفين ان في ذلك لآيات للمستيقنين

جلت حكمة الله فى أمر هذا الدين سلسبيل حياة نبع فى القفار العربية أبعد بلاد الله عن المدنية فاض حتى شملها فجمع شملها فأحياها حياة شعبية ملية . على مده حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء فى رفعتها وتعلو أهل الأرض بمدنيتها . زلزل هديره على لينه ما كان استحجر من الأرواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها . قالوا كان لايخلو من غلب (بالتحريك) قلنا تلك سنة الله فى الخلق لاتزال بين الحق والباطل . والرشد والغى قائمة فى هذا العالم إلى أن يقضى الله قضاءه فيه . إذا ساق الله ربيعاً الى أرض جدبة ليحى ميتها وينقع غلتها وينمى الخصب فيها ، أفينقص من قدره أن أتى فى طريقه عقبة فملاها أو بيت رفيع العماد فهرى به :

سطع الاسلام على الديار التى بلغها أهله فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه إلا أن يسمعوا كلام الله اشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمناً وانحرفوا عن طريق الدين أزماناً ، فوقف وقفة القائد خذله الأنصار وكاد يتزحزح إلى ماوراءه لكن الله بالغ أمره ، فانحدرت إلى

ديار الاسلام أمم من التتار يقودها جنكيز خان وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل وكانوا وثنيين جاءو لمحض الغلبة والسلب والنهب ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الاسلام ديناً وحملوه إلى أقوامهم فعمهم ماعم غيرهم . جاءوا لشقوتهم فجاءوا بسعادتهم

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه إلا اشترك فيها واستمرت المجادلات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتى سنة جمع فيها الغربيون من الغيرة والحمية للدين مالم يسبق لهم من قبل ، وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة مابلغته طاقتهم وزحفوا على ديار المسلمين وكانت فيهم بقية من روح الدين فغلب الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة باجلائهم عنها . لم جاؤا وبماذا رجعوا ؟ ظفر رؤساء الدين فى الغرب باثارة شعوبهم ليبيدوا مايشاؤن من سكان الشرق أو يستولى سلطان تلك الشعوب علي ما يعتقدون لأنفسهم الحق فى الاستيلاء عليه من البلاد . جاء من الملوك والأمراء ذوى الثروة والأعلياء جم غفير وجاء ممن دونهم من الطبقات ماقدروه بالملايين . استقر المقام

بكثير من هؤلاء فى أرض المسلمين وكانت فترات تنطفئ فيها نار الغضب وتثوب العقول إلى سكينتها تنظر فى أحوال المجاورين وتلتقط من أفكار المخالطين وتنفعل بما ترى وما تسمع . فتبينت أن المبالغات التى أطاشت الأحلام وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة . ثم وجدت حرية فى دين وعلماً وشرعاً وصنعة مع كمال فى يقين وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الايمان لا من العوادى عليه ثم جمعت من الآداب ماشاء الله وانطلقت إلى بلادها قريرة العين بما غنمته من جلادها . هذا الى ما كسبه السفار من أطراف الممالك إلى بلاد الاندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها ثم عادوا به إلى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا وأخذت الأفكار من ذلك العهد تتراسل والرغبة فى العلم تتزايد بين الغربيين ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ونزعت العزائم إلى تقليد سلطان زعماء الدين والأخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه فى معناه ، ولم يكن بعد ذلك إلا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو إلى الاصلاح والرجوع بالدين الى سذاجته

وجاءت فى إصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام إلا قليلا ، بل ذهب بعض طوائف الاصلاح فى العقائد إلى مايتفق مع عقيدة الاسلام إلا فى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وان ماهم عليه إنما هو دينه لايختلف عنه إسما ولا يختلف معنى إلا فى صورة العبادة لاغير

ثم أخذت أمم أوروبا تفتك من أسرها وتصلح من شؤونها حتى استقامت أمور دنياها على مثل ما دعا إليه الاسلام غافلة عن عقائدها لاهية عن مرشدها وتقررت أصول المدنية الحاضرة التى تفاخر بها الأجيال المتأخرة ما سبقها من أهل الأزمان الغابرة . هذا طل من وابله أصاب أرضاً قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج جاء القوم ليبيدوا فاستفادوا وعادوا ليفيدوا . ظن الرؤساء أن فى إهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم وتقوية ركنهم فباؤا بوضوح شأنهم وضعضعة سلطانهم : وما بيناه فى شأن الاسلام ويعرفه كل من نفقه فيه قد ظفر به كثير من أهل النظر فى بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم وإلى الله عاقبة الأمور .

ايراد سهل الايراد

يقول قائلون . إذا كان الاسلام إنما جاء لدعوة المختلفين الى الاتفاق . وقال في كتابه « الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء » فما بال الملة الاسلامية قد مزقتها المشارب وفرقت بين طوائفها المذاهب ؟

إذا كان الاسلام موحداً ، فما بال المسلمون عددوا ؟

إذا كان موليا وجه العبد وجهة الذى خلق السموات والأرض ، فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا يستطيع من دون الله خيراً ولا شراً ، وكادوا يعدون ذلك فصلا من فصول التوحيد ؟

إذا كان أول دين خاطب العقل ودعاه إلى النظر فى الأكوان وأطلق له العنان يجول فى ضمائرها بما يسعه الامكان ولم يشرط عليه فى ذلك سوى محافظته على عقد الايمان ، فما بالهم قنعوا باليسير وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ظناً منه أنه قد يرضى الله بالجهل وإغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع ؟ ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم

يتنسمونها ولا يجدونها ، ما بالهم بعد أن كانوا قدوة فى الجد والعمل وأصبحوا مثلاً فى القعود والكسل ؟ ماهـذا الذى ألحق المسلمون بدينهم وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوه وبين مادعاهم إليه فتركوه ؟

إذا كان الاسـلام في قربه من العقول والقلوب على ما بينت ، فما باله اليوم على رأى القوم نقصر دون الوصول اليه يد المتناول ،

إذا كان الاسلام يدعوا الى البصيرة فيه فما بال قراء القرآن لايقرأونه إلا تغنيا ورجال العلم بالدين لايعرفه أغلبه إلا تظنيا ؟

إذا كان الاسلام منح العقل والارادة شرف الاستقلال ، فما بالهم شدوها الى أغلال وأى اغلال ؟

إذا كان قد أقام قواعد العـدل فما بال أغلب حكامهم يضرب بهم المثل فى الظلم ؟

إذا كان الدين في تشوف إلى حرية الارقاء ، فما بالهم قضوا قروناً فى استعباد الأحرار ؟

إذا كان الاسلام يعد من أركانه حفظ العهود والصدق

والوفاء فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء ؟

إذا كان الاسلام يحظر الغيلة ويحرم الخديعة ويوعد الغش بأن الغاش ليس من أهله ، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه

إذا كان قد حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن ، فما هذا الذى نراه بينهم فى السر والعلن والنفس والبدن

إذا كان قد صرح بان الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين خاصتهم وعامتهم ، وأن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وانهم ان لم يأمروا بالمعروف وينهو عن المنكر سلط عليهم شرارهم فيدعوا خيارهم فلا يستجاب لهم وشدد فى ذلك بما لم يشدد في غيره ، فما بالهم لايتناصحون ولا يتواصون بحق ولا يعتصمون بصبر ولا يتناصحون فى خير ولا شر ، بل ترك كل صاحبه وألقى حبله على غاربه فعاشوا أفذاذاً وصاروا فى أعمالهم أفراداً لايحس أحدهم بما يكون من عمل أخيه كأنه ليس منه وكان لم تجمعه معه صلة ولم تضمه اليه

وشيجة مابال الابناء يقتلون الآباء وما بال البنات يعققن الامهات. أين وشائج الرحمة. أين عاطفة الرحم على القريب أين الحق الذى فرض فى أموال الاغنياء للفقراء وقد أصبح الاغنياء يسلبون مابقى فى أيدى أهل البأساء

قبس من الاسلام اضاء الغرب كما تقول وضوؤه الاعظم وشمسه الكبرى فى الشرق وأهله فى ظلمات لايبصرون. أصح هذا فى عقل أو عهد في نقل ألم تر الى الذين تذوقوا من العلم شيئاً وهم من أهل هذا الدين أول مايعلق بأوهام أكثرهم أن عقائده خرافات وقواعده وأحكامه ترهات ويجدون لذتهم فى التشبه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم أحرار الافكار وبعداء الانظار ، والى الذين قصروا هممهم على تصفح أوراق من كتبه ووسموا أنفسهم بانهم حفاظ أحكامه وقوام على شرائعه كيف يجافون علوم النظر ويهزأون بها ويرون العمل فيها عبثا فى الدين والدنيا ويفتخر الكثير منهم بجهلها كان فى ذلك قد هجر منكرا وترفع عن دنيئة فمن وقف على باب العلم من المسلمين يجد دينه كالثوب الخلق يستحى أن يظهر به بين الناس. ومن غرته

نفسه بأنه على شيء من الدين وأنه متمسك بعقائده يرى العقل جنة والعلم ظنة : أليس في هذا ما يشهد الله وملائكته والناس أجمعين على أن لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين ؟

الجواب

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم بل من عدة أجيال وربما كان ما جاء في الايراد قليل من كثير . وقد وصف الشيخ الغزالي رحمه الله وابن الحاج وغيرهما من أهل البصر في الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات . ولكن قد أثبت في خاصة الدين الاسلامى بما يكفى للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن مع التدقيق في فهم معانيه وحملها على ما فهمه أولئك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم . ويكفى في الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات في التاريخ على ما كتبه محققو الاسلام ومنصفو سائر الأمم . فذلك هو الاسلام.

وقد أسلفنا أن الدين هدى وعقل . من أحسن في استعماله والأخذ بما أرشد اليه نال من السعادة ما وعد الله

فى اتباعه . وقد جرب علاج الاجتماع الانسانى بهـذا الدواء فظهر نجاحه ظهوراً لا يستطيع معه الأعمى إنكاراً ولا الأصم اعراضاً . وغاية ما قيـل فى الايراد أن أعطى الطبيب الى المريض دواء فصح المريض وانقلب الطبيب بالمرض الذى كان يعمل لمعالجتـه وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء فى بيته وهو لا يتناوله . وكثـير ممـا يعودونه أو يتشفون منه ويشتمون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضـه وهو فى يأس من حياته ينتظر الموت أو تبدل سنة الله فى شفاء أمثاله .

الشيخ محمد عبده والنياشين

حدث سنة ١٨٨٩ — أى منذ ٣٥ سنة — أن حكومة أسوج ونروج أهدت وساماً الى المرحوم الشيخ ابراهيم اليازجى ففى ١٢ يناير (كانون الثانى) من السنة المذكورة جاءنى وأنا فى بيروت كتاب من المرحوم الشيخ محمد عبده ولا يزال محفوظاً بين أوراقى . وفيه رأى الامام رحمه الله فى هذه النياشين فأنا أنشر الآن فقرة منه مأخوذة عن خط يد الاستاذ كما يأتى :

اعرضوا سلامى على حضرة الشيخ الجليل الشيخ ابراهيم افندى اليازجى وقولوا له قد كنت صممت بأن أهنئه على نيله نشاناً من ملك السويد والنرويج دليل على اعتراف ملك العلم لضريعه فى الفضل لكنى بعد ذلك رأيت أن هذه التمائم تناط فى هذه الايام بصغار الناس قبل كبارهم ويعنى بتعليقها ضعاف العقول منهم دون عقلائهم فكففت ذلك صوانا له عن توهم مثلى فى مثله إنه ممن يعنون بزينة غير زينة الفضل أو حلية غير حلية الكمال   أبلغ سلامى

أما تحرير الامام فهذه صورته :

« عزيزي حضرة الاديب الاريب سليم افندى سركيس حفظه الله . وصلتنى من لدنك رواية . . . وقرأت معظمها وان شاء الله آتى على آخرها وقد أجاد منشؤها ومشى مشية مشاهير الممثلين فيها ولولا ضيق وقتى لفضلت رأيى فيما حوته . ونشرت مذهبي فيما طوته . وأنى لك من الشاكرين على عنايتك بارسال مثل هذه الظروف الى . . . ولا تجعلوا ابطاء كتبي سبباً فى انقطاع كتبكم . (واعرضوا سلامى على حضرة الشيخ الجليل ابراهيم افندى اليازجى وقولوا له قد كنت هممت بأن أهنئه على نيله نشاناً من ملك السويد والنرويج دليلا على اعتراف ملك العلم لضريعه فى الفضل لكنى بعد ذلك رأيت أن هذه التمائم تناط فى هذه الايام بصغار الناس قبل كبارهم ويعنى بتعليقها ضعاف العقول منهم دون عقلائهم فكففت ذلك صوناً له عن توهم مثلى فى مثله أنه ممن يعنون بزينة غير زينة الفضل أو حلية غير حلية الكمال . وأعيد رجائى فى مؤاخرة كتبكم وصلتنا برسائلكم » الخ محمد

مصر فى ١٢ ينار سنة ١٨٨٩

« رسالة لصاحب الفضيلة المرحوم الشيخ محمد عبده »
« الى حافظ بك ابراهيم معرب كتاب البؤساء يشكره »

لو كان بى أن أشكرك لظن بالغت فى تحسينه . أو أحمدك لرأى لك فينا أبدعت فى تزيينه . لكان لقلمى مطمع أن يدنو من الوفاء بما يوجبه حقك . ويجرى فى الشكر إلى الغاية كما يطلبه فضلك . لكنك لم تقف بمرفقك (١) عندنا . بل عممت به من حولنا . وبسطته على القريب والبعيد من أبناء لغتنا . زففت إلى أهل اللغة العربية . عذراء من بنات الحكمة الغربية . سحرت قومها . وملكت فيهم يومهم . ولا تزال تنبه منهم خامداً . وتهز فيهم جامداً . بل لا تنفك يحيي من قلوبهم ما أماتته القسوة . وتقوم من نفوسهم ما أعوزت فيه الاسوة (٢) حكمة أفاضها الله على رجل منهم فهدى إلى التقاطها رجلا منا فجردها من ثوبها الغريب . وكساها حلة من نسج الأديب . وجلاها للناظر وحلاها للطالب . بعد ما أصلح من خلقها . وزان من معارفها حتى ظهرت محببة إلى القلوب رشيقة (٣) إلى مؤانسة البصائر . تهش للفهم . وتبش للطف

(١) بفتح الريح الطيبة (٢) بالكسر والضم القدوة (٣) اللطيفة

المذوق وتسابق الفكر إلى مواطن العلم فلا يكاد يلحظها الوهم الاوهى من النفس فى مكان الالهام

حاول قوم من قبلك أن يبلغوا من ترجمة الاعجم مبلغك فوقف العجز بأغلبهم عند مبتدأ الطريق ووصل منهم فريق الى ما يحب من مقصده ولكنه لم يعن بأن يعيد الى اللغة العربية مافقدت من أساليبها ويرد اليها ماسلبه المعتدون عليها . من متانة التأليف وحسن الصياغة وارتفاع البيان فيها الى أعلى مراتبة . . . أما أنت فقد وفيت من ذلك مالا غاية لمريد بعده . ولا مطمع لطالب أن يبلغ حده ولو كنت ممن يقول بالتناسخ لذهبت الى أن روح ابن المقفع كانت من طيبات الأرواح . فظهرت لك اليوم فى صورة أبدع . ومعنى أنفع . ولعلك قد سننت بطريقتك فى التعريب سنة يعمل عليها من يحاوله بعد ظهور كتابك ويحملها الزمان الى أبناء ما يستقبل منه فتكون قد أحسنت الى الابناء . كما أجملت فى الصنع مع الاباء . وحكمت للغة العربية أن لايدخلها بعد من العجمة سوى ماهو فى الاسماء أسماء الاماكن والاشخاص لاأسماء المعانى والاجناس . ومثلى من يعرف قدر الاحسان

اذا عم . ويعلى مكان المعروف إذا شمل ويتمثل فى رأيه بقول الحكيم العربى

ولو أنى حييت الخلد فرداً　　لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت[١] على ولا بأرضى　　سحائب ليس تنتظم البلادا

(١) نزل مطرها

فقيد القضاء والعلم



احمد فتحى زغلول باشا

جزء الثانى صحيفة نمرة ١١٤

٤

فقيد القضاء والعلم

المرحوم

أحمد فتحى زغلول

المختار من نثره

عوائد الافراح

إن حرص الانسان على منافعه الذاتية العاجلة منها والآجلة حمله على أن يستبشر لخير أعوانه ونصرائه وينقبض إذا نالهم ضيم أو مسهم سوء فعلى هذا يكون سرور الانسان عند النعمة وبؤسه عند النقمة أمراً طبيعياً لا اختيار له فيه فلا مجال للتنديد أو الثناء على مايختلج فى الفؤاد ويظهر على الجوارح فى السراء والضراء إذ لايعاب على الانسان ولا يمدح إلا بما صدر منه عن الاختيار والارادة ولأجل هذا نجعل كلامنا الآن متعلقاً باختياراته فى هذين البابين ليصادف النهى والترغيب موضعاً فنقول

ترى الناس على اختلاف مواقعهم في المديريات والاقاليم متعودين فى الأفراح أمورا كثيرة بعيدة عن الآداب ومخالفة ماجاء من أحكام الشريعة ولنأت على بعض مافى حافظتنا الآن منها معترفين بأنه قليل من كثير فى جانب مرتكباتهم التى ضيق صدر الانسان عن سردها لأننا اذا تتبعنا مايفعل قبيل

زفاف العروسين إلى مابعد الدخول نجد أموراً كثيرة نجهل بالحقيقة مبدأ ظهورها وعلة تداولها كا(لبلصة وحل الدكة وإزالة البكارة بالاصبع وصلاة ركعتين وقتئذ على قميص العروس وأن يكون بغير وضوء) وبيان ذلك ببعض التفصيل

أن أبوى البعل هما اللذان يختاران فى الغالب زوجة لولدهما غير ملاحظين فى شروط انتقائها إلا أن تكون عشيرة تعادلهم فى النزوه والصيت أو تزيد عنهم فيهما فان ظفروا بذلك سارعوا إلى خطبتها وإن كانت خبيثة الذات قبيحة التربية وكرهوا الولد على قبولها إن لم يتحد معهما مقصداً ولا يخفى مافى ذلك من النتائج المضرة بالزوجين معاً. ويدفعان من الصداق ما يرضى أبويها ولو حملها ديناً باهظاً وكلفها حملا ثقيلا . وإذا أتى وقت الدخول بها توجهت نسوة ورجال عديدون من أقرباء الزوجة إلى منزل الزوج وأخذوا ما يكفيهم من السمن والعسل والقمح والدقيق وغيره (من غير أن تأخذهم شفقة على عويل أهل المنزل وصراخهم) ليعدوه طعاما ليلة الزفاف . وبعد ذلك إذا اراد آل الزوج أن يأتوا إليه بمخطوبية تتبعهم جموع كثيرة فئة تضرب بالسلاح . وقوم يلعبون الحطب . وجماعة

تتسابق على ظهور الخيل ولفيف من النسوة والفتيات يترنمن بأصوات يجدها السامع أنها منبعثة عن متوحشات أفريقيا الجنوبية وهذا مع اختلاط الذكور بالاناس والصغار بالكبار حتى إذا جاؤا بيت الزوجة وأرادا حملها على الهودج المعد لزفافها كان دون فتح القاعة التي هي فيها صعوبات أخفها تمنع أخيها أو خدمها عن فتحها حتى ينقده والد الزوج ما يرضيه من النقود وكذا يرضى جميع خدم ابيها وحاشيته وهذا هو المسمى عندهم (بلصة) وأما والدة الزوجة فان كسوتها يبعثها إليها الزوج قبل الزفاف بنحو شهر على شرط أن تكون مصارعة لكسوة عروسه وإلا ردت اليه وطولب بأثمن منها هذا وقبـل أن تخرج بالعروس الى هودج الزفاف نعود بالقارئ إلى ما يفعل بها صبيحة اليوم التى تزف في مسائه إلى وقت الزفاف فنقول :

قبيل شروق الشمس من هـذا اليوم تأتى الماشطة وتخضب قدمى العروس وكفيها بالحناء على شكل خطوط متقاطعة ثم تدعها واضعة قدميها على لبنتين من الطوب الأخضر مكشوفة الأطراف وليس عليها سوى قميص

رقيق محفوفة بلفيف من الفتيات يصرفن الوقت فى الترنمات واللعب فان حان وقت العصر غسلتها الماشطة وسرحتها وألبستها ثياب الزينة والزفاف وفى هذا الوقت تخرج نسوة عديدات من أقاربها ويمررن بأنحاء القرية مثنى وثلاث رافعات الأصوات بألفاظ يحسبنها ترنماً وكلما مررن بباب منزل وقفن قليلا لتخرج من فيه من النساء وتقابلنهن بالزغاريد وعند اجتيازه يخترن من النساء اللاتى فى المنزل أجملهن ذاتاً ويدعونها إلى بيت العروس لتحضر العشاء فتتقاطر المدعوات أفواجا إلى بيتها وكلما دخلت منهن واحدة وضعت بين ثدييها ماأتت به من النقود وهذا هو المسمى (نقوط) ثم ينصرفن إلى منازلهن بعد العشاء ولا يعدن إلا وقت زفاف العروس

عود على بدء — حيث تخرج العروس من منزل أبيها تكثر طلقات الأسلحة النارية ويعلو صوت المغنيات ويشتد رعد الطبول وتنتشر الغوغاء ويتصاعد العثير المنبعث عن حوافر أفراس السباق على وجوه المارة بالموكب وثيابهم . ويزيد صراخ الأطفال الساقطين تحت أرجل الناس من

الازدحام إلى أن يقرب الموكب من بيت الزوج فيعرج سائق الجمل المقل الزوج عن الطريق الموصل إلى البيت وتتبعه الجموع حتى يرضيه الزوج بما لا ينقص عن أجرة الجمل شهرين أو ثلاثة فيرجع عن جموعه وتدخل العروس وأثاثاتها إلى منزل العريس وبعد ذلك يأخذ فى زفاف الزوج على هيئة زفاف عروسه خلا أنه لا يحمل على جمل بل يمشى راحلا وأمامه المدففون والزامرون ولكن بعض الناس الآن (وهم وجهاء البلاد) اتخذوا الذكرين (أبناء الطرق) بدلا عن الزامرين والمدففين — فهم الذين يؤلفون موكب العروس ويخترقون كثيراً من القاذورات رافعين أصواتهم بذكر الله طائفين حول البلد على غير خشوع وأدب . هذا فضلا عن كون كثير من النسوة والاطفال يقطعن صفوفهن لشدة الزحام حتى إذا بلغوا المنزل دخل الزوج قاعة العروس لفض بكارتها فيجد عندها والدتها واثنين معها على الأقل غير القابلة فيفترش قميصها ويصلى عليه ركعتين والغالب أن تأديتهما تكون على غير وضوء . وإذا نهض إلى فض البكارة مانعته أم عروسه وطلبت منه مبلغا قبل أن يحل رباط سراويل العروس

هذا مايدعى (حل الدكه) وإذ ذاك تزدحم أقدام الشبان والنساء على باب القاعة وتصطف الرجال على سطوح البيت بالبنادق والقربانات وترتفع أصوات القائمين على باب القاعة بكلمات قبيحة المدلول يعنون بها خطاب الزوج مع تصفيق شديد ورقص وتواثب عنيف كأنهم يحثونه على السرعة فى تنجيز فض البكارة ويشرحون كيفية الوصول إلى ذلك وإن تراخى ولو قليلا أخذا فى التنديد عليه فيفض بكارتها بأصبعه على مرأى من النسوة الحاضرات وقد يكون الزوج صغير السن أومرتجفاً فتنوب القابلة عنه فى ذلك (شئ قبيح لاترضيه الشريعة ولا يقبله الذوق) وبمجرد خروجه من القاعة تتدفق النار من أفواه البنادق والقربانات ثم تدخل النساء المديدات عند الزوجة ويأخذن القميص الملوث بدم البكارة ويحملنه بين أيديهن ويدرن حول البلدمرة أومرتين فرحات راقصات فيعرضنه على جميع المنازل والبيوت وينشدن فى طريقهن هذه العبارات متتابعة بصوت مرتفع (بيضتى الشاش ياعروسه) ومعناها حبذا بك من عروس لم تدنسى عرض أبويك فان هذا الدم الذى نحمله بين أيدينا يدل على

أنك مصونة العرض طاهرة الذيل وكفى أبويك شرفاً بهذا) وبعد ذلك يحفظن هذا القميص فى منزل أبويها ولا يسمحن بغسله إلا بعد شهر على الاقل ليكون حجة على طهارة عرض أبويها

وأما الزوج فانه عند خروجه من عند زوجته لا يباح له العودة اليها ثانية الا قبل الفجر ثم مع ذلك يجب أن يبكر فى القيام من النوم صبيحة تلك الليلة ليجلس مع المهنئين طول نهاره وهكذا ثلاثة أيام فى هذه المدة تأتى اليه الأصحاب من البلدة وغيرها بالنقود كل على قدر ثروته أو الاولى يدفع اليه كل واحد قيمة ماأخذ منه فى أفراحه السابقة وبعد هذا ينتهى الفرح ويذهب كل واحد من الناس الى عمله حتى العروس

تلك بعض عاداتنا فى الافراح حفظناها حيث ننظرها من النوافذ المطلة على شوارع المدن والبنادر وتمر بين أيدينا ونحن جلوس على قارعة طرق الأرياف و (مصاطبها) يقوم بشعارها الصغير والكبير ولا ينكرها الجاهل والعالم ولا ترى من يزجر النساء عن الاجتماع بالرجال مع مشاهدتهم ماينشأ عن الاختلاط من الفسق والفجور وكأنهم لم يعاسوا

أن فض البكارة بالاصبع وكشف العورة بمحضر جمع من النسوة أمر منكر في الشرع ومستقبح بالعقل وإن القابلة تستحق العذر والتأديب على النظر إلى عورة غيرها فضلاً عن أن تزيل هى غشاء البكارة بنفسها وكانهم ذهلوا عما ورد فى الشرق وأجمعت عليه الائمة من أن الصلاة بغير وضوء من المحرمات المغلظة هذا إذا لم يعتقد حل ذلك وإلا فيحكم عليه بالكفر حتى لم ينهو العروس عن صلاة تينك الركعتين بغير وضوء

وبالجملة فان كثيراً من العادات التى شرحنا هالك أن لم نقل كلها مما لا ينطبق على قاعدة شرعية أو أصل عقلى بل مصدرها أهواء فاسدة وميول سخيفة شأن كل قوم انتشر بينهم جيش الجهل وأقل من ربوعهم بدء العلم فيفعلون ماتحدثهم به شهواتهم من غير شعور بما يترتب عليه من القبيح والضار

نعم اننا نعترف بأن كثيراً من عادات الافراح السابقه قد درست مراسمها وان النبلاء فى القرى والبنادر أخذوا يقللون من تلك العادات شيئاً فشيئاً وأن البعض منهم قد

قدر على أزالة معظمها أذا عمل فرحاً فى بيته ولكن ذاك التقليل وهذا التهذيب لا يكفى بالنسبة لحالتنا الراهنة فان قطرنا الآن يحسب فى عدد البلاد المتمدنة لاسيما وقد ملاته الاغراب والسائحون من الامم العريقة فى التمدن فمن العار أن يرونا مساوين فى العادات لقوم وحشيين لم تطرق آذانهم حكم شرعية ولم يشمو رائحة المعارف ولم تنور بصائرهم أشعة العلم فيرمونا بالجهل وينظروا الينا مستهزئين ونحن لانقوى على رد دعواهم لكونهم ينطقون عن معانيه ، واما تنزه أفراد قليلين عن تلك العادات فلا يعد عنواناً لاقليم يحتوى على الملايين من النسمات على أنهم وأن خلعوا بعض هذه العادات لكنهم جددوا لهم عادات أخرى حتمت عليهم الاسراف والتبذير وصرف المصاريف الجسيمة في مالا يعود بطائل مع أن تلك النقود الوافرة لوحفظت للعروسين لكانت رأس مايضمن لهما حسن المعيشة أن أحسنا فيه التصرف فهذه العوائد الجديدة ليست أقل فى الفساد من تلك العوائد الوحشيه أصلح الله حالتنا آمين

فوائد المصاهرة

لايخفى ان أحكام الشريعة المقدسة ترشدنا الى أن المصاهرة نوع من أنواع القرابة تلتحم به العائلات المتباعدة فى النسب وتتجدد بها صلات الألفة والاتحاد فقد حرم الله على الشخص أن يتزوج بأم زوجته أو بأنثى من أصولها وفروعها كما حرم عليه أن يتزوج بأمه أو أنثى من أصول نفسه وفروعه وكذلك حرم على زوجته أن تقترن بشئ من أصوله أو فروعه فكأنما أنزل الله كلا من الزوجين منزلة نفس الآخر حتى أنزل فروع كل منهما وأصوله بالنسبة إلى الآخر منزلة أصول نفسه وفروعه فهذه حكمة بالغة أقامها الشرع لنا برهاناً واضحاً علي أن اتصال إحدى العائلتين بالاخرى بطريق المصاهرة مساو لنفس القرابة النسبية فى الأحكام والحقوق والاحترام وهذا هو الموافق لما عليه طبيعة الاجتماع الانسانى ولازم لرابطة القرابة النسبية بالطبع .

فاننا قد ذكرنا فى جملتنا السابقة أن حكمة الزواج كما نص عليه علماؤنا إنما هى حفظ النوع ووقاية الوجود البشرى من خطر الفناء والزوال وبينا ان هذا إنما يكون باطمئنان كل من الزوجين إلى الآخر وتوجههما معاً إلى غاية واحدة وهى حفظ أنفسهما وحفظ نسلهما وإعداد جميع مايلزم لوقايته وانمائه وإبلاغه الحد الذى يستقل عنده بالسعى فى حفظ وجوده ويطلب من أسباب بقاء النوع ماطلبه والداه فمن كانت له إبنة وهو يميل اليها ميل الوالد إلى ولده وقضت سنة الله فى خلقه بأن يقترن بها شخص من الناس فبمقتضى محبة الوالد لابنته أن يطلب لها جميع الخيرات ويود لو بلغت أقصى درجات السعادة وحيث أن سعادتها لا يبعد أن تكون بدون سعادة زوجها الذى هى مقترنة به فمن الواجب عليه أن يميل الى زوجها ميله الى نفسها وتكون عوناً له على سعادته لتصل بها سعادة ابنته وهكذا كل من ينتسب اليها بنوع من القرابة فعليهم أن يكونوا على طراز من المحبة لزوجها مثل ماهم عليه بالنسبة اليها فلو سعى أحد منهم فى تكديرها لامحالة

وهكذا يجب على نفس الزوج وأقربائه لنفس الزوجة وأقاربها مثل تلك الواجبات فيلزم أن تكون المصاهرة سبباً حقيقياً فى ارتباط العائلات وتوجب على كل من العائلتين للاخرى مثل ما توجب القرابة النسبية على كل من أعضاء العائلة للاخرى وعلى هذا جرت عوائد الامم التى كنا نسميها وحشية فى الازمنة السابقة ولاتزال عوائدها على ذلك إلى هذا الوقت فى الاقطار التى لم يشرفها اسم التمدن فلا تصاهر قبيلة أخرى إلا اذا أرادت أن تدخل معها تحت ميثاق واحد تكون به كل منهما عوناً للثانية على دفع جميع المكاره وجلب كافة المألوفات ولو أن دماء سفكت بين قبيلتين وعداوة تمكنت فى نفوس جميع أفرادهما أزمنة طوالا ثم تلو مفارقة الحروب وكلوا من مقارعة القتال وطلبوا الراحة الدائمة والسلم المستمر لم يجدو وسيلة تقطع عرق العداوة ويستبدل برباط المحبة الا أن يتصاهر القبيلتان فتصيران كذى نسب واحد ويتناسى بذلك ما كان من أمر العداوة

وهكذا كانت السنة فى البلاد المتمدنة ولم تزل عليها

إلى اليوم يعدون المصاهرة علاقة تامة من علائق القرابة حتى أن الملوك تتخذها واسطة سياسية لاستمالة كل من الدولتين إلى الاخرى فانتقل أمر المصاهرة وعظم شأنها حتى عدت رابطة بين الامم المتنافرة كما تقضيه الطبيعة وتشير اليه الشريعة

غير أن جميع هذه الفوائد الجليلة التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى عقد الزواج والمصاهرة انما تتوفر للانسان يتمتع بها إذا دوعى فيه حكمته الاصلية واتبعت فيه الاصول الشرعية وعلم كل من الزوجين علم اليقين انه لم ينضم إلى الاخر إلا ليكون ركناً من أركان سعادته وعوناً له علي البلوغ به حد الكمال وهذا إنما يكون إذا حسنت تربية كل من الذكر والانثى وتحلت نفوسهما بالفضائل وعقولهما بالمعرفة الحقة حتى عد والذة الاجتماع وسيلة وطريقة الى ذلك الخير الكلى أعنى التعاون والتعاضد على حفظ الذات الشخصية والنوع الكلى عنى حفظ الذرية فان هذا التصور يستدعى نظراً عاماً وتدلعاً لغاية كلية نفنى عندها جميع الغايات الجزئية فتتوجه همة كل من المزدوجين الى جلب المصالح

ودرء المفاسد وعلى ذلك تكون غرائم الانسباء والاقرباء لكل منهما مراعاة لغاية المحبة الرحمية عينها كما بيناه أولا

لكن إذا كانت أهالى البلاد منصرفة العقول عن رعاية الحكم الالهية قاصرة الاذهان فلا تنظر إلى اللذائذ الوقتية الآتية. رأيت أسباب كلية تنقلب عندها الى أسباب عداوة ونفور ألا ترى أن المصاهرة التى وصفها الله من أقوى أسباب الارتباط وأنزلها منزلة النسب كيف صارت عند غالب الناس فى بلادنا سببا للمداوة والتقاطع الشديد والسبب فى ذلك قصور التربية ونقص العقول فقد يتزوج الرجل من عائلة فتكون عند الزواج وقبله بقليل علاقات المحبة أكيدة وصلات الوداد نامية حتى اذا مضى بعد الزواج أمد غير بعيد رأيت نوعا من المناقشات يبدو ويظهر غالباً بين أهل الزوج وزوجته فتأخذ تلك المناقشات مأخذاً من قلب الزوجة إما لسوء معاملة أهل الزوج حقيقه فان كان الاول فهو من قصور تربيتها ونقص فطرتها وان كان الثانى فهو من حماقة الاهل وفساد نظرهم وعلى كل الحالين فمتى وصل الخبر آذان أهل الزوجة أخذ من قلوبهم ما أخذ من

قلبها وهكذا يتزايد النفور حتى تنقلب تلك المودة الاولى بعداوة تقضى على كل من العائلتين المتصاهرتين بالسعى في كيد الاخرى ونكبتها وهكذا لو سرت فى أطراف بلادنا خصوصا فى الجهات الريفية لافرق فيها بين الاوساط وذوى الشرف لرأيت هذه الحالة غالبية فكأن من يريد المصاهرة يطلب أن يتخذ لنفسه أعداء ومباغضين واننا لا نتأسف فى ذلك على مايكون بين العائلات أو الاشخاص من العداوات والمنافسات اذا بقى ضرورة قاصراً على مابينهما من المصالح الجزئية ولكن الضرر الكلى هو ان روح العدواة متى نفث روح الاشخاص وفشا فى نفوس العائلات تعدى شره الى المصالح العمومية وتوجهت نفوس الافراد الى حب الاختصاص بالمنافع وانصرفت الهمم عن وجهة حب الخير الانسانى فتكون أعضاء الهيئة الاجتماعية مختلفة النظام بما بين أعضائها من الفساد فتلك المنازعات الجزئية يظهر تأثيرها فى الهيئة الاجتماعية الكلية حتى اذا عرض أمر الخير أو الشر واحتاج الى التروى والتشاور فيه لتقرير مايدفع الشر أو يجلب الخير

رأيت تلك المناقشات الشخصية تحول بين الآراء والصواب وظهر ذلك النفور الذى ابتدأ من المصاهرة بما يقوم مقام النفور الذى توجبه المباينة فى الجنس أو المخالفة فى المشرب فما بالنا لا نتخذ الاسباب الطبيعية الاعتيادية التى وضعت لجمع الكلمة والتئام المتفرق وسيلة لما وضعت له معتبرين فى ذلك بما يرشد إليه الشرع القويم أو أحوال الأمم المتمدنة أو آثار القبائل المتوحشة وما بالنا ضربنا صفحاً عن مراعاة وسائل الألفة والوئام مع أننا أشد الناس احتياجاً إليها

نعم هناك سبب واحد هو الذى أوجب هذا بل وغيره من الأمور الغير مرضية وهو نقص التربية العمومية وعدم جريانها على طريقة شرعية كاملة وأن موضوع التربية لميدان أوسع تتسابق الأقلام فيه وأننا إن شاء الله نعود اليه فهو الذى يليق أن تصرف إليه الافكار وتستجلب اليه الانظار

أختلاف الناس في المقاصد والأعمال

من الناس من تلوح له المنفعة الخصوصية ضمن منفعة عمومية فلا يلتفت إلى الاولى ويجد فى إخراج الثانيةالى عالم الوجود قصد أن ينفع أبناء جنســه أونوعهأوصنفه أو وطنه على حسب تفاوت أفراد الرجال فى علو الهمم وبعد النظر ومثل هذا وان كان وجوده فى العالم الانسانى غير مستحيل الا أنه لايكاد يوجد فى كل طبقة من طبقات التاريخ الرومانى إلا أفراد قليلين جداً ان لم نقل أن وجوده عقلى . ووجود مدينة أفلاطون الكاملة حيث وصفها بأوصاف قلما تكون متحققة بها كلها فى عالم العيان ولكننا مع ذلك لايسعنا أن ننكر أنه وجد ويوجد فى كل زمان أناس يقربون من مثل هذا قرباً يكاد يجعلهم من هذا القبيل يفضلون المصلحة العامة ويخدمونها على قدر ما يصل إليه إمكانهم ويبذلون نصحهم للكافة ويسهرون الليالى الطوال طلباً لترقية أبناء نوعهم وإنقاذهم من الهمجية ولم ينلهم من السعى فى هذا السبيل غرض من الأغراض فعاشوا فقراءوهم يحصلون لاخوانهم الغناء وقضوا حياتهم فى الخمول وهم يطيبون لجنسهم الرفعة

وماتوا كذلك غير مبالين بما لحقهم فى هذه الاعمال من المشقات والمقاومات والمعارضات وهذا القسم على كل حال نادر الوجود إن وجد منه في أمة عدد قليل بلغت به أوج الكمال وتحلت بشعائر المدنية بين الامم ورمقتها الاعين بالهيبة والاجلال ، ومن الناس من يطلب فائدة نفسه الخاصة من طريق منفعة العموم فتكبر نفسه عن أن يحصل لها شيئاً مخصوصا بدون أن ترجع منه مصلحة لمواطنيه بحيث لو عرضت له منفعة ولم يكن فى ضمن المنفعة العامة تنحى عنها ورمقها بعين الاستصغار وطلبها من الطريق الثاني علما منه بأنه فرد من الهيئة الاجتماعية تعود منافعها عليه بحكم الضرورة والوجدان إلا أن هذا القسم تختلف مطالبه فنوع منه يظهر بأول النظر أنه مقتصر على جلب العموميات وهو من يكون مطلبه وغرضه من العقليات كالشهرة والجاه وبعد الصيت وتجليد الذكر بعد الموت إلى غير مما ذلك يقصده العقلاء ولا تلتفت إليه العامة من الناس . ونوع آخر منه تظهر ثمرات جده وتعبه عليه كما تظهر على بقية اخوانه ومواطنيه الذين كان سعيه لاجلهم وكان هو واحد منهم فى اجتناء

الفائدة ومع ذلك فكل من النوعين يلتقى مع صاحبه في أنه خدم العامة وخدم نفسه على أنه واحد منها بدون أن يفضلها على واحد ممن عمل لاجلهم وكلما أبرز عملا من أعماله إلى عالم الظهور وأحست العامة بلذته وفائدته زادت الناس في الاقبال عليه فيجد فى العمل ليتمكن فى نفوسهم من المنزلة والاعتبار وقد يكثر هذا القسم بنوعيه فى بعض البلاد فيكون بين أهليها بمنزلة الوالد الرحيم أو المربى الشفوق يقتدى بأعماله ويهتدى بأقواله فيأخذ عدده فى الازدياد وكلما كثرت أفراده انتقلت الاهالى الي مرتبه جديدة من الاخلاق تحبب اليهم منافع اخوانهم وارتقت البلاد الى درجة من التقدم والتمدن وهكذا الا أن تبلغ غاية تكون بها فى عداد الممالك المتمدنة وبحسب أهلوها من الامم المتقدمة ونسبة تقادم الممالك فى التمدن هو على نسبة تباعد الازمان التى ظهرت فيها أمثال أولئك الرجال فكلما كان زمنهم بعيد كانت الامة أعرق فى التقدم وأدخل فى باب الانتظام

ومن الناس من يقتصر على اجتلاب ماله فيه المنفعة الخاصة ولا يكون من همه اصلاح العموم ولكنه مع ذلك

لا يحب ضرر غيره بحيث لو عرضت له منفعة وكانت تضر سواه تحاشاها وتباعد عنها فلا يرضى بخير نفسه إن ترتب عليه الاضرار بأحد من الناس ومثل هذا وان كانت همته قاصرة ونظره لا يتجاوز ذاته إلا أنه لا ينتج من وجوده ضرر بالعباد ولا خلل فى البلاد بل يمكن أن يقال أن هذا القسم تعود منه أيضا فائدة للعموم بأنهم أن أحبوا ذواتهم لا يرضون كما قلناه بمضرة سواهم ومن كانت هذه صفاته لا يسعه إلا أن يجد ويجتهد فى أسباب الثروة والغناء لنفسه وليست الطريقة الموصلة له إلى هذه الغاية إلا طريق الاقبال على الاعمال البدنية وتوجيه الفكرة الى توسيع تجارتهم وَصنائعهم ولابد لهؤلاء من أن يغبطهم مواطنوهم ومعاشروهم فيسيروا سيرهم وينسجوا علي منوالهم فتتمهد بواسطتهم سبل العمران وتتقدم الحرف وتنمو التجارة والزراعة والصناعة وينجم عن سعيهم فى منافعهم الخاصة فوائد عمومية وان كانت غير مقصودة لهم بالذات وكانوا غير ناظرين اليها فى أصل السعى المخصوص

ومن النـاس من لا يحب الا ذاته فلا يبالي فى جلب

منفعته بأضرار غيره وماعليه صلح الناس أو فسد النظام بل من من هذا القسم من يحب الافساد ويجتهد فى التخريب لاجل أن ينال فائدة وهمية أو خيالية ومثل هذا من الجهل المركب والغباوة الكلية بمكان عظيم وهو الداء العضال فى جسم الهيئة الاجتماعية الذى يجب استئصاله من عالم الوجود وهو التشويه الظاهر فى وجه العالم الانسانى والعضو الاشل فى بدن الامم تلزم ملاشاته بالمرة لتستريح منه الممالك والبلدان

ولقد كانت البلاد المصرية محلاة بوجود الاقسام الثلاثة الاولى من الرجال وكانت لذلك نهضت منهجاً معتدلا سارت به بين الامم موفقة بين مصالحها من الممالك حتى ظهر فيها القسم الاخير الشرير وهو الفئة العسكرية الباغية الطاغية قاتلها الله فأخذ يسعى لمقصده المنحط غير ميال بما يلحق البلاد من الاضرار ، والانفس من الهلاك ، والاموال من التلف والضياع ، وانتشرت أفراده فى القطر تقتلع أصول بزرته وتبتلع مادة حياته وتجتث جذور الاصلاح التى غرستها أيدى الرجال النافعين . وقد استعملوا كل طريق من طرق الشر للافساد والحصول على أغراض شخصية دنيئة لا يقصدها

الا الاشرار فعطلوا سبل التجارة وأقفلوا أبواب الصناعة وقطعوا طريق الزراعة وفتحوا أبواب الوحشية والهمجية وأبادوا النظام وأخلوا بأوضاع الترتيب التى أسسها عقول الناصحين ولكن قد أبى الله إلا أن يتم ما أراده لهذه البلاد من الخير على رغم تلك العصابة الضالة

ماهية اللغة

الفكر حركة نفسية يحتاج فى ظهوره الى معونة الجهاز المخصوص الذى يكون به الكلام . وعليه فالكلام هو حركة ذلك الجهاز المنبعثة عن مجرد الطبع أو المدفوعة بالارادة للتعبير عن حركة من حركات النفس ينتج من هذا أن الكلام يتنوع باختلاف الشارات التى تدل على الافكار وأن تلك الشارات تنقسم الى قسمين : طبيعية وصناعية

فالاولى هى التى تصدر عن الذات من حيث هى . أى بمقتضى وجودها المادى : وكل اشارات هذا القسم عرضية مثل شارات اليد والرأس والعين وبقية الاعضاء ومثل الاصوات التى ليست ألفاظاً والكلام أى النطق

والثانية خارجة عن الذات وهى تحدث من تأثير الانسان فى الماديات الخارجة عنه . وكل شارات هذا القسم جوهرية بمعنى أن لها دواما طويلا كان أو قصيراً كالأعلام والرسم والحفر والكتابة

ومما تقدم يتبين أن الكلام الطبيعى عام لكونه مفهوما بذاته من جميع الناس ومن الحيوان أحياناً كما هو الحال بالنظر

لشارات الاعضاء وأصوات الغضب أو الاستحسان من غير أن يكون هناك اتفاق سابق على مفهوم تلك الشارات

وعلى خلاف ذلك الكلام الصناعى أو الاتفاقى لانه عبارة عن مجموع الالفاظ المخصوصة الموضوعة للمعانى المخصوصة وعن التراكيب أو الصيغ الناتجة من تأليف هذه الالفاظ لتوصل الى الذهن بواسطة الاذن أو العين معانى مخصوصة متفقاً عليها

وقد يتأتى أن يكون الكلام الصناعى عاما أى أن كل الناس يدركون المراد منه كالرسم مثلا ومن هذا يتضح خطأ تعريفهم اللغة بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم

والصحيح أن اللغة هى مجموع العاديات المخصوصة التى تجرى عليها كل أمة فى التعبير عن أغراضها بواسطة الكلام أو الكتابة وتقدم بيان معنى الكلام

ولا يصح اطلاق اسم اللغة على ذلك المجموع الا اذا كانت النسبة تامة بين اللفظ ومدلوله الا أن قوة اللغة متواقفة على شدة المطابقة بحيث أن الاذن أو العين ترسم في ذهن السامع أو القارئ صورة المدلول كما هى ولا يتم ذلك الا باجتماع شروط ثلاثة

(الشرط الاول) أن يكون لكل مدلول علامة خاصة به تدل عليه دائماً ولا تدل على غيره أبداً

(الشرط الثانى) أن تكون هذه العلامة قابلة للتغير بتغير المدلول وتبعاً له

(الشرط الثالث) أنها تكون قابلة للاشتقاق كمدلولها فاذا اشتق منه مدلول اشتق منها علامة دالة عليه بالشروط عينها .

وبناء على ما تقدم تكون شروط اللغة الحقيقية بهذا الاسم ثلاثة أيضاً :

(الاول) أن يكون تعبيرها محكما وذلك عبارة عن اتمام المطابقة بين الدال والمدلول ولا سبيل الى هذا الا اذ سهل استعمال اللفظ على قدر المعنى ولم يزد المعنى عن اللفظ المستعمل لاجله وهذا الشرط صعب التوفر فما وفقت لغة حتى الآن لنوال هذه المزية اللهم الا لغة علماء الرياضة بل أن اللغات الاخرى لن تنالها أبداً

(الثانى) الملابسة تقتضى تحليل الفكر الانسانى وذلك غير ميسور عادة فى اللغات الاصلية الا نادراً .

(الثالث الوضوح التام وهو يرجع للشرطين السابقين ولصناعة ترتيب الالفاظ وتركيب الجمل ترتيباً وتركيباً ينتفى معهما الابهام ويرتفع الشك والالتباس ومن اللغات ماتميل بأهلها إلى الاغرب فى التعبير وهذا هو السبب فى ظلمتها وتعسر فهمها وكلما كان القول طبيعياً أى بسيطاً ازداد وضوحا فالبساطة هى أمثل طرق الكلام على أنها طريقة العلم والواقع هى التى يسهل بها التعبير عن الافكار وحركات النفس كما ينبغى.

وكانى بحضراتكم وقد استنتجتم مما ذكرته الآن سطر مذهب التحوز أو الاشتراك فى اللغة وذكرتم أنه يذهب بجمالها ويخفى من وضوح دلالتها ويجعلها ثقيلة على أهلها بعيدة المنال على طلابها من الامم الاخرى

سمعت فى الاجتماعين الماضيين كلاما كثيراً فى اللغات الاجنبية وان لها أصلا وأصولا ترجع اليها وتستمد روح التجدد منها فاهلها فى حل مما يفعلون وأما نحن فلا أصل للغتنا ويبنون على هذه المقدمة نتيجة هى أنه يجب علينا أن لانعرب كلمة أعجمية لنضيفها إلى لغتنا العربية

الحق أنى ما فهمت النسبة بين تلك المقدمة وهذه النتيجة فانى أنظر الى اللغة اللاتينية التى هى أصل لغات أمم أوروبا المعروفة بهذا الاسم من فرنساوية وتليانية وأندلسية وغيرها فأجدها لغات ممتازة تماما عن الاصل الفرنساوى من حيث هو لايعرف كلمة واحدة من أصل لغته وكذلك بقية من ذكرت وأرى أن كل لغة حية هى لغة مستقلة قائمة بنفسها لها قواعد خاصة بها وتراكيب وصيغ تميزها عن أصلها تماما فاذا استعار والمحدث جديد أسما من ذلك الاصل فانما هم يستميرونه من لغة أعجمية بالنظر ألى لغتهم الاترون انهم لايقصرون الاستعارة على اللغة اللاتينية ويتعدونها الى اليونانية القديمة وأحيانا يستعيرون كلمتين وينحتونهما ويصقلونهما ويدمجون هذا المزيج فى لغتهم فيصير جزء منها ويفسحون له فى كتب اللغة محلا بين كلمتين أصليتين بحسب ترتيب حروفه الابجدية . انهم يعملون أكثر من هذا . أن لكل بلد عادات في أكلها وسكناها ولباسها وأطوارها ويتبع ذلك وجود أسماء عند قوم لمسميات لايعرفها قوم آخرون ألا أن التجارة وطرق المواصلات تنقل هذه

المسميات أو تجعلها تشاهـد فى أماكنها من النازحين اليها فيرى أهل البلد مايروق لهم من بعض تلك الخصوصـيات لاهل البلد الآخر ولايجدون من لغتهم نصيراً على التعبير عنه تماما لـكنهم لايحارون ولايعقدون الاجتماع تلو الاجتماع ولايفترقون شيعا وأحزابا بل يقدمون على تناول المسمى واسـمه ويدرجون عليه من ساعتهم فيمتزج بلغتهم ويعرفه الكل ويتحرونه فى حديثهم أن يلفظوه كانهم فى نطقهم به من أهله والامثلة على ذلك لاتحصى يعرفها كل من تعلم لغة واحدة أجنبية . هم يعملون ذلك حتى فى العلوم فترى الحكيم القرنساوى وهو يقرر مذهبه عند مايأتى على مايخالفه من مذاهب الالمان وصـل الى معنى خاص باحدهم لم يفكر أن يعبر عنه بغير لفظه الالمانى وهـكذا ثم يذكر بهامش كتابه معناه

ماكان هذا ليفسد لغة من تلك اللغات ولايثير عاطفة الحنان والاشفاق عليها بل ماازدادت لغاتهم بهذا الا طلاوة ويسراً بل تكاد هذه الطريقة تجرى عند الامم العربية عادة لتكون الالفاظ الغريبة عن لغتهم برهانا على سعة مداركهم

ورحب صدورهم لكل نافع وكل مفيد ولتكون دليلا على مصدر المسمى ومذكورة بجزء من ترجمته

قالوا أن ذلك جائز عندهم لتماثل أحرف هجائهم واتحاد صورها وأشكالها وأما نحن فلا قبل لنا على عمل مايعملون لاختلاف أحرف هجائنا وصورها وأشكالها ولست أرى فى هذا الاعتراض ألا أنه دليل أحدأمرين فاماشعور بعجزنا عن المجاراة لفتور فى همتنا أو قصور فى معارفنا واما أن أحرف هجائنا وأشكالها وصورها محتاجة هى أيضا الى الاصلاح لنتمكن من تناول كلمات الغير بأشكال وصورة تجعلنا ننطق كلماتهم كما ينطقون وننقل عنهم كما هم عن بعضهم ينقلون

نحن اما عرب أومستعربون واما أجانب عن لغة العرب أو مولدون فان كنا الاولين قلنا فى حقنا فى التصرف بلغتنا كما تقتضيه مصلحتنا وان كنامستعربين فبحكم قيامنا مقام أصحاب هذه اللغة وبكوننا ورثناها عنهم بعد ان بادوا فليس من له ان ينازعنا فى استعمال ما كان مباحا لأبنائها من قبلنا وان كنا اجانب او مولدين فمن له ان يسيطر علينا

ويحرمنا ثمرة الكد فى حفظ هذه اللغة وتفضيلها على غيرها من سائر اللغات فيلزمنا بالبقاء علي القديم ويحكم علينا بالجمود واعتقال اللسان

أخذ العرب العلوم عن أهلها ونقلوها الى لغتهم فلما وجدوا منها استعصاء فى بعض المواضع ذللوها وأخضعوا الغريب عنها لاحكامها فأيسرت ودرجت بعد الجمود فكانت لهم نعم النصير على ادراك ما طلبوا من نور وعرفان

نسينا نحن أن زماننا غير زمانهم فكانوا أصحاب حول وطول وذوى مجد وسلطان ونحن على ما نعلم من الضعف والانزواء على أنهم فى عزهم وبعد فخارهم وتمكنهم من أنفسهم لم يعتزوا بلغتهم فنفروا من العجمة لانها عجمة بل استخدموها حيث وجدت الاخذ بها تمكيناً للغتهم وحذراً من أن يصيبها الوهن اذا قعدوا بها عن مجاراة تيار التقدم وهم أولو الرأى فيه وخوفا من أن يعيقهم الجمود فيها عن حفظ مركزهم العظيم بين الامم التى كانت تعاصرهم أيجوز لنا أن نتخلف عن السير فى طريقهم والاسترشاد بهديهم والعمل بطريقتهم بحجة أنهم انقرضوا وبادروا فلا حق لنا فى متابعة الرقى ولا يجوز أن

تخطو بعدهم خطوة الى الامام لـكن من الذى استأجرنا حراساً من الحراس على هذه الوديعة وأى قوة أخضعتنا على الوقوف فى هذا الموقف موقف الاستكانة وقطع الرجاء وفقدان الهمة وانحلال العزائم أنقص فى الافهام أم قصر فى الاجسام أم جهل بأنا من البشر لنا كل حقوق الانسان

***

عليكم بالتقدم فادخلوا أبوابه المفتحة أمامكم ولا تتأخروا فلستم وحدكم فى هذا الوجود ولا تقدم لكم الا بلغتكم فاعتنوا بها وأصلحوها وهيئوها لتكون آلة صالحة فيما تبتغون . ولا تشوهوا صورتها الجميلة بتعدد الاشتراك أو التجوز ثم لا تقفوا بها موقف الجمود والعجمة تهددها على ألسنة العامة وهى لا تلبث أن تدخل على لغة الخاصة أقيموا فى وجه هذا السبيل الجارف سداً من الاشتقاق المعقول والترجمة الصحيحة والتعريب عند الضرورة لتكونوا من الناجحين

الكاتب القدير



المرحوم السيد عبد الله النديم

جزء الثانى صحيفة نمرة ١٤٦

٥

المرحوم
السيد عبد الله نديم

ترجمة حياته

(ولد سنة ١٢٦١ هـ وتوفى سنة ١٣١٤ هـ)

نشأته الاولى

هو عبد الله بن مصباح بن ابراهيم وينتهى نسبه الى ادريس الاكبر من أسباط الحسن بن على بن أبى طالب. ولد بالاسكندرية سنة ١٢٦١ هـ — ١٨٤٣ م فحفظ القرآن الكريم قبل أن يبلغ التاسعة وكان أبوه وسطاً فى اليسار فلما رأى ذكاءه ونجابته أدخله مدرسة جامع الشيخ ابراهيم باشا فقرأ على أكابر الاشياخ فأتقن فقه الشافعى والاصول والمنطق وعلوم الادب اللسانية وهو فى سن المراهقة فأخذ من ذلك الحين يقول الشعر الرقيق والنثر المسجوع المحكم فما لبث أن سارت الامثال ببدائع آدابه وتسابق بلغاء الكتاب والشعراء إلى مطارحته وكانت الكتابة فى ذلك العهد قاصرة على السجع فابتكر المترجم فيها أساليب جديده في الانشاء فاق فيها المتقدمين وأعجز المتأخرين تشهد بذلك رسائله الادبية ومؤلفاته التى تبلغ نحو مئة مؤلف فى فنون مختلفة فقد

أكثرها سرقة أو اغتصابا اوحرقا أو اغراقا في مياه النيل كما سيأتى تفصيله

وكان رحمه الله منذ ترعرع جريئا مقداما يميل إلى ركوب الاخطار ومعاناة الشدائد سعيا وراء المعالى وقد رأى أن ذلك لاينال عفواً . فكان أول مابدأ به من تلك المطالب المعجزة أنه نظر فى الوجود نظرة باحث مدقق فتبين له أن الاشتغال بالعلم ربما عاقه عن بلوغ مقصده فتعلم صناعة التلغراف واتقنها فى أقل مما يتصور من الزمن كأن الكهرباء لم توجد الا لتزاحم خاطره فى السرعة فلم يمض عليه بضعة أسابيع حتى استخدم تلغرافيا (وتلغرافجيا) فى مكاتب مختلفة أهمها مكتب تلغراف القصر العالى الخاص على عهد عزيز مصر المغفور له اسماعيل باشا الخديوى الاسبق

ولم تكن وفرة الاعمال عائقة له عن التحصيل فقد كان يغتنم نوبة فراغه من العمل فيتردد الى الجامع الازهر يطالع مع بعض رفاق شبيبته الدروس التى كانوا يشتغلون بها . وأخص هؤلاء الرفاق حضرة الفاضل العلامة الشيخ حمزة فتح الله المفتش الاول للغة العربية بنظارة المعارف المصرية

ثم طرأ ما أوجب انفصاله عن الخدمة فاتصل بكثير من المقربين والعظماء فكانت له معهم مجالس مشهودة حضرها أفضل الشعراء والمنشئين وناظروه وطارحوه نظما ونثراً فظهر عليهم جميعا

ثم قصد المنصورة ترويحا للنفس ورأى أن التجارة خير رياضة له فأنشأ هنالك متجراً فراجت سوق بضاعته رواج آدابه ولكن كرمه تغلب على رأس المال والربح ففقدهما جميعا وكان بيته ومتجره كعبة يحج إليها رجال الادب وكانوا يتحدثون بمعجز رسائله ومحرراته نظما ونثرا

(٣) نشأته السياسية

ثم عاد إلى الاسكندرية فى أوائل سنة ١٨٧٩ وهنالك أخذت شمس حياته السياسية تبدو فكان أول سعيه فى هذا السبيل أن اجتمع بصديقيه المخلصين محمد افندى أمين باشكاتب محكمة أسيوط الاهلية ومحمود واصف افندى أحد جامعى كتاب سلافة النديم ومحرر جريدة العدل وكانا وقتئذ من مؤسسى جمعية مصر الفتاة فكان الاول نائب

رئيسها والثانى كاتم أسرارها فتعرف ليلة اجتماعه بهما بالمأسوف عليهما أديب افندى اسحق وسليم أفندى النقاش صاحبى جريدتى مصر والتجارة وتعرف بكثير من أعضاء هذه الجمعية وشرع فى بث أفكاره بما كان ينشره في تينك الجريدتين ثم رأى أن جمعية مصر الفتاة سرية يخشى عليها من الحكومة فأقنع صديقيه المشار اليهما بالانفصال عنها فانفصلا وتبعهما كثير من أعضائها ثم ذاكرهما فى أنشاء جمعية علنية تسعى فى مايعود على الوطن وأهله بالمنفعة الحقيقية فاستصوبا رأيه . وشرع منذ ذلك الحين فى تأليف قلوب أهل الثغر علماً بأن المرء قليل بنفسه كثير باخوانه فتألفت الجمعية الخيرية الاسلامية فى آخر ولاية المغفور له اسماعيل باشا والقلوب واجفة وافكاره مضطربة وقد خرست الالسنة وغلت الايدى إلى الاعناق حتى دنت ساعة الفرج بولاية المرحوم محمد توفيق باشا فقرت العيون وهدأت الافكار فقام المترجم يثبت دعائم دعوته ويبث فى الاذهان فوائد الاجتماع بلسان طلق فبرزت الجمعية الخيرية بمساعيه فى ثوب الائتلاف وتسارع أعيان الثغر ووجهاؤه للانتظام فى سلكها

وكانت هى أول جمعية اسلامية أسست في القطر المصرى وكانت ترمى الى غرض واحد هو تربية الناشئة وبث روح المعارف فيهم لترقية الافكار وتطهير الاخلاق من دنس الجهالة

فأنشأت هذه الجمعية مدرسة لتعليم الايتام وأبناء الفقراء مجانا فسعى المترجم جهده حتى أكسبها عناية امير البلاد فجعلها تحت رئاسة ولى عهده فكان ذلك ادعى لنشاط رجالها وزيادة اهتمامهم فسعوا فى توسيع دائرة المدرسة واستحضروا لها فضلاء المعلمين من العرب والافرنج واقاموا المترجم مديراً لها فوضع لها اساسا محكما وعلم فيها الانشاء وعلوم الادب فنمت وزهت حتى زاد عدد الطلاب فيها على الثلثمائة فى زمن وجيز ورتبت لها نظارة المعارف ٢٥٠ جنيها فى كل عام

فلما راى المترجم ان غرسه قدكاد يثمر استرحم المغفور له الخديوى السابق ان ينعم على الجمعية بالمدرسة البحرية لاتساعها وجودة موقعها فاجابه الى ما طلب

ولقد بلغت هذه المدرسة من الشهرة وبعد الصيت على

قصر المدة مالم يبلغه غيرها فى أزمان متناولة ونالت من التفات المرحوم توفيق باشا لرفع قدرها ونشاطها وزادها زهواً ونماء مع ما كان يبذله صاحب الترجمة من العناية فى عقد الحفلات العامة في بهرة المدرسة يحضرها كبار القوم وسراتهم فيسمعون المطرب والمغرب منه ومن تلامذته ثم ينصرفون ولا حديث لهم الا ترداد ماسمعوه من العبارات الآخذة بمجامع القلوب

وفى تلك الاثناء مثل المترجم بالاسكندرية حالة البلاد وكيف يكون الوصول الى الشهامة والمروءة بروايتيه المشهورتين باسم « الوطن » و « العرب » مثلهما هو وتلامذته فى ملهى زيزينيا بحضرة ساكن الجنان الخديوى السابق فكان لهما فى نفسه من حسن الوقع مابعثه على أن يدفع من ماله الخاص مئة جنيه مساعدة للجمعية

ولكن الحسد جر بعض ذوى النفوذ الى الايقاع بالنديم ففصل عن الجمعية واقيل من ادارتها

وكان قبل ذلك قد ترك الكتابة الادبية واشتغل

بالتحرير السياسى على الاسلوب الحديث بلا سجع ولا تقفية فكان يحرر جريدتى « المحروسة » و « العصر الجديد » اللتين صرح للمرحوم سليم افندى النقاش باصدارهما عقيب الغاء «التجارة ومصر » وابعاد المرحوم أديب افندى اسحق الى خارج مصر فجاء فيهما بالمعجب والمطرب

وما زال كذلك حتى استدعى صاحبهما من بيروت الكاتبين الفاضلين سليم افندى عباس والمرحوم فضل الله الخورى فترك لهما أمر هاتين الجريدتين وأنشأ (التنكيت والتبكيت) وهى جريدة اسبوعية ظاهرها هزل وباطنها جد فأودعها مالم يسبقه أحد من كتاب العرب اليه .

ثم استبدلها بالطائف على ماقضت به المناسبات الزمانية قبيل الثورة العرابية وكانت (الطائف)سياسية محضة بلغت من الشهرة مالم تبلغه جريدة قبلها من التأثير على الاذهان . ثم اغتصبها منه أمراء الجند أثناء الثورة ولم يدعوا له منها غير الاسم فكانوا ينشئون فيها مايشاؤون دون أن يقدر على رد واحد منهم حتى انطفأت جمرة تلك الثورة فاختفى

أما قيامه بنصرة الحزب الوطنى فسببه إنه لاقى فى معاملة

الحكومة له ولغيره مايدل على تفضيلها للاجنبي لخدمتها على الوطني واتفق ظهور نيران الثورة فاصابت منه هوى في الفؤاد فتمكنت لانه سمع رجالا تنادي بطلب الاصلاح وتعقد الاجتماعات العلنية مجاهرة بمقاصدها في أهم الصحف حتى اتفقت الآراء علي أن في مصر حزباً وطنياً لاهم له إلا انتشال البلاد من وهدة الخراب فكانت رسل الحزب العسكري تتردد على المترجم ورؤساؤه يكرمونه ويعظمونه فما زالوا به حتى انضم إليهم فوسموه بخطيب الحزب الوطني واتخذوا جريدته مجالا لاقلام كثيرين منهم ومظهراً لافكارهم ولكنه كان يتأفف من وقوعه في تلك الورطة فاذا خلا باحد من أخصائه أظهر له حقيقة مايضمر وأنبأه بمصير تلك الحال

ولم يمض بضعة أسابيع حتى هاجت القاهرة وماجت إذ أنبأها البرق بضرب الانكليز للاسكندرية في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وانتشاب بينهم وبين عرابي فقام المترجم مع محمود باشا سامي البارودي وغيره من رؤساء الجند المتخلفين الى الاسكندرية فوجدوا الجيش المصري يتاهب لمغادرتها

الى كفر الدوار بعد أن صارت معالمها دوارس فباتا (هو وسامى) فى منزل المترجم فلما كانت مايسمونه بواقعة التل الكبير فى ١٥ من شهر سبتمبر سنة ١٨٨٢ وقت السحر فر عرابى وأخوه وعلى الروبى وتبعهم المترجم فجاءوا القاهرة فى الساعة الرابعة بعد الظهر وساروا تواً إلى قصر النيل مركز نظارة الحربية إذ ذاك فتألف وفد ليسيروا الى الاسكندرية يلتمسون العفو من الخديوى والنديم فى جملتهم ولكنه لم يصل الاسكندرية بل عاد من كفر الدوار واختفى من ذلك الحين فقضى عشرة سنوات مختفياً بمديرية الغربية بين ميت الغرقا والعتوة والجميزة وغيرها فيتنكر تارة بزى الدراويش وطوراً بزى المغاربة أو غيرهم والحكومة تبث العيون والارصاد للقبض عليه وهو أقرب إليها من حبل الوريد فلما أعيتها الحيلة جعلت لمن ينبئها بمكانه مكافأة مقدارها الف جنيه وكان العارفون بمكانه كثيرين ولكنهم حافظوا على ولائه فأخفوه مكرماً معززاً حتى قبض عليه فى شهر نوفمبر سنة ١٨٩١ أو اخر ولاية المرحوم توفيق باشا فجىء به الى طنطا حيث حبس أياماً . وسئل عن موجب اختفائه فأوضحه بما

لايخرج عما تقدم فعفا الجناب الخديوى عنه ولـكنه أمر بابعاده إلى حيث يشاء من البلاد غير المصرية . فاختار يافا من ثغور فلسطين فسافر اليها باكرام وأقام هناك مدة ثم أزمع السياحة فى تلك البلاد المقدسة نخرج من يافا فى مارس سنة ١٨٩٢ مع صديق له الى جبل الطور المسمى جبل جارزيم وزارا مقام العزيز هناك وقبور كثيرين من الانبياء ومرا بأماكن كثيرة من جملتها نابلس ومدينة الخليل وبيت لحم والمسجد الاقصى ثم عاد الى يافا

وفي تلك السنة (١٨٩٢) عفى عن المترجم فعاد من يافا الى القاهرة وظل متردداً بينها وبين الاسكندرية أكثر من شهر ثم اتخذ الاولى موطناً وأنشأ بها مجلته العلمية الادبية التهذيبية الاستاذ فنالت من الشهرة والانتشار فى شهور مالم تنله سواها باعوام وكان لها تأثير شديد فى أفكار الامة على اختلاف نحلها

ثم ألغيت لاسباب يعلمها كل متدبر لان العهد بها غير بعيد . وكلف المترجم بالخروج من مصر فغادرها ثانية الى

يافا ودفعت له الحكومة المصرية أربعمائة جنيه يعتد بها لسفره ورتبت له ٢٥ جنيهاً كل شهر على شرط أن لا يكتب شيئاً في الجرائد يختص بسياسة مصر فلبث أربعة أشهر فى يافا . ثم أبعد منها بارادة سلطانية فرجع الى الاسكندرية وأقام فيها أياماً قابل فى خلالها صاحب الدولة الغازى مختار باشا المندوب السلطانى العالى فساعده هذا على المسير الى الاستانة فسافر اليها . وصدرت الارادة السلطانية بتعيينه مفتشاً للمطبوعات بالباب العالى ورتبت له ٤٥ جنيهاً مجيديا كل شهر فوق ماكان يتقاضاه من الحكومة المصرية وكان ينفقها كلها فى سبيل الخيرات والبر بالاهل والاقارب والاصدقاء

وقد نال لدى المقام السلطانى الحظوة الكبرى وتعرف بكثير من الوزراء وأرباب المظاهر العامية ولكنه اختص بالملازمة والمودة للامام العلامة الفيلسوف السيد جمال الدين الافغانى فاتصلت بينهما أسباب الالفة وتمكنت منهما روابط الاتحاد حساً ومعنى . وقد بلغ تعلق السيد جمال الدين به وجميل اعتقاده فيه أنه أصبح وأمسى يعجب بقوة حجته فى

المناظرة والجدل وسرعة بديهيته فى التحرير حتى صرح فى عدة مجالس بأنه مارأى مثل النديم طول حياته في توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة المعارضة ووضوح الدليل ووضع الالفاظ وضعا محكما بازاء معانيها إن خطب أوكتب

وقد كان يوذ الرجوع الى مصر ليقضى بها بقية أيامه ولكن داهمه السل الرئوى فى ١٤ اكتوبر سنة١٨٦٦ فأمر جلالة السلطان الاعظم أن يحتفل بمشهده على نفقة الجيب الشاهانى الخاص فسار أمام نعشه فرقتان من الجيش وفرقة من الشرطة وتلامذة المكتب السلطانى وعدة من الوجوه والكبراء والعلماء يتقدمهم العلامة السيد جمال الدين الافغانى والمولى الشيخ محمد الظافر شيخ السلطان والشهم الكريم المفضال السيد عبد الرحمن الجزولى حتى دفنوه فى باشكطاش:

ولقد مات المترجم ولم يورث أهله الا الحزن والعناء لانه كان يقبض مرتبه من مصر والاستانة فلا يمضى عليه بضعة أيام حتى يفرغ من توزيعه على الاقارب والاباعد دون نفسه

أما أخلاقه فانه كان براً بوالديه وذوى قرابته وقصاده

ولو لم يكن يعرفهم فما أقرض أحداً شيئا وطالبه به ولارد يوما سائلا ولاخضع لعظيم قط وانما كان يلين أو يتواضع لصغار الناس وأواسطهم وكان ذكيا فطنا قوى الحافظة فصيحا جريئا شاعرا مطبوعا وكاتبا ناثرا

(٣) مؤلفاته وكتاباته

ومن مؤلفاته الكثيرة ديوان شعر يشتمل على نحو أربعة آلاف بيت نظمها وشبابه باسم الثغر طلق المحيا. وديوان آخر في نحو ثلاثة آلاف بيت وروايتا (الوطن) و(العرب) ورسائل أدبية مسجوعة لم تصل أيدى جامعي السلافة منها الا الى أربع عشرة رسالة بعد السعى الكثير ومكابدة العناء الجزيل . وكان ويكون (وهو الذى طبع بعضه فى الاستاذ) وواحد وعشرين كتابا فى فنون مختلفة قطع لاجلها أيام حرب الاختفاء رقاب الفراغ بسيوف الاقلام. منها ديوان شعر يحتوى على ما يقارب عشر آلاف بيت وهو الآن محجور عليه فى الاستانة. ومنها النحلة فى الرحلة والاحتفاء فى الاختفاء . والشرك فى المشترك وكتاب فى

المترادفات . وآخر فى اللغة سماه موحد الفصول وجامع الاصول . والفرائد فى العقائد . واللآلىء والدرر فى فواتح السور . والبديع في مدح الشفيع . وأمثال العرب وغير ذلك

وقد فقد كثير من مؤلفاته ومنظوماته حرقا أوضياعا أواغتيالا

المختار من نثره

لواء النصر فى أدباء العصر

وهى رسالة أنشأها عند دخوله محروسة مصر للاقامة بها سنة ١٢٧٧ هجرية وكان سنه إذ ذاك سنة عشرة سنة وقد اجتمع بجماعة من الشعراء والمنشئين بواسطة أديب مصر المرحوم الشيخ أحمد وهبي وقد تعرف منه بستة من الشعراء علم أنهم أدباء العصر على التحقيق فكتب هذه الرسالة فى تراجمهم منسوبة على منوال من السجع لاعلى وتيرة واحدة وهى

الحمد لله مولاه والصلاة على أصل البديع الشفيع وبعد فهذه نتيجة بهيجه عن ناقل الاكياس من الناس روى عن فكره عن لبه عن نظره عن قلبه حديثا حديثا الصدق منه والحق عنه والدقة اليه والرقة عليه انه ركب افراسه وثار واستصحب الفراسة وسار يجوب الاقطار اختبارا ويترك

الأوطار اختياراً ويقرأ الجرائد اكتشافاً وينظر الجرائد استلطافا في شرف نفس عن الناس على طرف أنس بلا كاس لاترده المتاعب عن أمله ولا تلهيه الملاعب عن عمله حتى ملأ أوعيته حكماً وعاد أنديته حكماً وقابل أحباره ببضاعته وقص أخباره على جماعته فغطوا رؤوسهم وناموا ثم قطبوا وجوههم وقاموا سكوتا لا يتكلمون من الهم ومرضى يتألمون من الذم فتعلق بالأذيال وصاح وتحقق الوبال فناح ونادى بأعلى صوت أيها الكرام هذا هو الموت تقومون بلا كلام مع أنى عبدكم فى الخدمة وعندى عهدكم فى الذمة ما أضعت لكم مالا ولا أطرت لكم سراً ولا عكست لكم حالا ولا أثرت لكم شراً زودتمونى للسفر فجبت وقضيت الوطر وأبت بكواكب دريه كلها غرر وغرائب أدبية حليها درر حسبما أوصيتمونى وقت النحله فلم تركتموني بعد الرحله هل بضاعتى رديئة أم بيعتى نسيئه كلا لا بضاعة أحلى من جوهر العقد فى جيد السعد ولا أجل بعد النقد يداً بيد ولأن أبيتم القبول يقبح أذواقكم مضيت بها قبل الذبول لغير أسواقكم ثم رحل بها

الي الاسـواق المأنوسة أسواق الادب فى مصر المحروسـة بستان الأرب ووضعها بخان شاهبندر التجار لحفظها وماخان وأمنت البوار إلا أنه لم يعرض البضاعه على أهل الصناعه من أول الامر بل لزم حـده وسـكت مده على نار الجمر واستصحب الجلد ودار البلد لمعرفة السلع حتى عرف الجديد من الرث والثمين من الغث من الجواهر والخلع فرأى الناس يتهادون بالمواهب مع اختلاف المذاهب فى المعامله وكل ينادى على بضاعته ويفتخر بضاعته حتى يكدر آماله فلا يربح منها غير الكاسد ولا ينجح منهم إلا الحاسـد البليد الحمار تراه فى المشدقه كانه فى مشنقة يحاول الفرار يعارض أستاذه ويفتت أفلاذه بما يبديه إن دخل علي أمير لا يفارق السرير حتي يسديه وإن فارق صوبه جر ثوبه مهرولاً فى مشيته يسلم بالبنان وينكر بالجنان ويعبث فى لحيته ان جلس تفرطح وان نام تبطح وإن قام تمطى وإن تكلم مقت وإن استفتى سكت فان أجاب أخطأ وما ذاك إلا من عدم الالمام والخروج عن مذهب الامام والاقتصار على الاجتهاد فلو اكتسى بالحلم ولزم أهل العلم لروى واستفاد فاز من حاد عن هـذ

المورد النهل ورضى بمر الجهل ضل ومن اعتمد على العقل وازدرى بالنقل ذل ولكن صار الجهل شرابهم فاستنعق البوم غرابهم لخراب رؤوسهم واتخذوا الطمع أمامهم لخول الفقر ذمامهم لذل نفوسهم فقال بئس الصنيع يتقدم الوضيع ويتأخر الشريف ويتطاول اللئيم في مجلس الكريم ويذم الظريف فرجع إلى الشاه الكبير الجليل الأمير السيد الشهير تاج النباهه بدر الكرام وراوى الاوام بل باب السلام ونفس النزاهه لسان العرب ومعين الادب عريق النسب طاهر الاخلاق روض البيان نبت الجنان حلو اللسان سليم الاذواق بغيض المعازف حبيب المعارف الغيث الواكف سمير المعالى البليغ الرشيد اللبيب المجيد العقد الفريد ناظم اللآلى إنسان عينى وعين انسانى بل نور لبى لسان فنى وفن لسانى السيد أحمد وهبي وجاس بين يديه وأخبره بالحقيقة الى آخر القصة فمال بعطف اليه وأدخله الحديقة وداوى له الغصة بحديث أحلى من الشهد وأطيب من القرب وألذ من الوصال فاستراح من السهد واقتحام الكرب نقد الرجال ثم استعاده منه لحلاوة الوعظ فى هـذا المجال ليرويه عنه لفظا بلفظ فابتدأ

وقال لكل سلعة قوم ولكل قوم بضاعة ولكل عصر رجال وحالنا اليوم تزييف الصناعة وطلب المحال والعادة ان اعتيدت صارت طبيعة لا يمكن فوتها والسادة أبديت فى المدة البديعة ومضى وقتها ولكن على من اجتمعت وجلست معه ومن عرفت وممن سمعت وكنت تبعه ومنه اغترفت هل اختبرت بنفسك وعلمت أفرادهم أم اتكلت على الاخبار السائرة فان أبناء جنسك لا يحسنون انشادهم الا فى الامور الطائرة وقد كثرت تجار هذه البضاعة فى كل سوق وكل ممترى فهجرت الناس هؤلاء الباعة ومالوا إلى الفسوق فقل المشترى فالتزم كل دلال أن يحمل على رأسه وكتفه ويمشى فى طرق غير مستقيمة ليروج هذه الاحمال بتزيينه وحلفه ولو بدون القيمه فقال إنى لم أجىء للبيع والشراء مع هذه الطائفة الزائفة وجوب القرى فى المدة السالفة للأمة العارفة ولم أدخل بيت أحد طمعا فى فوائد أوجريا على عوائد بل دخولى هذا البلد برسم السيد الماجد الفرد الواحد الكامل المؤدب البارع النجيب البليغ الاديب الشهم المهذب المجيد اللبيب المحب الحبيب عزيز الوجود حافظ العهود ومنه تعرفت بحضرتكم

(١) اشارة الى صديقه المرحوم عبد العزيز بك حافظ

وبه تقربت اليكم ووفدت عليكم حتى تشرفت بطلعتكم ووقفت
بين يديكم وحظيت ببعض ماليديكم ثم أخذت أسأل جرائد
الاخبار عن أهل المعارف والعوارف فرأيت فيها من عد
من الاحبار وهو من أهل المعازف أو المناسب حتى سئمت
نفسى وعلمت أن الادب عدم صحبيه فقضى نحبه وتحققت فوت
أنسى وقلت اقنع من الغربه بحسن الأوبه والزم وكرى فهو لى
جنه بل جنه وأجانس فكرى وأحسن ظنه بلا منه قال إنك
لم تر غير هذا الشهم سماء إخوانه وبدر خلانه وسحاب جيرانه
صائب الفهم المعنى الوجيز عبد العزيز الحافظ المجيز الواله
بالجود حسن الخلق والخلق محب الصواب والحق باب الوفاء
والصدق ذى السير المحمود والرأى الصافى والعقل الوافى
والقول الشافى نعم وإن كان شمس الاماره ومعدن الكرم
وثابت القدم المفرد العلم إلا أنه لم يجلس لهذه التجارة
وانما هو ذو مقام عالى يشترى اللآلى بالثمن الغالى والافصناعها
فى هذا العصر كثير والعدد قليلو الرشد عادمو المدد لا لفقد
المشترى فى هذا العصر بل لسعى الاجلاف فى غش الاصناف
مع عدم الانصاف فشقى كل بفعله وانكسر جمله وخاب أمله

وضل عمله فلم يبق منهم على أصله سوى من لاذ به البديع والتجأ ولم يرض منه بمسكن غير الحجا حتى أمن من السفلة ونجا من رضع قلمة ثدى البيان فجرى فى بحر الأدب وخط وسار بالسلامة من شط إلى شط ولم يدركه عطب قط فنظم فكره عقود الجمان وحلى بالدرر النحور والغرور بل الطرر العالم المدقق بدر هذا العصر ولسان الأدب فى مصر السيد على أبو النصر زكى محقق أمام كبير حافظ خبير ليس له نظير فانه إن تكلم أوجز وإن أنشأ أعجز وإن وعد أنجز وإن سكت هابته القلوب ليس فى مجلسه شغب بل كله طرب فى أدب بكل أمر محبوب وفيه من حسن الاخلاق ماتتحلى به الاذواق بل الاطواق فى الرقه وعنده من المبانى حصن الامانى محكم المبانى بكل دقه فهذا قوى الجلد طاهر الخلد أديب البلد أبو الفصاحة ابن الشرف وخذن التحف مباهى السلف بحسن السماحه نظمه نظم اللآلى ونجمه بدر المعالى وحظه مدح الموالى وحلية الذوق السليم والطبع القويم يقول الرجل على عجل بلا وجل بأفصح لسان وبالسجع يداوى الصدع ويشنف السمع بأوضح بيان ويليه صاحب الحماسه

والفطنة والكياسه روض البديع وثمرة أفنانه مجلى عرائس الابكار فى خدور الافكار لكل مقام رفيع من قومه وإخوانه الذى طلع فى سماء المعارف شمساً وطاب برقائق الاقوال نفساً وأرضع العلم لليراعه فنطقت بأحسن براعه زاحم من تقدم حتى جلس فى الصدر وسهر الليالى حتى رأى ليلة القدر ففاق الجماعة فى هذه الصناعة تمشى المعانى تحت ظل ركابه وتجرى البلاغة طبق أمر جنابه فان زينها حتى تحلت وزفت فى الوجود وتجلت خاتمة أهل الادب وقاموس لسان العرب من سحت سحب معانيه فأروت محمود أفندى صفوت(١) فهو المشار إليه بالبنان المنفرد بالبيان فى الرقائق الادبية والمحاسن العربية لم يلحقه فى هذا الميدان فارس ولم يدرك معارفه ممارس وانسجام البديمية يقضى له بالأفضلية مع بقية غرائبه الشهيرة وكواكب سمائه المنيرة التى ظهرت للعيان فأبصرها العميان لا ينكرها إلا الجاهلون ولا يعقلها إلا العالمون ويليه الشاب الذى غرس غصن القريض فأثمر واطلع هلال البديع فأقمر وفوق سهم الاجادة فأصاب الغرض وعالج

---

(١) الشهير بالساعاتى السكندرى أصلا

جسم العروض حتى نقه من المرض اللوذعى السرى المدره الجرى مجلى من خدور أفكاره كل بهنانة رعبوبة ومبدى للوجود كل آية أعجوبة المرجف بفخامة لفظه قلوب المران والمخرس بجزالة نظمه ألسنة الخرصان من رق حتى استعبد حر الكلام وعف حتى تشربته قلوب الكرام إن جلس للانشاء جثا سحبان على ركبه وان أعمل قلمه كف قس عن خطبه غيث البديع الهامى محمود بك سامى (١) ويليه بستان الكلام وعنوان الكرام الشاب الذى شمر عن زند الفهم وحسره وحمل على جيش المعانى فأسره البارع الذى فاح عطره على المعارف فنشقته ورأت بنات الافكار جمال ذهنه فعشقته الفاضل الذى ألفته اللغة العربية وعرفته المعانى الأدبية فطلع فى سماء العلم بدراً وجرى في فيا فى الفنون بحراً الأديب الذى سمعه بلبل الذوق فافصح ورآه زهر البديع ففتح ولزمته المحاسن لزوم النور للبدور وهامت به المعارف هيام النفوس بالسرور خد البديع المورد القانى الشيخ أحمد الزرقانى - ويليه الامير الذى دعا الادب فلباه وساسه حتى رباه فظهر للوجود

١) محمود باشا سامي البارودى رئيس مجلس النظار فى الحوادث العرابية

بدراً ماله أفول وغصناً لم يعتره ذبول فهو بين أهل الصناعة الرئيس والجوهر النفيس نظم من المبانى أرقها ومن المعانى أدقها الشاعر الناثر المجيد الماهر من غاص بحر الادب واستخرج الصدف من قاعه وحاصر جيش البديع حتى صار من حزبه وأتباعه عقد جيد الزمان الفريد محمد بك سعيد فانه امتد فى البلاغة باعه فأعيا معاصريه أتباعه ـ وأفضلهم بستان العلم وزهر الحلم مجرى جياد أفكار فى كل ميدان محلى بجواهر ألفاظه كل ديوان رامى نبال وعظه الى الاحشاء ومفوق سهام بديعه إلى الانشاء حامل لواء العلوم العقليه وقائد جيوش الفنون النقليه مطلع شمس الامانى ومبارز فرسان المعانى الهمام الذى إن أطنب أطرب وإن أعرب أغرب اللوذعى الذى إن ألف لم يتكلف بل يجعل الانسجام زينة الكلام وإن نثر كر بهجوم على سرايا النجوم فالنثر كتاب هو عنوانه ولبه ملك والنظم ديوان نفث فى المعانى نفثه ماهر لانفثة ساحر وخدم الفنون خدمة مجدى لاخدمة مكدى ورواه الصدق بنهله حتى اعترف بالفضل لاهله من

---

(١) نجل المرحوم جعفر باشا مظهر

ملأت من دنان أدبه أقداح سكرى عبد الله بك فكرى (١) فهو واحد الدنيا وممتطى العليا فهؤلاء هم تجار البيان ونبلاء الزمان لاتنشر الرقائق إلا عنهم ولا تقتبس المعارف إلا منهم ومن عداهم رعاع لم يضىء لهم شعاع يسرقون الكحل من العيون ويمزجون الجد بالمجون فساق فى صفة عباد وسفلة فى هيكل زهاد ثياب منقوشه وعمائم منفوشة (واعباب) كبيره ممتلئة كبيره لا يعرفون من العلم الا إسمه ولا من الادب الا رسمه ان رأوك على بساط الادب تطفلوا فان أخذت فى البحث تنصلوا على أن شهرتهم أكبر من الاجرام ولحاهم أطول من ألية الاغنام فعلمت أنه التزم الصدق وقال الحق وعجبت من حسن قريحته وشكرته على نصيحته

---

(١) المرحوم عبد الله باشا فكرى ناظر المعارف المصريه سابقا

طالع الكرامة بحسن السلامة

وهى رسالة كتبها إلى أستاذه المرحوم الشيخ محمد العشرى وقد بلغه إنه كان راكباً عربة مع بعض الناس فى زمن المطر فوقعت بهم العربة ونجا الشيخ منها سالماً وأصيب الذى كان معه فكتب اليه الاخوان من الاسكندرية يهنئه بسلامة الاستاذ وكان إذ ذاك بجنبها فكتب الى الشيخ هذه الرسالة وهى سجمات مختلفة الأوضاع والاوزان من مبتكراته كما سيظهر للقارىء

منحتنا اللهم سلامة الروح فلك الحمد على هذه المنحه حمداً بلاعد ووهبتنا صحة لب البيان فلك الشكر على هذه الصحة شكراً بلا حد يلوح بدره ويفوح عطره روح هو عين الحياه ومدد العقل ولب هو منطق الشفاه وسند النقل طال عمره وجال امره غذاء النفوس وبهجة المهجه ونور الشموس ومهجة البهجه أمناسر ّه وعمنا بر ّه أستاذى وقدوتى وعين بشرى وملاذى وعمدتى محمد العشرى قام ذكره ودام شكره سيدى ومجيرى ومؤيدى ونصيرى يخصك التحية غرس بستانك وغصن رقتك وزهر إحسانك وثمر دقتك

الطيبة الشهيه ويهدى لسيدتك الرفيعة الشريفة ويعرض لسدتك المنيعه المنيفه سلام لسان وجنان ويميل - لرأفتك وعظيم فضلك بل الى رحمتك وعميم عدلك ميل حيران ولهان

رمى باالعناء وطول التنائى   على أنه مخلص فى الوفاء

لعبت به الاشواق في مصارع العشاق لعب الراح بالارواح فى مجلس الانس وجرت به الاتواق فى ميادين الاذواق جرى السحاب والارواح فى حومة الشمس وقاده الهيام إلى باب السلام فظللته الارواح وطابت النفس حتى طرق الباب وتقدم للجناب فكتب فى الالواح مزيل اللبس

صار عين البديع بحر المعانى   باب كنز الفنون سر البيان

ومازلت تغمسه فى ألوان الفنون حتى انصبغ وتنشده الجد والمجنون حتى نبغ وجرى خلفك فى ميدان النباهه وصار الفك فى العفة والبناهه

قد كابد الصبر حتى صار مطمعه   لا يسأل الناس إلحافاً وإلحاحا

إن تكلم بلسان فبيان من جنان وان خط ببنان فبا حسان عن فرقان وان انتسب فنعم النسب مع الحسب ولا عجب فالى العرب فن الادب

آباؤه الغر أهل الجود والكرم وكلهم غايه فى الحلم والكلم

ربيت فأحسنت وغذيت فأسمنت مؤدباً ليثاً ولنت فسودت وجدت فعودت مهذباً غيثاً وعلمت فأفهمت وأشرت فألهمت غرض سهمك وقدنلت ماأملت فيمن عليه عولت بحسن فهمك

غلامك الشهير بالنديم من صار فى البيان كاالنسيم

وكيف لايكون لسانى قوس البديع وكلامى السهم السريع وأنت باريه وراميه أم كيف لايكون مقامى الحصن المنيع وقدرى العزيز الرفيع وأنت معليه وبانيه فوجه جمال العلم أنت غرته وانسان عين الحلم أنت قرته وحاليه وجاليه وجبين العقل أنت طرته وكتاب الفضل أنت صورته وطالبه وتاليه

على بابك العالى من الفضل راية

على رأس أرباب المعارف تخفق

فعلمك جنات وحلمك جنة

وكلك خيرات وغيثك مغدق

أرى غصن من يدعو إلى الفضل نفسه

من الفضل عرياناً وغصنك مورق

اذ رمت إنشاء فعن صدق فكرة

تهادى بأبكار وغـيرك يسترق

ثم أنهى لفضيلتك وحضرتك السنيه ماوصل الى
فأوجب الشكر على مادمت حيا وهو سلامتـك من تلك
البليه بمعرفة العربيه وقد وقع فى الرى من أدركه العى ولم يع
شيأ أدخله التقصير فى جمع التكسير فكنت فى جمع السلامه
تحية وكرامه اذ كنت تقيا وظهر ذراعه الكسير ظهور
الضمير ومذ رأى أولاده آلامه وفهموا كلامه صاحوا بكيا
قد أتى أهله فساءت دياره اذ وهت رجله وبانت يساره
ولو جاءهم الخبر في الابتدا لطلبوا الفدا وقالوا انقبر هل
للصدرى رد الندى ولو سلك الفحل طرق المهدى أمن الردى
وما وقع فى الوحل وترك المدا تجلوا الصدا فالحمد لله على
السلامه والنعمة والكرامة إذ أنقذ عمدتى وأنجد منيتى فانه
باب السلام وبدر التمام

درر النحلة وغرر الرحلة

وهى رسالة بعث بها من الاسكندرية الى صديقه الشيخ أحمد وهبى

لك الحمد يامو فى كل عامل أجره والصلاة والسلام على صاحب الهجرة وبعد فقد ألهمنى خير من رحم السعى فى صلة الرحم فخرجت آخر الصوم وقت العصر من المحروسة مصر بوابور يقطع الطرق قطع الصواعق للجو والغيث للنو كلما أطعموه نفر وزمجر وصفر حتى اذا التهب قبسه وطلع نفسه أرسل الدخان خلفه ذوائب والاخبار أمامه جوائب ثم نبه رفقته للسير وحثها على الطير وسار ولكن بحساب وهى تمر مر السحاب فما ندرى أهو النعمان يوم عبوسه أم الحجاج يمر على حبوسه أم عنترة يكر على آسر عبلة أم الكسعى يشفع قوسه بنبله أم جبان رأى الصمصامة فى يد عمر أم سيف صدر له من الخليقة أمر تارة يرينا حملة على على ابن ود وهجومه على باب خيبر وقد سد ويقول خذوا من اندفاعى كيفية سير الافاعى فما نعلم أبساط الارض

(١) المراد برفقته العربات المقطوره خلفه

يطوى على عجل أم ليالى الانس تسرق الاجل فانا كنا لا ننظر فى هيئته و نعجب من مشيته إلا وقد عدل عن السير وكف وأدرك المقصود ووقف اذ ذاك يضيق عليه المجال لكثرة النساء والرجال والاطباء تجس نبضه وتتعهد طوله وعرضه فان وجد فيه اختلاج بادروه بالعلاج حتى اذا صح السقيم وأخذ شهادة الحكيم ودع القوم وثار وأرسل العنان وسار وأنا أقول فيه لاكون من واصفيه

نظر الحكيم صفاته فتحيرا شكلا كطود بالبخار مسيرا
دوما يحن ألى ديار أصوله بحديد قلب باللهيب تسعرا
ويظل يبكى والدموع تزيده وجداً فيجرى في الفضاء تسترا
تلقاه حال السير أفعى تلتوى أوفارس الهيجاء اثار العثيرا
أو اكرة أرسلتها ترمى بها غرضاً فجلت أن ترى حال السرى
أو سبع غاب قد أحس بصائد فى غابه فعدا عليه وزمجرا
فكانه المديون جاء غريمه فانسل منه وغاب عن تلك القرى
أو أنه شهب هوت من أفقها أو قبة المنطاد تنبذ بالعرا
لاعجب للنيران إذ يمشى بها فمن اللظى تجرى الورى كى تحشرا

فقيد العلم والادب



المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى

جزء الثانى صحيفة نمرة ١٧٨

٦

فقيد الادب والعلم

المرحوم

السيد مصطفى المنفلوطى

حياته

ولد المرحوم السيد مصطفى بن محمد بن محمد بن حسن بن محمد بن لطفى فى مدينة منفلوط من مدن الوجه القبلى فى جنوب مصر سنة ١٨٧٦ ميلادية الموافقة لسنة ١٢٩٣ هجرية من أبوين كريمين ينتهى نسب أولهما إلى الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وثانيهما إلى أسرة چوربجى التركية المعروفة بالشرف العظيم والمجد المؤثل. وأسرته لأبيه فى مدينة منفلوط أسرة مشهورة بالشرف والتقوى والعلم والفضل. وأكثر أفرادها من نحو مائتى سنة قضاة شرعيون [١] ونقباء أشراف. ووالده السيد محمد لطفى قاضى منفلوط الشرعى سابقاً [٢] وعين أعيانها [٣]

---

(١) النقيب على القوم — العريف (٢) عين المتاع — خياره (٣) أعيان الناس واشرافهم

دراسته

خرج من المكتب حافظاً للكتاب الكريم فى سنة ١٨٨٨ ميلادية فأدخله والده مدرسة الازهر الشريف كجميع أفراد أسرته فما مرت به سنوات قلائل حتى عرف بين أقرانه بالذكاء والفطنة وسلامة الذوق فى الفهم. ثم نزعت به نفسه إلى مذهب فى التعليم غير المذهب الذى يذهب إليه الازهريون فى دراستهم. فكان لا يطالع دروسه فى الكتب الأزهرية إلا على صورة تكفل [1] له فهم جواهر المواضيع والتثبت من حقائقها. غير حافل بما تشتمل عليه عادة من المناقشات اللفظية والمنازعات القشرية. فكان لهذه الخطة فى التعليم أعظم تأثير فى سلامة ذوقه وصفاء ذهنه. وأصبح له متسع من الوقت ينفقه فى دراسة مايتيسر لديه دراسته فى كتب الطبيعة والاخلاق والادب والحكمة حتى غلبت عليه تلك العلوم خصوصاً الادب منها وشغف بها عما سواها شغفاً ملك هواه واستأثر بلبه. فعلت مداركه وصقلت مرآة ذهنه وهتف بنظم القطع الشعرية والجمل النثرية وضمنها ماشاء الله

---

(١) تضمن

أن يضمنها إياه من فنون الشعر وأفانين القول فى الاخلاق والآداب والانتقاد والوصف . ولكن كان ذلك في بادىء الأمر كما يمكن أن يكون . لا كما يجب أن يكون . ثم لحق بعد ذلك بالمرحوم الشيخ محمد عبده ولصق به لصوق الولد بأبيه وأكثر من مصاحبته فى درسه ومنزله ومقدمه ومنصرفه عشر سنين كاملة فكمل من علمه ماكان ناقصاً ونضج من أدبه ما كان غير ناضج . وكان الاستاذ رحمه الله عليه يعجب به كل الاعجاب ويثنى على ذكائه وفطنته الثناء الجميل. ويعلل نفسه بأنه سيكون من أفضل المنتفعين بعلمه والناشرين لمبادئه وتعاليمه . وما زال هذا شأنه معه حتى لحق الشيخ رحمه الله عليه بربه فحزن عليه المترجم حزناً شديداً حمله على هجر الأزهر وسفره من القاهرة وانزوائه فى بلده منفلوط برهة من الزمان كاد ينساه الناس فيها حتى طلعت[١] طلائع رسائله المشهورة فى جريدة المؤيد سنة ١٩٠٨ فالتفت القارئون لها ثم زحفوا إليها ثم تزاحموا عليها تزاحم الابل الهيم على وردها فكانوا يعدون لها أيام الاسبوع يوماً بعد

(١) الطليعه — القوم يبعثون أمام الجيش يتعرفون طلع العدو أى خبره

يوم ويترقبون لرؤيتها مايترقب الضال فى ظلمة الليل البهيم من الفجر الطالع . والظامىء فى المهمه القفر من الغيث الهامع فكانت ترد عليه الرسائل العديدة عشرات ومئات من أدنى مصر الى أقصاها ومن كافة الاقطار العربية متضمنة الاسئلة المختلفة فى الحوادث والوقائع والمسائل الاجتماعية والاخلاقية فأصبحت الأمة تعده منازلها الذى تهتدى به فى ظلمات الشبهات . وموئلها[1] الذى تعتمد عليه فى حل المشكلات . ولا أظن أن الامة العربية لهجت[2] ببيان كاتب وجمال أسلوبه ودقة مسلكه فى هذا العصر الاخير شغفها برسائل المترجم. ولا أظن أن السبب فى ذلك إلا أنه قد فاجأهم من ذلك الاسلوب العربى الفصيح بما لا بد لهم بمثله إلا فى رسائل بلغاء الكتاب الأدبية . ومراسلاتهم الخصوصية . بعد ماتلوثت أقلام أكثر الكاتبين فى الصحف باللهجة الافرنجية تارة والصحافية تارة أخرى

اخلاقه

أما أخلاقه فانقباض عن الناس ووحشة يحسبها الرائى صلفاً وكبراً وما هى بالصلف ولا الكبر ولكنها الرزانة والوقار

(١) وال الى الله — رجع والتجأ (٢) لهج به اولع به

والأنفة والعزة والبعد عن سفاسف الأمور وصغائرها والترفع عن مخالطة كل من لاتعجبه أخلاقه . ولا تجمل فى نظره أطواره . وعفة حتى عن مديده إلى أبويه لانه قد قنع بما فى يده من المال القليل [١] فزهد فيما سواه . وأحسن مايعرفه له الناس فى باب العفة والشهامة أنه ما أخذ فى حياته أجراً على أدبه ولا انتفع من وراء قصائده أورسائله بدانق أو سحتوت . [٢] وكرم فى الخلق طالما كان سبباً فى وصول الاذى إليه وكان آخر عهده بذلك الاذى تلك القضية التى رفعتها عليه النيابة العمومية من نحو خمسة عشر عاماً من أجل قصيدة رأت أنه مس فيها كرامة الخديوى السابق ثم دارت الايام فاظهر مولانا الكريم تعطفه بالرضى عنه عند ماتبين له حسن قصده وسلامة ضميره . وسخاء وجود بكل ماتملك يمينه . وأدب وحياء وحلم يظنه الظان عجزاً وضعفاً فاذا غضب وقليلا مايفعل فهو الليث قوة وشجاعة . وصمت طويل يحسبه الناظر عياً [٤] فاذا تكلم بذ القائلين . وإيمان

---

(١) زهد فى الشىء وزهق عنه — تركه (٢) الدانق— سدس درهم
(٣) السحت— النزر القليل (٤) السمى —العجز

قوى كالطود الراسخ (١) لاتذهب به العواصف ولاتلوى (٢)
به حوادث الدهر وفواجعه . فمارئى فى يوم من أيامه ملماً (٣)
بما يفسد عليه دينه أو مروءته . ولاضعيف الثقة بالله فى حالة
عسره ويسره . وشدته ورخائه . وصبر جميل على ما يذهب
بلب الحكيم ويطير برشدك الحليم من حوادث الايام
ورزاياها . فقد مات له طفلان فى أسبوع واحد فسكن
لهذا الحادث الملم (٤) سكوناً لاتخالطه زفرة ولاتمازجه دمعة
على شدة شغفه بهما . ثم ماتت زوجته بعد ذلك وكانت أحب
الناس اليه فجلس الى أصدقائه يحادثهم ليلة وفاتها كأنما المرزوء
بذلك الحادث سواه . ولقد لقى فى حياته كثيرا من غدر
أصدقائه وعشرائه الذين أوقعه فى شرك صداقتهم طهارة قلبه
وبياض سريرته والذين طالما أحسن إليهم وكانت له اليد
فى تعليمهم أو تقويم (٥) أود عيشهم فما حفل بذلك ولا بالى
به بل كانت كلمته الوحيدة التى كان يقولها حينما تدب إليه
تلك العقارب « ان الله وحده هو الذى يستطيع أن يغير
طبيعة الانسان » وأجمل مايعرف له أخصاؤه من الاخلاق

---

(١) الثابت (٢) لوى به — اماله (٣) الم الذنب — فعله (٤) النازل
(٥) الاود — النقل

النادرة أنه يحيا حياة ذاتية غير حافل بتلك الحياة الاضافية التى يحياها كثير من الناس الذين لايعرفون لهم حياة إلى في أفواه الناطقين. وآذان السامعين. فليس أحقر فى نظره من مدح المادحين له ولا أصغر فى نفسه من انتقاد المنتقدين عليه. فلو أن الناس جميعاً أجمعوا على انتقاد خلة من خلاله لما ثناه ذلك عنها ولو أنهم اتفقوا على رأى مناقض لرأيه لما نال ذلك من عقيدته. وكثيراً ما كان يقول له العالم الفاضل سعد زغلول باشا إنى لأرى لك فى كتابتك شخصية أتمنى أن أجدها كثيراً فى أقلام الكاتبين وكثيراً ما كنت أسمعه يقول لاطلعت على شمس ذلك اليوم الذى يرضى فيه عنى الجاهل أويعجب برأيى فيه البليد وليس أبغض إليه من الكذب ولا أحب إليه من الصدق فيبغض حتى المبالغة فى البشاشة والاغراق فى الحفاوة. ويحب حتى العقاب المر والتقريع (١) المؤلم مادام المتكلم صادقاً فى قوله مخلصاً فى مذهبه. ولقد كان هذا سبباً فى حبه للعزلة وميله إلى اجتناب المعاشرة والمخالطة كانه يطلب من الناس غير ماتطلب

(١) لغرب

الناس بعضهم من بعض . وبالجملة فان كان فى أخلاق المترجم مأخذ فنى هـذا الخلق خلق النفرة من الناس والعجز عن احتمالهم على علاوتهم . ولبسهم [١] على سوآتهم .

سياسته

سياسته سياسة كل وطنى يتهالك وجداً على حب وطنه ويذرى [٢] الدمع حزناً عليه وعلى ماحل به من ضعة الحال . وفقدان الاستقلال . ومن كلماته المأثورة [٣] عنه فى هذا الموضوع قوله علمت أن حياة مصر لاتتم لها إلا بفقدان حياتى لكان سبيل الموت أشهى إلى من سبيل الحياة وليس له حزب خاص ينتمى [٤] إليـه ولا جريدة خاصـة يتعصب لها . أما الأحزاب فرأيه فيها أن تعددها مضر بمصلحة الوطن وأنه يجب أن تكون الأمة كلها حزباً واحداً لان أقل ضغينة سياسية تقع بين أفراد الامة تنتقص من استقلالها بمقدارها . وأما الجرائد فرأيه فيها أنها بين جريدتين احداهما تبالغ فى أرضاء الامة ومما لاتها [٥] على كل نافع وضار من شؤونها وهـذه تشبه أن تكون متاجرة بالعقول .

---

(١) السوأة — العورة (٢) ذرته الريح — نسفته فرقته (٣) المنقولة (٤) ينتسب
(٥) معاونتها

والاخرى تقسو فى إرشادها وهذه لاتستفيد منها الأمة كما يجب أن يكون فهو يرى أن الامة لاتزال حتى اليوم فى أشد الحاجة الى قائد شديد الاخلاص فى عمله. جم الحكمة فى قوله . وليس بينه وبين جريدة من الجرائد علاقة خاصة حتى الجرائد التى كان يكتب فيها رسائله . فلم يكن بينه وبينها أكثر مما يكون بين أى كاتب يكتب رسائله مطلق الحريه فى أية صحيفة يتوسل بانتشارها إلى نشر آرائه وأفكاره فان لاقاها فى شيء من مبادئها ومذاهبها لاقاها مصادفة واتفاقاً . وإن فارقها طوعاً واختياراً

أدبه

قل أن يوجد بين الكتاب الذين يذهبون مذهب كتاب العربية الاولى فى علو تراكيبهم وبلاغة أساليبهم من يستطيع أن يخوض بقلمه (١) غمار هذه المدنية الحديثة وأن يتناول به هذه المعانى العصرية والآراء الجديدة التى حدثت بعد وقوف اللغة العربية عند الموقف الذى وقفت عنده محتفظاً بخطته فى الكتابة ودرجته فى الاسلوب . وقل أن تجد بينهم

(١) ذخلت فى غمار الناس — زحمتهم

من يستطيع أن يرضى الخاصة بقلمه ويحسن إلى العامة ببيانه وإفصاحه. فهو أن علاءم على العامة أمره. وأن نزل أغضب الخاصة قلمه. أما المترجم فهو على ماأرى الكاتب الفريد الذى يحافظ على أسلوبه البليغ فى جميع حالاته وشؤونه سواء فى ذلك المعانى المطروقة لكتاب العربية الأولى والتى لم يكتبوا عنها شيئاً ولم يرسموا لها أسلوباً. مما يدل على أن السليقة العربيـة ملكة من ملكاته. لاعارية من عواريه. كما أنه الكاتب الوحيد الذى يستوى فى فهم معانيه وأغراضه وفي الاعجاب بفصاحته وبيانه فطاحل الادباء. وأصاغر البسطاء. مما يدل على أنه يكتب بقلبه لابقلمه. وأنه يحادث الأفئدة والصدور. لا الصحائف والسطور.

فان كان صحيحاً مايقولون من أن الكتاب المجيدين فى هذا العصر انما يستمدون روح كتاباتهم من اللغات الاجنبية ويستنزلون من سماء قرائح شعراء الافرنج وحى خيالاتهم الشعرية فالسيد المنفلوطى الذى لايعرف لغة غير اللغة العربية. ولا يلجأ إلى وحى غير وحى الخواطر النفسية. نادرة كتاب العربية فى هذا العصر رحمه الله رحمة واسعة

المختار من نثره

روح الاجتماع

إن لكتاب روح الاجتماع عندى يداً لا أنساها لمؤلفه الدكتور جوستاف لوبون ومترجمه العالم الفاضل سعادة أحمد فتحى زغلول باشا فقد وجدنى ضالا فهدانى . وحائراً فرفع لى مناراً أحمر حتى عرفت السبيل

كنت أنقم من هذا المجتمع المصرى شؤوناً ما كنت أنقم مثلها من غيره من المجتمعات البشرية . وكنت أكاد أعتقد أنه مجتمع شاذ غريب فى أطواره وصفاته . حتى قرأت ذلك الكتاب الذى شرح طبيعة المجتمعات عامة شرقها وغربيها وقرر لها حكماً واحداً لا يختلف ولا يتخلف . فعرفت أن لا فرق بين الشعب المصرى وغيره من الشعوب الاخرى إلا كما يكون بين الشىء والشبيه به من الاتفاق فى الجوهر والكيفية . والاختلاف فى العرض والكمية

كنت أعجب للجماعة المؤلفة من أتباع الحزب الوطنى

أن أراها مائلة إلى تصديق زعماء ذلك الحزب فى دعواهم
القدرة على إزعاج الاحتلال الانكليزى من مكانه ومقاومة
قوته القاهرة بمقالات يسطرونها. أو خطب ينمقونها.
وعلى انتزاع الدستور من يد صاحب الأمر فيه بصراخ
سواء أكان هندياً أوچركسياً أو بربرياً أو نوريا أو فرنسياً
أوانكليزياً زاعماً أنه يخدم الوطنيه المصرية بصدق وإخلاص
كما صدقت بالامس المستر بلانت الانكليزى في دعواه أنه
قد نزل من حب الوطن المصرى منزلة من يهدى النصائح
والعظات إلى الخديوى السابق أكبر أصحاب الشأن
فى القضية المصرية ويعلمه كيف يكون وطنياً . وكما صدقت
اليوم المسيو ديروجا الفرنسى والمسيو دراجيلا الاسبانى فى
دعواهما الغيرة عليها والاهتمام بشأنها ثما لأنهما على أميرها
أبى الوطنية ومطلع كوكبها السارى . وظهرت فى توديعهما
إلى منفاهما بمظهر تتصبب له الجباه عرقاً . وتندى له الوجوه
الكريمة حياء وخجلا . فلما قرأت فى روح الاجتماع وله «ولما
كانت الجماعة على الدوام محلقة فى حدود اللاشعور تتأثر

بالسهولة من جميع المؤثرات وذات إحساس قوى كاحساس الاشخاص الذين لايمكنهم الاستعانة بالعقل ومجرده من ملكة النقد والتمييز كان من شأنها أن تكون سريعة التصديق سهلة الاعتقاد عرفت أن تلك طبيعة الجماعات وأن ليس الذنب فيها على المجتمع المصرى خاصة بل على المجتمعات الانسانية عامة

وكنت أعجب للرجل الذى لا بأس بلبه . ولا ظنة فى فهمه وادراكه . من محام بارع . أوطبيب حاذق . أو عالم محقق . أوباحث مدقق أن أراه على جلاله وعظمه منتصباً وسط أتباع الحزب الوطنى يضج ضجيجهم . ويصرخ صراخهم . ويقولون بما يقولون . ويفهم كما يفهمون . ويتقلب فى أكفهم تقلب الكرة فى أكف اللاعبين . ويشاركهم فى تصور مالايتصور . وتصديق ما لايكون . حتى قرأت فى روح الاجتماع قوله أثناء الكلام على قابلية الجماعة للتصديق بالخيالات الباطلة ولاينبغى فى رد ما تقدم الاحتجاج بمن كان بين تلك الجماعات من أهل العقل والذكاء الوافر لأنه لاتأثير لتلك الصفة فى موضوعنا اذ العالم والجاهل سواء فى

عدم القدرة على التميز ماداموا فى الجماعة وقوله فى موضع آخر وأشد الناس افتراقاً من حيث مداركهم يتشابهون فى الوجدانات والشهوات والمشاعر . وأعظم الرجال لايتفاوتون عن العامة فى الامور التى مرجعها الشعور كالدين والآداب والميل والنفور وهكذا إلا نادراً . فقد يكون بين الرياضى الكبير وبين صانع حذائه بعد ما بين السماء والارض من حيث العقل والذكاء . ولكن الفرق بينهما فى الطباع معدوم فى الغالب أو هو ضعيف للغاية وقوله فى موضع آخر يهبط المرء بمجرد انضمامه الى الجماعة عدة درجات من سلم المدنيـة . ولعله فى نفسه كان رجلا مثقف العقل . مهذب الاخلاق . ولكنه فى الجماعـة ساذج تابع للغريزة . ففيه اندفاع الرجل الفطرى وشدته . وفيه عنفه وفيه حماسته وشجاعته . وفيـه من سهولة التأثر بالالفاظ والصور مما لم يكن يتأثر به وهو خارج الجماعة . ثم فيـه الانقياد بذلك إلى فعل مايخالف منافعه البديهيـة ويناقض طباعه التى اشتهرت عنـه . وبالجملة فان الانسان فى الجماعة أشبه بحبة من رمال تثيرها الرياح ماهبت « هنالك هـدأ

خاطرى. وثلج صدرى. وأمكننى أن أقول إن أذكياءنا ليسوا بأغبياء. وعلماءنا ليسوا بجهلاء. ولكنهم انضموا إلى الجماعة فنزلوا منها منزلة أمثالهم من أمثالها فى كل زمان ومكان

كنت أعجب لخضوع أتباع الحزب الوطنى لرؤسائهم الذين يؤذونهم ويمثلون بهم ويستلبون أموالهم إن كانوا أغنياء وقواهم إن كانوا أقوياء. ومستقبلهم إن كانوا متعلمين. وحاضرهم إن كانوا موظفين وعقولهم إن لم يكونوا شيئاً من هذا ولا ذاك. كما كنت أعجب لانصرافهم عمن يأخذهم باللين. ويرفق بهم. ويحنو عليهم. ويضع يده فى أيديهم فى مزالق الحوادث مخافة أن تزل بهم أقدامهم. فما زال عجبي حتى قرأت في روح الاجتماع قوله فى حديثه عن الجماعة وهى تحترم القوة وتخنع لها. ولا تتأثر بالحسنى إلا قليلا. لانها فى نظرها صورة من صور الضعف ليس إلا. لذلك لم تمل إلى رؤسائها الذين عرفوا باللين والرفق بل إلى الطغاة المستبدين الذين سحقوها

وكنت أعجب لاهتمامهم بمطالعة المقالات السياسية التى تنشرها جرائد حزبهم وتأثيرهم على ما تشتمل عليه

من الأدلة الفاسدة . والمعانى السقيمة . والأساليب الباردة . والبراهين الملفقة . التى يأنف عقل العاقل أن يمنحها حتى النظرة الأولى . وكنت أظن أن ذلك راجع إلى فساد ذاتى فى أذواقهم . أو ضعف غرزى فى مداركهم . حتى وقفت على الحقيقة عند الاطلاع على قول صاحب روح الاجتماع أن رابطة الأفكار التى تقارنها الجماعات ببعضها من حيث المشابهة أو التلازم ظاهرية لاحقيقية . فهى تتسلسل عندها كما تتسلسل الادلة فى ذهن الرجل الاسكيماوى الذى عرف بالتجربة أن الثلج وهو جسم شفاف يذوب فى الفم . فاستنتج من ذلك أن الزجاج وهو شفاف أيضاً يجب أن يذوب فى الفم . وكالمتوحش الذى يتصور أن أكل قلب العدو الشجاع ينقل شجاعته إلى الآكل . والحاصل أن تعقل الجماعات عبارة عن الجمع بين أشياء متخالفة لارابطة بينها إلا فى الظاهر والانتقال الفجائى من الجزائى إلى الكلى ومن التخصيص الى التعميم بلا ترو : والأدلة التى يقدمها إليها أولئك الذين عرفوا كيف يقودونها كلها من هذا الطرز .

لأنها هى الأدله التى تؤثر فيها . بخلاف سلسلة من الأدلة المنطقية فانها لا تدركها بحال . فالخطيب الخبير بأحوال جماعته يعرف طريقة استحضار الصور التى تجذبها . فاذا نجح فذلك ماأراد . ولو ألقيت خطب فى عشرين مجلد بعد ذلك ما كان لها من التأثير ما أحدثته تلك الكلمات التى دخلت فى اشخاص المراد اقناعها

وكنت أعجب لأغراض المتعلمين منهم عن الحقائق التاريخيه والسياسية والاجتماعية المتعلقة فالمسألة المصرية وعلاقة الدول الاجنبية بها عامة والدولة المحتلة خاصة . وتقدير الفرق بين قوة الدولة الغاصبة وقوة الامة المغصوبة . وتنظيم حلقات الوسائل الموصلة إلى سعادة مصر واستقلالها . وطيرانهم وراء الذين يقولون لهم الجلاء على الأبواب و * الدستور قاب قوسين أو أدنى * قطعنا شوطاً بعيداً * و * لم يبق إلا القليل * و * الدولة العثمانية بدأت تهتم بشأننا والحكومه الالمانية تساعدنا * و * الحكومة الانكليزيه ترتعد فرائسها منا * و * أوربا جميعها تحسب لنهضتنا ألف حساب * وأمثال ذلك مما هو أشبه بخيالات الأطباء الذين

يحاولون تعزية المرضى المشرفين • وخرافات المنجمين الذين يعبثون بعقول عجزة الشيوخ وجهلة النساء • حتى قرأت فى روح الاجتماع قوله « سارت الفلسفة إلى الامام شوطاً بعيداً ولكنها مع تقدمها لم تهيء للجماعات خيالا يلذها. والجماعات لا غنى لهـا عن الأوهام. لذلك اندفعت وراء غريزتها وذهبت إلى تجار البلاغة الذين يبيعونها تجارة حاضرة مثلها كمثل الحشرة التى تدب حين يكون الضياء..... فما كانت الجماعات فى ظمأ إلى الحقيقة طول حياتها. واذا تبدت أمامها وكانت تغضبها أعرضت ونأت وراحت تعبد الاوهام التى ترى الامرة [1] عليها لمن أضلها • والويل منها لمن هداها » فعلمت أن تلك الجماعات ليست جاهلة ولا قاصرة ولكنها جماعة. ومن الضرورى أن تكون كذلك

وكنت أعجب لتشيعهم للدستور واحتفالهم به. وإلحاحهم فى طلبه إلحاح الفاهم المدرك. وأنا أعلم أن أكثرهم لايفهمون منه إلا أنه القوة التى يقتدر بها الشعب على أن يأكل بعضه بعضاً بلارقبة [2] ولاحذر. فلو عرفوه

---

(١) الاماره والولايه (٢) الانتظار

حق معرفته وجدوا فى أنفسهم أن عدمه خير لهم من وجوده . لأنه عدل ورحمة . ولأنه يمنع ظلمة الآكلين أن يجدوا ما يأكلون . فلم أقف على سر تشيعهم له وهو فى الحقيقة أبغض الأشياء إليهم . حتى قرأت فى ذلك الكتاب قوله « وكم من جماعة تقدمت إلى الموت فى سبيل معتقدات وأفكار وكلمات كانت تكاد لا تفقه شيئاً من معانيها . لأن المصلحة الذاتية قلما تكون سبباً قوياً لحركات الجموع

وكنت أراهم غالين فى مشاعرهم . متطرفين فى ميولهم وأرى أنهم إما أن يحبوا فيعبدوا . وإما أن يبغضوا فيقتلوا وأن الرجل عندهم إما أن يكون إلهاً أو شيطانا ولا ثالث لهما . وأن رضاهم عن رؤساء حزبهم لا يقل عن رضاهم عن رسلهم وأنبيائهم الذين هدوهم الصراط المستقيم . فأكاد أختصهم بصفات الغفلة والبله لولا أن كشف لى روح الاجتماع سر المسألة فى قوله وغلو مشاعر الجماعة وبساطتها وجهلها أنها لا تعرف الشك ولا التردد . فهى كالنساء تذهب فوراً إلى الحد الأقصى . فالشبهة متى بدت تنقلب إلى بديهى لا يقبل البحث . والرجل منفرداً قد لا يقر على أمر أو ينفر

منه نفوراً لا يتعدى مجرد الرغبة عنه . وأما الرجل فى الجماعة فانه متى نفر انقلب نفوره حقداً شديداً وقوله فى موضع آخر * كثيراً ماسمعنا عن ملهى كان يكثر من تمثيل الروايات المحزنة فكان الحرس يحيط دائما بممثل الخائن الاثيم عند خروجه خوفا عليه من هياج المتفرجين الذين ثارت نفوسهم للانتقام منه لانه ارتكب تلك الجرائم الوهمية وهذا فيما أرى من أكبر الادلة على حالة الجماعات العقلية وبالاخص على سهوله التأثير فيها . فللوهمى عليها من ذلك ما للحق تقريبا . وهى ميالة ميلا ظاهراً إلى عدم التمييز بينهما

وكنت أعتقد أن لاشىء يؤثر فى نفوس الجماعات غير إخلاص الدعاة . ثم استحال على التوفيق بين ما أعتقد وبين ما أعلم من أطوار زعماء الحزب الوطنى ودخائل نفوسهم من أنهم لايطلبون مما يعملون فى هذه الحياة غير مايطلب كل عامل فيها من لقمة سائغة . وجرعة صافية . ومركب فاره (١) . ومتكأ وثير (٢) حتى اهتديت إلى حل هذه

---

(١) خفيف نشط حاذق (٢) لين تخين

العقدة فى قول صاحب روح الاجتماع وجد « القواد فى الامم على الدوام . غيرأنهم ليسوا جميعاً من أهل الاعتقاد الصادق الذى يصير به المرء رسولا فى قومه . بل هم فى الغالب سوفسطائيون لايسعون إلا وراء منافعهم الذاتية فيتملقون ذوى المشاعر السافلة ليكتسبوا رضاهم . وقد يكون النفوذ الذى ينالونه بهذه الوسائل كبيراً جداً إلا أنه سريع الزوال

وكنت أعتقد أن أقدر الناس على قيادة الجماعات أذكاهم قلباً . وأوسعهم عقلا . وأفصحهم لسانا . وأجرأهم قلما . فلما رأيت أن قواد الحزب الوطنى ليس فيهم من يمتاز عن أفراد الطبقة التى نشأ فيها بميزة خاصة من طلاقة لسان . أو بلاغة قلم أو علم واسع . أو خلق مؤثر . وقفت أمام هذه المعضلة المستعصية وقفة الحائر المضطرب حتى قرأت فى روح الاجتماع قوله ليس القواد غالبا من أهل الرأى والحصافة بل هم من أهل العمل والاقدام . وهم قليلو التبصر . على أنه ليس فى استطاعتهم أن يكونوا بصراء . لان التأمل يؤدى غالبا الى الشك ثم السكون . وهم يخرجون عادة من بين ذوى الاعصاب المريضة المتهوسين الذين

اضطربت قواهم العقلية الى النصف وأمسوا على شفا جرف الجنون . لا ينفع الدليل على فساد ما اعتقدوا كيفما كان معتقدهم باطلا . ولا تثنيهم حجة عن طلب ماقصدوا بالغا منها الخطل[1] ما بلغ . ولا يؤثر فيهم الاحتقار ولا الاضطهاد . بل ذلك يزيدهم تهوسا وعنادا . وقوله فى موضع آخر وكان أكبر القواد من الامم خصوصا قواد الثورة الفرنساوية من قصار العقول جداً . وكان أكبرهم تأثيراً أشدهم قصراً فى العقل . فان الانسان ليدهش مما يراه من التخبط[2] عند مطالعة رسائل أعظمهم قدراً وهو روسبيير . ومن لم يقرأ غيرها من ترجمة حياته لايجد ما يعلل به قوة ذلك المسيطر الجبار . . . صيغ كلية جارية على كل لسان . وشقشقة فى الفصاحة محفوظة من كتب التربية والتعليم على الطريقة اللاتينية اجتمعتا فى نفس خلوها أكثر من انحطاطها . نفس تكاد لاتعرف من وسائل الهجوم أو الدفاع الا ما تعوده للتلاميذ من قول الواحد منهم لزميله : هل من مبارز . وليس هناك رأى ولا تدبير ولا شاردة . عنف ممل وشدة

---

(١) خطل فى منطقه ورايه — اخطأ (٢) تخبط الشيطان — المخسده

وشدة مسئمة . فاذا فرغ القارىء من تلك المطالعة المملة شعر بالحاجة إلى قول أف كما كان يفعل الرجل الظريف كاميل ديمولان

وكنت أعجب لبعض أتباع الحزب الوطنى وبعض كتاب جرائده كيف استحالوا الى جناة مجرمين بعد أن كانوا أشرفاء أتقياء . وكيف هان عليهم أن يجاملوا نفوسهم بالاغضاء عما نقترفه من سب الابرياء وهتك أعراض الاشراف والعب (١) فى الدماء البشرية بصورة وحشية بعد أن كانوا يترفعون عن لمم (٢) الذنوب وصغائر الدنايا كما كنت أعجب لهذا البائس المسكين الذى كان أندى الناس وجهاً . وأكثرهم حياء وأدباً . كيف حسن فى نظره منظر جريمة القتل التى ارتكبها ثم هلك فى سبيلها فضرب بجريمته الوطن الذى يحسب أنه يخدمه ضربة هيهات أن يبل من بعدها ثم عرفت أن ذلك لازم من لوازم الجماعات عندما قرأت . قول صاحب روح الاجتماع « أن الفرد يكتسب من وجوده وسط الجمع قوة كبيره تشجعه على الاسترسال فى أمياله مما

---

(١) عب الماء شربه من غير تنفس (٢)

كان يحجم عنه منفرداً بالضروره . ثم هو لايكبح جماح نفسه لان الجماعة لاتسأله عن أفعالها لشيوعها بين جميع الأفراد يشعر الواحد منهم بما قد يجره العمل عليه من التبعة . وهـذا الشعور هو الزاجر للنفوس عما لاينبغى »

وقوله فى موضع آخر « تصدر الجرائم عن الجماعة غالباً بسبب تحريض قوى . ويعتقد الذين ارتكبوها من أفرادها أنهم قاموا بواجب كان مفروضاً عليهم . وهـذا ليس شأن الجناة فى الاحوال الاعتيادية

وهنا يمكننى أن أستخلص مما تقدم الحقائق الآتية

(١) ليس إجماع واحد أو عشر آلاف أو مائة ألف متأثرين بشعور واحد مستمدين قوة واحدة على رأى من الآراء دليلا على صحة ذلك الرأى لانه رأى فرد واحد تأثر به الباقى تقليـد أو عدوى . وأرى الواحـد مترجح بين الخطأ والصواب

(٢) ليس انضمام جماعة من أذكياء الناس وعقلائهم فى حزب من الاحزاب أو جمعية من الجمعيات دليلا على فضل ذلك الحزب أو شرف مقاصـده أو صحـة مبادئه لانهـم

لا يجتازون عتبته الا بعد أن يخلعوا عقولهم ومواهبهم مع أرديتهم وعصيهم خارج بابه

(٣) لايشترط فى قيادة الجموع أن يكون القائد ذكياً أوعاقلا أو داهية أو مفكراً أو فصيحاً بل يكفيه من ذلك كله شيء من العلم بأذواق أتباعه وسبل الوصول إلى قلوبهم لايزيد عن علم التاجر بأذواق زبائنه ورغباتهم

(٤) ليس حب الجماعة لبعض الناس وبغضهم لآخرين دليلا على رفعة من يحبون . وضعة من يبغضون . وليست جرائمهم التى يقترفونها باسم الشعور الذى يشتركون فيه دليلا على أن يقتلون من يستحق القتل . أويشتمون من يستحق الشتم أويحتقرون من يستحق الاحتقار . بل كثيراً ماتكون الحقيقةعلى العكس من ذلك عند مايكون قائد تلك الجماعة من أشرار الناس وأدنيائهم

(٥) لايكون مقتدراً تمام الاقتدار على قيادةالجماعات واستهوائها أو مقاومتها ومصارعتها من يذهب فى كتاباته أو خطاباته مذهب القياس الصحيح والبرهان العقلى . ومن يكون كثير الاحتراس من الكذب والتلفيق والسفسطة

والتضليل أو طاهر اللسان والقلم من السفاهة والشتم

(٥) لا سبيل للانسان إلى الخلاص من خطل الجماعات وضلالها مهما كان ذكياً أو مفكراً إلا إذا حبس نفسه عن الانضمام اليها . أو كان له من عزيمة الرأى وصلابة النفس ما يمكنه من تربية نفسه على التجرد حتى يصير طبيعة له . فيحضرها شاهداً كغائب ومجتمعاً كمنفرد

(٧) لا يجوز للتلميذ فى أثناء الدراسة أن ينضم إلى حزب من الأحزاب أو جمعية من الجمعيات بالفعل أو بالقوة إلا بعد أن يستمد من العلم قوة تساعده على اكتساب ملكة التجرد التى لا بد له من معالجة اكتسابها للخلاص من جنون الجماعات وتهوسها ان اضطر فى مستقبل أمره إلى الانضمام إليها

(٨) جميع القوى التى يتوسل بها قائد الحزب أو الجماعه إلى التأثير على أتباعه أو تكثير عددهم ضعيفة بجانب القوة التى يستمدها من مقاومة الحكومة التى يعيش فيها له بالتهديد أو السجن أو التعذيب . فانه يستفيد من ذلك عطف أتباعه عليه . وتشبثهم به . ويؤنس باحاديث نكبته ونوادر

رزيئته قلوبهم كلما ألم بها الملل منه ومن وعوده الكاذبه وأقواله المرددة . فان كان لتلك الحكومة أرب فى القضاء عليه وعلى أتباعه وكانت قادرة على قطع الصلة بينه وبينهم بقفل جريدته إن كان صحافياً أو قطع خطابته إن كان خطيباً فلتفعل . وإلا فلتتركه وشأنه حتى يعنى بأمرهم . وتنفذ بقية القوى التى يتوسل بها اليهم

(٩) ليست تلك الطبيعة المقررة للجماعات المؤلفة من البساطة والبله وسرعة التصديق والاندفاع والغلو شراً دائماً بل قد تكون خيراً مخلصاً اذا رزق الله تلك الجماعات قواداً دهاة مقتدرين على الخداع الشريف يسوقونها الى سعادة أممهم وهنائها . وحريتها واستقلالها

(١٠) ليس وجود التهوس والتحمس والغضب والتهور فى حزب من الأحزاب المصرية دليلا على تأخر الامة وانحطاطها انحطاطا كثيراً لانها صفات عامة فى كل الجموع الشرقية الغربيه وان كان خطرها علينا اكثر من خطرها على غيرها

اين الفضيلة

قرأت في بعض الروايات أن فتى قضى حقبة من دهره مولعا بحب فتاة خيالية لم يرها مرة واحدة في حياته وانما تخيل في ذهنه صورة ألفها من شتى المحاسن ومتفرقاتها في صور البشر . فلما استقرت في مخيلته تجسمت في عينيه فرآها فأحبها حباً ملك عليه قلبه وحال بينه وبين نفسه وذهب به كل مذهب . فأنشأ يفتش عنها بين سمع الارض وبصرها أعواما طوالا حتى وجدها

لا أستطيع أن أكذب هذه القصة لانى أنا ذلك الفتى لافرق بينى وبينه الا أنه يسمى ضالته الفتاة وأسميها الفضيلة وأنه فتش عنها فوجدها وفتشت عنها حتى عييت بأمرها فما وجدت اليها سبيلا

فتشت عن الفضيلة في حوانيت التجار فرأيت التاجر لصاً في أثواب بائع . وجدته يبيعنى بدينارين ما ثمنه دينار واحد فعلمت أنه سارق الدينار الثانى . ولو وكل إلى أمر القضاء ما هان على أن أعاقب لصوص الدراهم وأغفل

لصوص الدنانير مادام كل منهما يسلبني مالي ويتغفلني عنه

أنا لا أنكر على التاجر ربحه ولكن أنكر عليه أن يتناول منه فوق جزائه على جهد نفسه فى جلب السلعة وبذل راحته في صونها وإحرازها. وكل ما أعرف من الفرق بين حلال المال وحرامه أن الاول بدل الجد والعمل .والثانى بدل الغش والكذب

فتشت عن الفضيلة فى مجالس القضاء فرأيت أن أعدل القضاة من يحرص الحرص كله على أن لا يهفو فى تطبيق القانون الذى بين يديه هفوة يحاسبه عليها من منحه هذا الكرسى الذى يجلس عليه مخافة أن يسلبه إياه : أما إنصاف المظلوم والضرب على يد الظالم وإراحة الحقوق على أهلها وإنزال العقوبات منازلها من الذنوب فهى عنده ذيول وأذناب لا يأبه (١) لها ولا يحتفل بشأنها الا إذا أشرق عليها الكوكب بسعده فمشت مع القانون فى طريق واحد مصادفة واتفاقا .فاذا اختلف طريقهما بين يديه حكم بغير ما يعتقد ونطق بغير مايعلم وأدان البرىء وبرأ الجانى . فاذا

---

(١) ابه للشيء تفطن له واحتفل به

عتب عليه فى ذلك عاتب كانت معذرته اليه حكم القانون عليه كانما تريد أن يجعل العقل أسير القانون وما القانون إلا حسنة من حسنات العقل وصنيعة من صنعائعه :

هذا شأن أعدل القضاة وأهداهم إلى الحق وأقومهم سبيلا . أما الآخرون فيطبقون أحكامهم على قانون الربح وينزلون من الدينار منزلة اللازم من الملزوم فدوورن معه وجوداً وعدما

فتشت عن الفضيلة في قصور الاغنياء فرأيت الغنى اماشحيحاً او متلافاً .[1] أما الاول فلو كان جار البيت فاطمة رضى الله عنها وسمع فى جوف الليل أنينها وأنين ولديها من الجوع مامد اصبعيه إلى أذنيه أن ثقة منه أن قلبه المتحجر لا تنفذه نسمات الرحمة ولا تمر بين أثنائه نسمات الاحسان . وأما الثانى فماله بين ثغر الحسناء . وثغر الصهباء . فعلى يد أى رجل من هذين الرجلين تدخل الفضيلة قصور الاغنياء

فتشت عنها فى مجامع السياسة فرأيت أن المعاهدة

---

(١) متلف لماله للمبالغة

والاتفاق والقاعدة والشرط ألفاظ مترادفه معناها الكذب ورأيت أن الملك في كرسي مملكته كالحوذي في كرسي عربته . لافرق بينهما إلا أن هذا ينقض « تعريفته » . وذاك ينقض معاهدته . ورأيت أن أعدى عدو للانسان الانسان . وأن كل أمة قد أعدت في مخازنها ومستودعاتها وفي بطون قلاعها وعلى ظهور سفنها ما شاء الله أن تعده لاختها من عدد الموت وأفانين العذاب . حتى إذا وقع بينهما الخلف على حد من الحدود أو لقب من الالقاب لبس الانسان فروة السبع واتخذ من تلك العدد الوحشية أظفاراً كأظفاره وأنيابا كانيابه فشحذ الأولى وكشر عن الاخرى ثم هجم على ولد أبيه وابن أمه هجمة لا يعود منها ألا به أو بنفسه التي جنبيه . وانك لو سألت الجنديين المتقاتلين ما خطبكما وماشأ نكما وعلام تقتتلا وما هذه الموجدة التي تحملانها بين جنبيكما ومتى ابتدأت الخصومة بينكما وعهدي بكما أنكما ما تعارفتما الا في الساعة التي اقتتلتما فيها لعرفت أنهما مخدوعان عن نفسيهما ما خرجا من ديارهما الا ليضعا دوة في تاج الملك أو نيشانا في صدر القائد

فتشت عنها بين رجال الدين ورجال الصحف فرأيت أنهما يتجران بالعقول فى أسواق الجهل ورأيت كلا منهما قد ثغر [١] له فى رأس من رؤوس البشر ثغرة يتحدر منها إلى العقول فيفسدها وإلى القلوب فيقتلها ليتوسل بذلك إلى الذخائر فيسرقها والخزائن فيسلبها . هذا باسم الوطنية وذاك باسم الدين

فتشت عنها فى كل مكان أعلم أنه تربها وموطنها فلم أعثر بها فليت شعرى هل أجدها فى الخانات والمواخير أو فى مغارات اللصوص أو بين جدران السجون

سيقول كثير من الناس قد غلا الكاتب فى كلمه وجاوز الحد فى تقديره فالفضيلة لاتزال تجد فى صدور الناس صدراً رحباً . وموردا عذباً . وإنى قائل لهم قبل أن يقولوا كلمتهم إنى لا أنكر وجود الفضيلة ولكننى أجهل مكانها فقد عقد رياء الناس أمام عينى سحابة سوداء أظلم لها بصرى حتى ما أجد فى صفحة السماء نجماً لامعاً . ولا كوكباً ساطعاً

كل الناس يدعى الفضيلة وينتحلها وكلهم يلبس لباسها

---

(١) كسر

ويرتدى رداءها ويعدلها عدتها من منظر يستهوى الاذكياء والاغبياء ومظهر يخدع أسوأ الناس بالناس ظناً . ومن لى بالوصول إليها فى هذا الظلام الحالك والليل

إن كان صحيحاً مايتحدث به الناس من سعادة الحياة وطيبها وغبطتها ونعيما فسعادتى فيها أن أعثر فى طريق فى يوم من أيام حياتى بصديق يصدقنى الود وأصدقه فيقنعه منى ودى وإخلاصى دون أن يتجاوز ذلك إلى ما وراءه وأن يكون شريف النفس فلا يطمع فى غير مطمع شريف القلب فلا يحمل حقدا ولا يحفظ وتراً ولا يحدث نفسه فى خلوته بغير مايحدث به خلطاءه فى محضره شريف اللسان فلا يكذب ولا ينم ولا يلم بعرض ولا ينطق بهجر [1] شريف الحب فلا يحب غير الفضيلة ولا يبغض غير الرذيلة

هذه هى السعادة التى أتمناها ولا أراها

إنى لارى الرياض الغناء تهفو أشجارها . وترن أطيارها وأرى جداول الماء تنساب بين أنوارها وأزهارها انسياب الافاعى الرقطاء . فى الرمال البيضاء . وأرى أنامل النسائم

---

(١) الهجر الفحش

تعبث بمنثورات الاوراق . عبث الهوى بألباب العشاق . وأسمع ما بين صفير البلابل . وخرير الجداول . نغمات شجية تبلغ من نفس الانسان ما لا تبلغ أوتار العيدان . فلا يسرني النظر ولا يطربني مسمع لاني لا أرى بين هذه المشاهد ضالتي التي أنشدها .

أ لقد سمج وجه الرذيلة في عيني وثقل حديثها في مسمعي حتى أصبحت أتمنى أن أعيش بلا قلب فلا أشعر بخيرها وشرها وسرورها وحزنها .

ولولا بنيات صغار يفقدن بفقدي طيب العيش ونعيمه لفررت من هذا العالم الناطق إلى ذلك العالم الصامت فأجد من الانس به والسكون إليه ما وجده الذي يقول :

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكدت أطير

ايها المحزون

إن كنت تعلم أنك قد أخذت على الدهر عهداً أن يكون لك كما تريد فى جميع شؤونك وأطوارك وألا يعطيك ويمنعك ألا كما تحب وتشتهى فجدير بك أن تطلع لنفسك فى سبيل الحزب عنانها كلما فاتك مأب. أو تعذر عليك مطلب وإن كنت تعلم أخلاق الايام لى أخذها وردها. وعطائها ومنعها ، وأنها لا تنام على منحة تمنحها حتى تكر عليها راجعة فتستردها وأن هذه سنتها وتلك خلتها فى جميع أبناء آدم سواء فى ذلك ساكن القصر وساكن الكوخ ومن يطأ بنعاله هام الجوزاء ، ومن ينام على بساط الغبراء ، فخفض من حزنك ، وكفكف من دمعك ، فما أنت بأول عرض أصابه سهم الزمان ومامصابك بدعة خارقة فى جريدة المصائب والاحزان

أنت حزين لان نجماً زاهراً من الأمل كان يتراءى لك فى سماء حياتك فيملأ عينيك نوراً وقلبك سروراً وما هى الا كرة الطرف أن افتقدته فما ، وجدته ، ولو أنك أجملت

فى أملك ، لما غلوت فى حزنك ، ولو أنعمت نظرك فيما تراءى لك لرأيت برقاً خاطفاً ، ماتظنه نجماً زاهراً ، وهنالك لا يبهرك طلوعه ، فلا يفجعك أفوله

أسعد الناس فى هذه الحياة من إذا وافته النعمة تنكر لها ونظر اليها نظر المستريب بها وترقب في كل ساعة زوالها وفناءها فان بقيت فى يده فذاك وإلا فقد أعد لفراقها عدته من قبل

لولا السرور فى ساعة الميلاد ما كان البكاء ساعة الموت ولولا الوثوق بدوام الغنى ما كان الجزع من الفقر ، ولولا فرحة التلاق ، ماكانت ترحة الفراق

الى الدير

مسكين ذلك الفتى الذى رأيته أمس فى أحدى زوايا الاندية العامة وقد ظللت جبينه الوضاح سحابة سوداء من الحزن وأنحنى على نفسه كانما شعر بأن قلبه يتمشى فى صدره وأنه يحاول الفرار منه فهو يعطف عليه ليمسكه بين جوانحه ، ولو أنه أراد بنفسه خيراً لتركه يمضى فى سبيله حيث شاء ،

فبعداً لقلب لاتسكن عن الخفقان ، ولا يفيق من الهموم والاحزان

سألته ما بالك أيها الصديق ، قال لاشيء ، قلت أنت تكتمني ما في نفسك ولو عرفتني ما كتمتني قال ماجهلتك مذ عرفتك ولكنني أعطيت الله عهداً ألا أشكو إلا إلى من أرجو عنده البرء ، وما أنا براج عندك ولا عند أحد من الناس برأ من دائي قلت هبني طبيبا والطبيب كما تعلم وإن كان يشفي نادراً فانه يسكن غالبا ويعزي دائما ، فانا أن عجزت عن معالجتك فلا أعجز عن تعزيتك ، على أن الماء أذا اشتد غليانه احتاج الى التنفيس والا طار بالقدر طيران الهم بالصدر

فأنشأ يحدثني حديثا تمازجه العبرات وتقطعه الزفرات ويقول : زوجني أبي منذ سنين زوجة جاهلة غبية لاتفهم معنى الزواج إلا أن فيه قضاء لباناتها [1] وترفيه عيشها ، وأرضاء نفسها ، وهو يحسب أنه قد أحسن الى بسليلة [2] المجد وربيبة النعمة ومالكة الدور وساكنة القصور ، أجل

---

(١) اللبانة — الحاجة (٢) ابنه

أنها ذات مال وفير، وخير كثير، ولكن ذهب غفر الله له أني ما كنت أريد أن أكون تاجراً أكسب مالا بل زوجا أجد بجانبي نفسا يؤنسني محضرها ويوحشني مغيبها ومرآة صافية نقية أتراءى فيها فتريني نفسي كما هي لاتكذبني في خير ولا شر إني أريد أن أجد في الزوجه التي أتزوجها صديقا في المرتبة العليامن مراتب الصداقة ومن لي به في امرأة تجهل حتى أرضاع طفلها ولبس ثوبها. على أن ثروتها ما كانت تقوم بحاجتها فقد كانت لها خادم لملابسها وأخرى لشعرها وأخرى لسريرها وطابخة وغاسلة ومرضع وقهرمانة وخياطة خاصة بها وطبيب لايغب[1] زيارتها ومؤنسات لايفارقن مجلسها ولم تكن ممن أنعم الله عليهنّ بنعمة الجمال فكانت تنفق ما يزيد على نصف دخلها في الحسن المجلوب والجمال المكذوب وليتها كانت تغفل أمري وتتركني وشأني فأستطيع أن أتناساها وأعد نفسي من العزاب تخيلا وتقديراً بل كانت تقيم من نفسها ومن هذا الجحفل اللجب[2] المحيط بها حراسا كحراس الليل وجواسيس كجواسيس الاستانة

(١) غب فلان القوم اذا جاءهم حينا بعد حين (٢) الجحفل الجيش واللجب ذو الجلبة والصياح

يراقبن مواقع نظرى ومواطىء قدمى لتعلم أين مذهب قلبي ووجهة نفسى فتغار من الكوكب إذا رأتنى أنظر اليه وتكاد تمزق الثوب الذى أتعشق لبسه وتحسبها آهة الوجد أودمعة الحب إذا رأتنى أتأوه من الآلام عشرتها أو أبكى لعظم مصيبتى فيها وما هى بغيرة الحب ولكنها الأثرة[١] قبحها الله وقبح كل ما تأتى به وأكثر ما كان يغيظنى منها أنها ما كانت تفتح على باب الحساب على اللفتات والخطوات ألا فى الساعة التى أخلو فيها بنفسى أو بكتابى فما أكاد أنتفع بواحد منهما ، فان سكت أغضبها سكوتى وأن نطقت أغضبها حديثى وأن قرأت فى كتابى ظنت أن المؤلفين ما ألفوا الكتب ألا نكاية بالنساء لكى يتخذها الرجال ملجأ يعتصمون به محادثتهن ومسامرتهن ، فكان الكتاب أعدى أعدائها عندها وأبغض خصومها اليها وجملة القول أنها ما كانت تستطيع أن تتصور الا أن الله خلقها لتكون طفلة لاهية لاعبة فى جميع أطوار حياتها وأنه ماخلقنى ألا لاكون زينة مجلسها، ودمية[٢] قصرها، وأداة لهوها ولعبها

(١) الاثرة اختيار الشئ والاستئثار به (٢) الدمية الصورة المصورة

فلا أقرأ ولا أ كتب ولا أعطى نفسى حقاً من حقوقها ولا أبكر لمزاولة أعمالى ولا أسأم أحاديثها الطويلة المملة التى لا تشتمل إلا على نقد الازياء، واغتياب النساء، فان وافيت رغبتها فذاك وإلا استحالت فى لحظة واحدة من إنسان ناطق إلى وحش مفترس، فلا تعرف كلمة مؤلمة لاتسمعنيها ولاتترك وسيلة من وسائل التنغيص لاتهجم بها على فكنت بين ألم رضاها وعذاب غضبها فى شقاء حبب إلىّ الموت وبغض إلى وجه الحياة، وبعد فقد رأيت أن العيش معها مستحيل فلم أر بداً من فراقها ففارقتها وما على وجه الأرض أبغض إلى من المجد ولااسمج فى نظرى من المال

نفضت يدى من الزوجة الجاهلة ورحت أفتش عن الزوجة المتعلمة وقلت ليكون لى من الشأن فى الزواج الثانى مالم يكن لى فى الزواج الاول بعد ماصار إلى الخيار. وبعد تلك التجربة وذاك الاختبار. فهيأ لى الحظ جاراً ملاصقاً مازلت أسمع مذحل فى جوارى أن في بيته فتاة مازال معنياً بأمرها حتى خرجها (١) وأدبها فاصبحت نابغة مدرستها وسيدة

(١) خرج لاستاذ تلميذه هذبه وعلمه

أترابها علماً وفضلا وتهذيباً وأبا فما قنعت بالخبر حتى خالطت أباها ثم خالطتها فاذا المرأة الجديدة من جميع وجوهها فوقعت من نفسي أحسن موقع وحلت مكاناً لم يكن حل من قبل

خطبت الفتاة إلى أبيها فما لبث أن أخطبني [1] فامتلأ قلبي فرحاً وسروراً وخيل الى أنني أرى في سماء الآمال نجما لامعاً يدنو قليلا قليلا وسجلت [2] أن الدهر أنشأ يكفر بحسناته ، ما أسلف من سيئاته ، فاني لكذلك وقد أعددت للبناء عدته ولم يبق بيني وبينه الا يوم واحد واذا بحامل البريد قد جاءني بهذا الكتاب فها كهة فاقرأه بان فيه بقية قصتي وشر نكبتي . ثم ألقى الى بغلاف معنون باسمه يشتمل الكتاب على رسم فى حسن الصورة والهندام يخاصر فتاة جميلة وقد ألقت برأسها على كتفه فقرات فى الكتاب ما يأتى

« علمت انك خطبت فلانة الى أبيها وانك عما قليل ستكون زوجها ولعمرى لقد كذبك نظرك وخدعك من قال لك انك ستكون سعيداً بها فانها لن تكون لك بعد أن

---

(١) يقال خطب فلان الى فلان فأخطبه أى أجابه

(٢) سجل القاضى قضى وحكم واثبت حكمه المسجل

صارت لغيرك ولا يخلص حبك إلى قلبها بعد أن امتلا بحب عاشقها ، فأعدل عن رأيك فيها وانفض يدك منها ، وإن تعرف من هو ذلك العاشق وتتحقق صدق خبرى واخلاصى إليك في نصيحتى فانظر إلى الصورة المرسلة مع هـذا الـكتاب » : التوقيع :

فما نظرت الصورة وقرأت الـكتاب حتى عرفت كل شيء فأحسست برعدة تتمشى فى أعضائى وشعرت بسحابة سوداء قد غشت على نظرى لهول ماسمعت وسوء ما رأيت إلا أنى تماسكت قليلا فأعدت إليه كتابه وقلت له وهو كل ما استطعت أن أقول . ماذا يعنيك من أمر فتاة فاجرة عاهر بعد ما انكشف لك سرها . وظهرت لك حقيقتها ولو كنت فى مكانك لعدلت عن الحزن على فوتها إلى الاستغفار من حبها وحمد الله على ما ألهم من صواب الرأى فيها أما إن سألتنى عن رأيى فى زواجك بعد ذلك فانى لاأرى لك بعد اليوم إلا إن تترهب وتتعزب [1] وأن تقول ماقاله هملت وقـد زهد فى الزواج بعدما عرف حقيقة المرأة وأدرك خبيثة نفسها « الى الدير »

---

(١) تعزب أى عاش عزبا لايتزوج

الحرية

استيقظت فى فجر هذا اليوم على صوت هرة تموء[1] بجانب الفراش وتتمسح بى وتلح فى ذلك الحاحاً غريباً فرابنى أمرها وأهمنى همها وقلت لعلها جائعة فنهضت وأحضرت لها طعاماً فعافته وانصرفت عنه فقلت لعلها عطشة فأرشدتها الى الماء فلم تحتفل به وأنشأت تنظر الى نظرات تنطق بما تشتمل عليه نفسها من الآلام والأحزان فأثر فى نفسى منظرها هذا تأثيراً شديداً حتى تمنيت أن لو كنت سليمان أفهم لغة الحيوان ، لاعرف حاجتها وأفرج كربتها ، وكان باب الغرفة مقفلا فرأيت أنها تطيل النظر اليه وتلصق بى اذا رأتنى اتجه اليه فأدركت غرضها وعرفت انها تريد ان افتح لها الباب . فأسرعت بفتحه فما وقع نظرها على الفضاء ورأت وجه السماء حتى استحالت حالتها من حزن وهم الى غبطة وسرور ، وانطلقت تعدو فى سبيلها فعدت . الي فراشى وأسندت رأسى الى يدى وانشأت أفكر فى أمر هذه الهرة وأعجب لشأنها وأقول ليت شعرى هل تفهم

---

(١) المواء صوت الهر

الهرة معنى الحرية فهى تحزن لفقد انها وتفرح بلقياها اجل انها تفهم معنى الحرية وما كان حزنها وبكاؤها وامساكها عن الطعام والشراب الا من اجلها وما كان تضرعها ورجاؤها وتمسحها والحاحها الا سعيا وراء بلوغها

وهنا ذكرت ان كثيراً من أسرى الاستبداد من بنى الانسان لا يشعرون بما تشعر به الهرة المحبوسة فى الغرفة والوحش المعتقل فى القفص والطير المقصص الجناح من الم الاسر وشقائه . بل ربما كان بينهم من لا يفكر فى وجه الخلاص او يلتمس السبيل الى النجاة مما هو فيه . بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء فى هذا السجن ويأنس به ويتلذذ بالآمه وأسقامه

من اصعب المسائل التى يحار العقل البشرى فى حلها يكون الحيوان الأعجم أوسع فى الحرية ميدانا من الحيوان الناطق . فهل كان نطقه شؤماً عليه وعلى سعادته وهل يجمل به ان يتمنى الخرس والبله ليكون سعيداً بحريته كما كان قبل ان يصبح زكياً ناطقا

يحلق الطير فى الجو ويسبح السمك فى البحر ويهيم

الوحش ماشاء فى الاودية والجبال ويعيش الانسان رهين المحبسين محبس نفسه ومحبس حكومته من المهد إلى اللحد

صنع الانسان القوى للانسان الضعيف سلاسل وأغلالا وسماها تارة ناموساً وأخرى قانونا ليظلمه باسم العدل ويسلب منه جوهرة حريته باسم الناموس والنظام

صنع له هذه الآلات المخيفة وتركه قلقا حذراً مروع القلب مرتعد الفرائص يقيم من نفسه على نفسه حراسا ترقب حركات يديه وخطوات رجليه وفلتات لسانه وخطرات وهمه وخياله لينجو من عقاب المستبد ويتخلص من تعذيبه فويل ما أكثر جهله وويح له ما أشد حمقه ، وهل توجد فى الدنيا عذاب أكبر من العذاب الذى يعالجه أو سجن أضيق من السجن الذى هو فيه

ليست جناية المستبد على أسيره أنه سلبه حريته بل جنايته الكبرى عليه أنه أفسد عليه وجدانه فأصبح لايحزن لفقد تلك الحرية ولا يذرف دمعة واحدة عليها

لو عرف الانسان قيمة حريته المسلوبة منه وأدرك حقيقة مايحيط بجسمه وعقله من السلاسل والقيود لانتحر

كما ينتحر البلبل إذا حبسه الصياد فى القفص وكان ذلك خيراً له من حياة لايرى فيها شعاعا من أشعة الحرية ولا تخلص إليه نسمة من نسماتها

كان في مبدأ خلقه يمشى عريانا أو يلبس لباسا واسعا يشبه أن يكون ظلة تقيه لفحة الرمضاء، أوهبة النكباء فوضعوه فى القماط كما يضعون الطفل وكفنوه كما يكفنون الموتى وقالوا له هكذا نظام الازياء

كان يأكل ويشرب كل ماتشتهيه نفسه وما يلتئم مع طبيعته فحالوا بينه وبين ذلك وملأوا قلبه خوفا من المرض أو الموت وأبوا أن يأكل أو يشرب إلا كما يريد الطبيب وأن يتكلم أو يكتب إلا كما يريد الرئيس الدينى أو الحاكم السياسى وأن يقوم أو يقعد أو يمشى أو يقف او يتحرك أو يسكن إلا كما تقضى به قوانين العادات

لاسبيل إلى السعاده فى هـذه الحيـاة إلا إذا عاش الانسان فيها حرا لايسيطر على جسمه وعقله و نفسه ووجدانه وفكره الا أدب النفس

الحرية شمس يجب أن تشرق فى كل نفس، فمن عاش

محروما منها عاش فى ظلمة حالكة يتصل أولها بظلمة الرحم وآخرها بظلمة القبر

الحرية هى الحياة ولولاها لكانت حياة الانسان أشبه شىء بحياة التماثيل المتحركة فى أيدى الأطفال بحركة صناعية

ليست الحرية فى تاريخ الانسان حادثا جديدا أو أطارئا غريبا وانما هى فطرته التى فطر عليها مذ كان وحشا يتسلق الصخور ويتعلق بأغصان الاشجار

ان الانسان يمد يده لطلب الحرية ليس بمتسول ولا مستجد وانما هو يطلب حقا من حقوقه التى سلبته اياها المطامع البشرية فان ظفر بها فلا منة لمخلوق عليه ولا يد لاحد عنده

(تم)